چان چينيه

يوميات لص

ترجمة: أحمد عمر شاهين

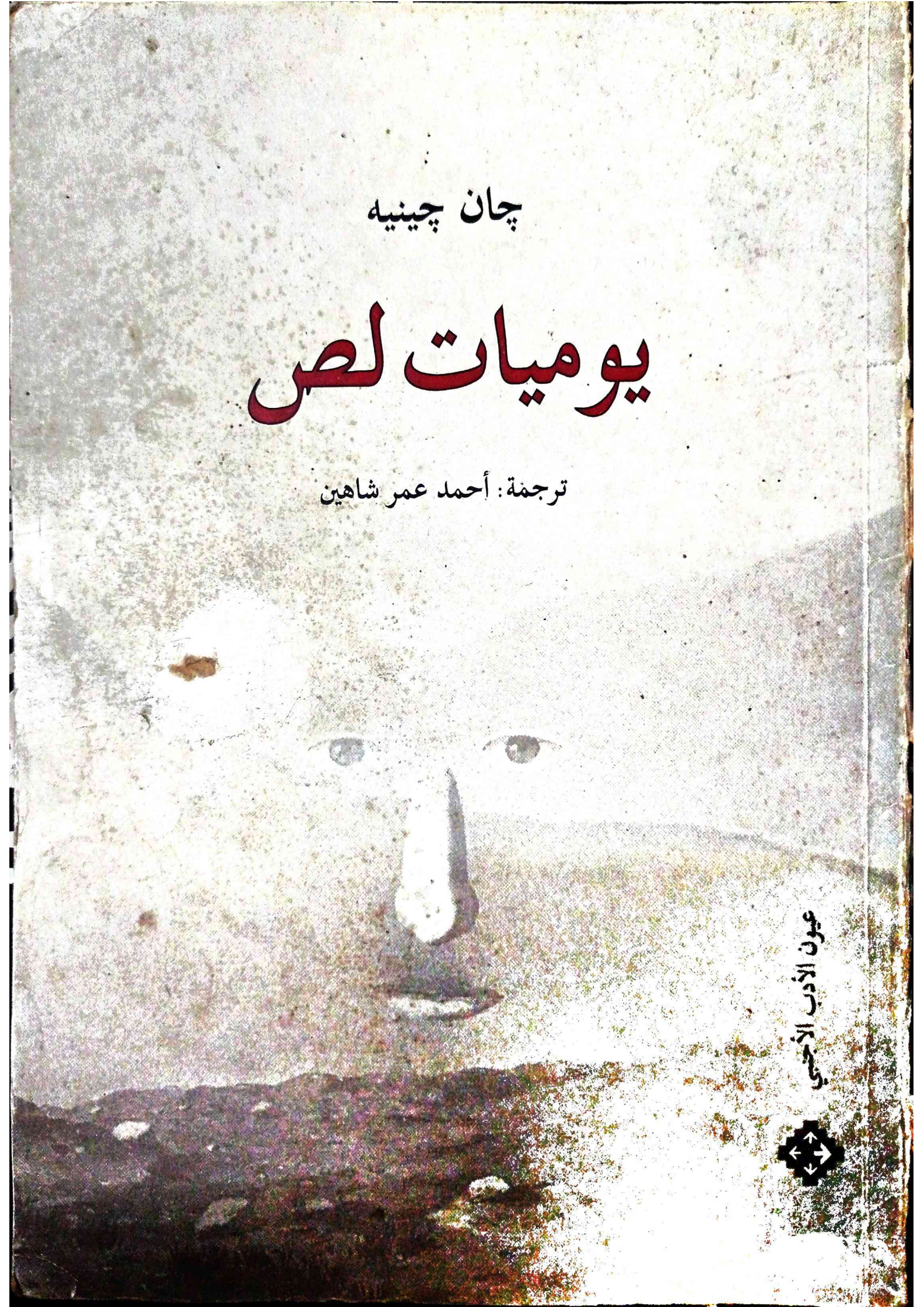

عيون الأدب الأجنبي

The Thief's Journal

Jean Genet ; trans.: Bernard Frechtman

Penguin Modern Classics, 1965, G. B.

يوميات لص

بقلم چان چينيه

ترجمة: أحمد عمر شاهين

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات، ١٩٩٨

الطبعة الأولى لهذه الترجمة ١٩٩٨

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي،

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق –القاهرة

ت: ٣٩٠٢٩١٣

س. ت: ٢٦٩١٩٨

غلاف: ذات حسين

لوحة غلاف: ماجريت

❖

رقم الايداع ١٩٩٧/١٤٧٠٠

الترقيم الدولي 9- 077- 283- 977 ISBN

چان چينيه

يوميات لص

ترجمة: أحمد عمر شاهين

دار شرقيات للنشر والتوزيع

ملابس السجناء مخططة بالأبيض والوردي. اخترت هذا المكان الذي يبهجني، تلبية لأوامر قلبي، ففيه، على الأقل، أملك القدرة على رؤية المعاني المتعددة التي أرغبها: العلاقة الحميمة بين الزهور والسجناء. فهشاشة ورقة الزهور هما من طبيعة النسيج ذاته لبلادة السجناء الوحشية. ويتجلى انفعالي في التذبذب بينهما. ولو رسمت سجينا لزينته بالزهور، حتى يختفي تحتها، ويصبح بدوره زهرة جديدة عملاقة.

لقد غامرت بحب في الطريق الذي يسميه الناس شراً، فقادني إلى السجن، والرجال المحكومون بالشر، ليسوا دائما نبلاء، إلا أنهم يملكون فضائل الرجولة، وهم يندفعون برضى ودون شكوى، بإرادتهم أو بسبب حادثة فرضت عليهم، إلى الخزي والعار، بقوة اندفاع عاطفة الحب ذاتها التي تطيح بالبشر.

لعبة الحب تفضح عالماً لامسمى، تكشفه لغة غير مدونة، تُهمس في الأذن ليلاً بصوت مبحوح، وتنسى عند الفجر. ويوافق المجرمون بلا أمل، على تنظيم عالم محرم، يعيشون فيه منكرين فضائل العالم الخارجي. الهواء هناك يبعث على الغثيان، لكنهم يتنفسونه، بعيداً عنكم، ويأخذونني معهم كما في الحب، بعيداً عن العالم وقوانينه. عالمهم ينضح بالعرق والمني والدم، يقدم لجسدي وروحي العطشى الخلاص الذي أنشده.

لقد ملت إلى الشر، لأن العالم يطفح بالأوضاع الشهوانية ذاتها التي توجد هنا، إن مغامرتي التي لم يحكمها قط التمرد أو الشعور بالظلم، هي مجرد سعي نحو ألفة طويلة مثقلة ومرهقة بطقوس احتفالية شهوانية غريبة وكثيفة- طقوس مجازية تقود إلى السجن وتتوقعه - وهي العقوبة والمبرر أيضاً للجريمة المنكرة التي ستكون علامة للخزي والعار.

وأقصى مكان يقودني إليه لوم الآخرين، هو في رأيي المكان المثالي للأنقياء، بمعنى أنه المكان الأكثر توافقاً واضطراباً وهياماً للاحتفال بأكثر الأعراس العظيمة فجوراً. وحين تنتابني الرغبة للشدو بكل ذلك، أستعين بما يقدمني بأروع أشكال الحساسية طبيعية وفتنة، التي يثيرها زي المساجين الغريب. فنسيج المادة نفسها يستدعي، بلونه وخشونته أيضاً، أشكال زهور مزّغبة البتلات بلطف، تفاصيلها تكفي لربط فكرة القوة والعار مع أكثر الأشياء الطبيعية هشاشة وقيمة، هذا التداعي الذي يكشف لي بعض نفسي، لايستطيع عقلي أن يتجنبه ولا يوحي بنفسه لعقل آخر.

وهكذا، تقدمت بضعفي إلى المذنبين، أردت أن أدعوهم بأسماء ساحرة، وأن أطلق على جرائمهم، تواضعاً، أرقّ الاستعارات. فأنا أفضّل أن أتخيلهم في سجن چيانا Guiana، الأقوى، بقرن هو الأكثر صلابة يحجبه قماش في رقة الناموسية، وكل زهرة بداخلي تشع بحزن جليل وتعبّر عن ندم أو موت. وبدأت البحث عن الحب الملائم لمستعمرة العقاب. كان وجداني كله يدفعني بالأمل للوصول إلى هذا الحب، يمنحني قبساً منه، يقدم لي مجرمين، أو يقدمني إليهم ويحثني على الجريمة.

وأنا أكتب هذه الكلمات، يعود آخر السجناء إلى فرنسا من سجن چيانا. الفراغ الذي نشعر به يشبه ذلك الذي يشعر به وليّ العرش حين تجرّده الجمهورية من كرسيه.

إنهاء مستعمرة العقاب تلك، منعنا من أن نصل بعقولنا المتقدة إلى المناطق الأسطورية السرية، لقد قمعت بسرعة، أكثر حركاتنا درامية. خروجنا، وركوبنا السفينة، والمسيرة البحرية التي تمت برؤوس محنية، العودة إلى فرنسا، موكب الذهاب نفسه معكوساً، كل هذا لامعنى له في داخلي، كان تدمير المستعمرة يعادل نوعاً من العقوبة للعقوبة، لقد أُخصيت وجردت من عاري وشناري. أيقظونا بسرعة دون اهتمام بقطع رؤوس أحلامنا عن أمجادها.

السجون في الوطن لها سطوتها، فهي ليست الشيء نفسه، إنها قاصرة، ليست لديها تلك الرشاقة والجاذبية المتواضعة، الجو هناك ثقيل، حتى أنك تجر نفسك، تزحف. سجون الوطن أكثر ثباتاً وانتصاباً، أكثر إظلاماً وقسوة. العذاب البطيء المهيب لمستعمرة العقاب كان يجعل الوضاعة أكثر ازهاراً، لذا فسجون الوطن، المعبأة بالأشرار، تبدو سوداء بهم كالدم المقذوف عبر غاز الكربون- قلت سوداء لأن ملابس المذنبين - وليس الأسرى أو المعتقلين أو حتى السجناء فهذه الكلمات أكثر نبلا من أن تطلق علينا- تدفعني لذلك دفعا لبؤس نسيجها ولونه البني القذر. ونحو هؤلاء المذنبين ستتجه رغباتي.

إنني أدرك التشابه الخارجي الهزلي للسجناء في المستعمرة أو السجن، فهياكل المحكوم عليهم تبدو دائماً متزعزعة بسبب القباقيب الضخمة الرنانة التي يلبسونها، وعند استخدامهم عربة اليد، قد تنكسر فجأة وبشكل غبي. وعند حضور الحارس يخفضون رؤوسهم ويحملون بأيديهم قبعاتهم التي تحميهم من الشمس، بعضها مزين بوردة مسروقه منحها الحارس للأصغر سناً، ويتخذون أوضاعاً بائسة مهينة، وإذا ضربوا فإن شيئاً ما بداخلهم يتيبس ويغدو ثابتاً. فالجبان والغادر، والجبن والغدر، كل ذلك يغدو صلباً حين يظل طويلاً في أنقى وأشد حالاته، كما يتصلب الحديد الساخن عند وضعه في الماء، فيصرون على التصرف بحقارة برغم كل شيء. ومع ذلك، فإني أشيد بالمشوهين والممسوخين فهم أنبل المجرمين الذين يعبدهم ضعفي.

وأقول لنفسي: كان على الجريمة أن تنتظر طويلاً حتى تثمر نجاحات كاملة مثل «بيلورج»

أو «انجل سن»، ولكي تقضي عليهم – الكلمة قاسية– كان من الضروري أن يتزامن ويتوافق حشد من المصادفات. فلابد أن يضاف لنبل ملامحهم ورشاقة أجسامهم تذوقهم الخاص للجريمة، والظروف التي دفعتهم للإجرام، والقوة الأخلاقية القادرة على تقبل هذا المصير، ثم أخيرا قبول العقوبة بقسوتها الفعلية النوعية التي تمكن المجرم من أن يتألق داخلها، وفوق ذلك كله مساحات الظلام. فإذا دخل البطل مع الليل في قتال وهزمه، فإن مزقاً كثيرة منه تظل عالقة به.

إن الشروط نفسها التي تحكم المجرم هي التي تحكم نجاح الشرطي السري الماهر، التردد ذاته والتبلور نفسه للظروف المواتية. أنا أعجب بالاثنين، وإذا أحببت جرائمهما فذلك بسبب العقوبة التي ستقع عليهما، فأنا لا أفترض أنهما لا يتوقعان العقاب.

أجابني الملاكم السابق «ليدو» مبتسماً: جرائمي؟ قبل أن أرتكبها ندمت عليها».

ومهما كان الأمر، فقد أردت صحبة هؤلاء القوم، لعل كأس حبي يمتلئ حتى الثمالة.

لا أريد أن أخفيْ في هذه اليوميات الأسباب الأخرى التي جعلتني لصاً، أبسطها جميعاً الحاجة إلى الطعام، وهكذا فإن التمرد أو القسوة أو الغضب أو أية مشاعر مشابهة لم تدخل قط مجال اختياري.

وبعناية شديدة، وحرص غيور، جهزت لمغامرتي كما يجهز المرء مخدعه أو يرتب غرفة حبه.

كنت أتحرق شوقا إلى الجريمة.

أُطلق لقب العنف على كل عاطل عن العمل تواق إلى الخطر. وهو عنف يمكن أن تلحظه في نظرة أو خطوة أو ابتسامة، تثير في داخلك زوبعة أو إعصارا، عنف هادئ يوهن عزيمتك ويقلقك، وتردد أحيانا «ولد فريد في نوعه».

كانت ملامح «بيلورج» الرقيقة عنيفة للغاية، كانت رقتها بالذات هي مصدر عنفها. عنف يد «ستلتانو» الوحيدة الراقدة ببساطة على المائدة، كانت تجسد الخطر مستريحا.

عملت مع لصوص وقوادين، أخضعتني لهم سلطتهم، لكن قليلاً منهم من أثبت أنه شجاع بالفعل، بينما الوحيد الذي كان شجاعاً لم يكن عنيفاً.

كان «ستلتانو» و«بيلورج» و«مايكل» جبناء، و«جافا» أيضا، حتى وهم في سكونهم، مبتسمين بلاحراك، يتسلل من عيونهم وأنوفهم وأفواههم وأيديهم وصدورهم المنتفخة، ومن خلال تلك الأكمة الوحشية لربلة الساق تحت قماش صوفي أو قطني، غضب مشع قاتم، تراه

كالضباب الخفيف، لاشيء يشير إليه تقريباً سوى غياب ظواهره العادية.

يبدو وجه «رينيه» ساحراً في البداية، الانحناءة السفلى لأنفه تضفي عليه خبثاً واضحاً، اللون الأزرق الشاحب نوعاً ما لوجهه القلق يجعلك مهموماً، عيناه قاسيتان، حركاته هادئة وواثقة. يضرب الشواذ في دورات المياه، بهدوء. يفتشهم ويسرقهم، وكلمسة أخيرة، يركلهم في الوجه بكعب قدمه أحياناً، لا أحبه، لكن هدوءه يسيطر عليّ. يتجول، حين يوغل الليل، حول المباول أو في الحدائق وتحت الأشجار في الشانزليزيه، وقرب المحطات أو في غابة بولونيا، بهمة لاتعرف الكلل أو الرومانسية. حين يعود في الثانية أو الثالثة صباحاً، أشعر أنه معبأ بالمغامرات، كل جزء من جسده الليلي مغموس بالمغامرة، يداه وذراعاه، ساقاه والجزء الخلفي من رقبته، وهو غير واع بهذه الأعاجيب. يخبرني بمغامراته بلغة صريحة وهو يخرج من جيوبه غنائم المساء من خواتم ودبل وغيرها، يضعها في كأس زجاجي فتملأه.

حين يجلس قربي على السرير، تنتزع أذني تفاصيل مغامراته. لايدهشه الشواذ ولاتصرفاتهم التي تسهّل له عمله: كان الضابط بملابسه الداخلية وسرق محفظته (يقول: عملت محفظته) ويلاحظه الضابط فيشير إليه بإصبعه السبابة آمرا «اخرج برّه» ويجيب رينيه الفتى العاقل: «أتظن نفسك في الجيش» وينهال بضربة على جمجمة الرجل العجوز. أو ذلك الرجل الذي أغمى عليه حين فتح «رينيه» درجاً ووجده مليئاً بحقن المورفين، وأصابته الدهشة، بينما الشاذ يركع على ركبتيه أمامه منكسراً. وأنا أصغي لهذه التقارير، أشجعه وأنصحه فقد كان يستمع لي، لقد نما جسمي وأصبح أقوى، على قد ممشوق متوافق مع حياة الرجولة. أقول له: لاتبدأ الحديث مع الزبون. دعه يأتي إليك، دعه يتأرجح، وحين يعرض عليك الأمر تصنع الدهشة ومثّل عليه دور البليد قليل الفهم.

وكل ليلة أحصل على قليل من المعلومات، يصنفها خيالي ولايتوه فيها، وأنفعل فيما يبدو، حين أبتعث بداخلي دور المجرم والضحية، وفي الواقع، أشع في الليل وأنا أستعرض الضحية والمجرم يتولدان داخلي، وأجمعهما في مكان ما، وقرب الصبح أهتز طرباً وأنا أرى الضحية يقترب من الموت والمجرم يساق إلى مستعمرة العقاب أو تقطع رأسه بالمقصلة.

وهكذا يمتد إنفعالي إلى جزء بعيد من نفسي، إلى السجن. إن مصائر ولعنات هؤلاء الرجال عاصفة، دون رغبتهم. إن أرواحهم مثقلة بعنف غير مرغوب، جعلوه أليفاً. هؤلاء الذين تنفّسهم هو العنف، بسطاء في علاقاتهم بأنفسهم، فكل حركة في هذه الحياة الخربة الظريفة، بسيطة وصريحة ونقية كضربة رسام هندسي عظيم، ولكن إذا اصطدمت هذه الحركات مرة، تنفجر العاصفة، ويقتلني البرق أو يقتلهم. وهل يقارن عنفهم بعنفي الذي يضطر أن يقبل عنفهم، ويرغبه وينسبه لنفسه، يصدّه ويستنفده ويفرضه على نفسي لأفكر فيه وأعرفه وأميّزه وأتوقع خطره. عنفي كان ضرورياً وموجهاً للدفاع ولإبراز خشونتي وصرامتي، أما عنفهم فكان

كاللعنة. ينبثق من نار داخلية يرافقها نور خارجي يتركهم شعلة ملتهبة، تضيؤنا، وأعرف أن مغامراتهم طفولية، وهم أنفسهم أغبياء، فهم على استعداد لأن يقتلوا أو يقتلوا من أجل لعبة ورق «كان» يغشون فيها.

هذا التحديد للعنف بأمثلة متعارضة عديدة، يبين لك أني لا أستخدم الكلمات أفضل استخدام لتصوير حادثة أو بطل، ولكن لتخبرك بشيء ما عن نفسي، وبالتالي فإن مساهمة القارئ هنا ستكون ضرورية، ومع ذلك سأحذره حين تفقدني حماستي المفرطة موضع قدميّ.

كان ستلتانو ضخماً قوياً، رشيق الخطوة واثقها، سريعة مرنة آثمة، وكان نبيها. يقع جزء كبير من قوته في لعابه الذي ينقله من جانب إلى آخر في فمه، ويطلقه أحياناً أمامه مثل البرقع. وكنت أتساءل من أين يأتي بكل هذا اللعاب، فلعابي لم يكن له إطلاقا زلاقة أو لون لعابه، كان يستطيع أن يشكل منه آنية زجاجية شفافة وهشة، وكنت أتخيل شكل عضوه لو بلله بمثل هذا اللعاب، فيحيطه بنسيج رائع، أسميته سراً قناع السرايا.

كان يلبس على رأسه قبعة مقطوعة من أعلاها، حين كان يقذفها على أرض غرفتنا تبدو فجأة كجثة طائر حجل مكسور الجناح، لكن حين يلبسها ويجذبها قليلاً فوق أذنه ترتفع حافتها لتكشف عن أجمل خصل الشعر الأصفر، هل أتحدث عن عينيه اللامعتين الدافئتين المنكسرتين؟ يمكن القول إن سلوكه كان قليل الحياء، فجفناه المغلقان ورموش عينيه الشقراء الكثيفة المتألقة تبعث ظلال الشر لا ظلال المساء.

وفي النهاية، ما المعنى الموجود في مشهد يطريني: شراع في ميناء يرتفع بغير انتظام، قليلاً قليلا، لينتشر بصعوبة على صاري سفينة، مترددا في البداية ثم بحزم، إذا لم تكن هذه الحركات هي الرمز نفسه لخطوات حبي لستلتانو.

قابلته في برشلونة، كان يعيش وسط الشحاذين واللصوص والعاهرات، رأيته أنيقاً، لكن يجب الأخذ في الاعتبار أن ذلك كان مقارنة بحالتي المزرية آنذاك. فقد كانت ملابسي رثة وقذرة، وكنت أشعر بالجوع والبرد، وكانت هذه أكثر فترات حياتي بؤساً.

إسبانيا ١٩٣٢ : كانت إسبانيا آنذاك تعج بالحشرات، أعني الشحاذين. يدورون من قرية إلى أخرى، يذهبون إلى الأندلس لدفئها، ولقطالونيا لغناها، لكن البلد كلها كانت محببة لنا. وهكذا كنت قملة من هذا القمل، وكنت أعي ذلك تماماً.

كنا نتجول في «كال مديودا» و«كال كارمن»، ننام أحياناً ستة أشخاص في سرير دون

ملاءات، ونخرج من الفجر لنشحت في الأسواق، نخرج جماعات ثم نتفرق، نحمل سلال الخضروات لربات البيوت لقاء ربطة كرات أوحبة لفت بدل النقود، ونعود عند الظهر لنطبخ حساء من هذه الفضلات، إنها حياة الحشرات التي سأصفها لكم.

رأيت في برشلونه أزواجاً من الذكور يحبون بعضهم البعض، أكثرهما حباً يقول للآخر: سآخذ السلة عنك هذا الصباح.

يأخذ السلة ويمضي ليشحت له. يوما ما جذب سلفادور السلة من يدي قائلاً: سأشحت عنك.

كان الثلج يتساقط، خرج إلى الشارع المتجمد، يرتدي سترة بالية ممزقة، جيوبها مقطعة ومتدلية خارجها، وقميصاً تيبس من القذارة، كان وجهه بائساً، ماكراً، قذراً فلم نكن نغسل وجوهنا بسبب البرد.

عاد عند الظهر بقليل من الخضروات وقطعة دهن.

وألفت الانتباه هنا إلى أحد تلك الجروح المرعبة التي كشفت لي عن الجمال.

حب أخوي هائل ملأ جسمي وحملني إلى سلفادور.

تبعته بعد خروجه، ورأيته من بعيد يتوسل إلى السيدات. أعرف الصيغة فقد تسولت لنفسي وللآخرين. صيغة تمزج بين الدين والإحسان، وتوحّد بين الفقير والله، تنبعث بذل من القلب، حتى أني تخيلت أنها تضفي رائحة زهر البنفسج على نفس الشحات الصريح المشع الذي ينطقها. في كل ربوع إسبانيا، وفي الوقت ذاته، كان الشحاذون يقولون «لله. لله».

ودون أن أسمعه، أتخيله ينطقها عند كل كشك ولكل ربة بيت يقابلها، كنت أحتفظ بعيني عليه، كالقواد يراقب عاهرته، لكن مع حنان ورقة في قلبي.

وهكذا، فإن اسبانيا وحياتي كمتسول فيها، جعلاني أليفاً مع جلال المذلة والبؤس، لأن الأمر يحتاج لكثير من الغرور والحب لتزيين هذه المخلوقات القذرة المحتقرة، يحتاج لكثير من الموهبة، التي جاءتني رويداً رويداً، ومع ذلك فقد لا أستطيع أن أصف لكم آلية عملها، على الأقل أستطيع القول إني روضت نفسي ببطء على اعتبار أن الحياة البائسة هي ضرورة مقصودة. لم أحاول أن أجعل منها قط شيئاً آخر أكثر مما تعنيه، لم أحاول أن أزيفها أو أتستر عليها، بل على العكس أردت تأكيدها بكل دناءتها، وبدت لي ظواهرها القذرة علامات أبهة وجلال.

فزعت ذات مساء، وهم يفتشونني بعد غارة مفاجئة من الشرطة على أماكن تجمعنا.، أخرج المخبر بدهشة أنبوبة فازلين من جيبي مع أشياء أخر. وجرؤنا أن نتبادل النكات حولها حيث

إنها كانت تحتوي على مرهم «أبو فاس» (المانتولاتو).

ضحكنا بشدة وألم مع الضابط الذي يكتب المحضر حين قال:

– تأخذه عن طريق الأنف. حاذر أن تصاب بالبرد فقد تصيب رفيقك بالسعال الديكي.

أترجم هنا بضعف، بلغة صعلوك باريسي، السخرية الخبيثة للجمل الإسبانية المشرقة الحقودة، وكل الأمر يتعلق بأنبوبة فازلين، مثنية نهايتها، مما يعني أنها كانت مستعملة، لكنها كانت وسط كل الأشياء التي أخرجت من جيوب الرجال في الغارة، علامة الدناءة نفسها التي أُخفيت بعناية فائقة، لكنها أيضا كانت دلالة الظرف السري التي ستنقذني من الاحتقار.

حين أُقفل باب الزنزانة، وبمجرد أن استعدت روحي المعنوية لتقبل سوء حظ هذا الاعتقال، لم تفارقني صورة أنبوبة الفازلين. أظهرها لي رجال الشرطة منتصرين، يغيظونني، فذلك ينعش انتقامهم وكراهيتهم واحتقارهم. ولكن ياللعجب، فإن ذلك الشيء الذي بدا للعالم كله مركزا في رجال الشرطة، وعلى وجه الخصوص تلك الزمرة من البوليس الإسباني التي تنبعث منها رائحة الثوم والعرق والزيت، وتبدو بعضلات جسورة وأخلاق عالية– قذرا وبذيئا ودنيئا، أصبح ثمينا للغاية في نظري، برغم أنه لم يحظ بالاهتمام مثل الأشياء الكثيرة الأخرى التي لاحظتها، فقد بقيت أنبوبة الفازلين على الطاولة رصاصية شاحبة ومثنية. تواصلها الجوهري وخدرها المدهش وسط كل الأشياء العادية في مكتب شرطة السجن –المقعد الطويل، والمحبرة، والتعليمات والمقاييس والرائحة– واللامبالاة العامة، كل ذلك أصابني بالأسى، وجعلتني محتويات الأنبوبة أستحضر إلى ذهني مصباحا زيتيا (ربما لطبيعتها اللزجة) كضوء ليلي قرب كفن.

في وصفها، أعيد تجسيدها، لكن الصورة التالية قطعت عليّ تفكيري: تحت أحد أعمدة النور، في شارع في المدينة التي أكتب فيها، أرى وجهاً شاحباً لامرأة عجوز، مدور وصغير ومسطح كالقمر. اقتربت مني وقالت إنها فقيرة جداً وتحتاج بعض النقود، رقة ذلك الوجه القمري كشفت لي على الفور أن تلك المرأة قد خرجت لتوها من السجن.

قلت لنفسي «إنها لصة». وأنا أبتعد عنها، قادني نوع من حلم يقظة مكثف يعيش في أعماقي، إلى التفكير بأنها قد تكون أمي التي لم أعرف عنها شيئاً منذ هجرتني وأنا في المهد. وتمنيت أن تكون تلك المرأة العجوز التي تشحت بالليل: أمي.

وفكرت وأنا أبتعد: ماذا لو كانت هي بالفعل؟ كنت سأغطيها بالزهور والزنبق والورود والقبلات! وسأبكي بضعف فوق ذلك الوجه المدور الساذج وتلك العينين السمكيتين القمريتين. ولكن لماذا أبكي؟ وسرعان ما استبدلت هذه الظواهر العادية للضعف بإشارات أخرى خسيسة ودنيئة، قصدت أن تعني القبل نفسها والدموع والزهور. فكرت وأنا أفيض بالحب «سأكون سعيدا

لو رّيلت عليها» (هل كلمة زنبق glaïeul التي ذكرتها هي التي استدعت كلمة لعاب glaviaux).

أن أرّيل عليها أو أتقيأ في يديها لكني سأموت حباً في تلك اللصة التي هي أمي. أنبوبة الفازلين التي كنت أزمع أن أرطب بها عضوي، هي التي استدعت من خلال حلم يقظة جال في أزقة المدينة المظلمة، أكثر وجوه الأمهات دلالاً وثباتا في الذهن. لقد خدمتني في أفراح سرية عديدة، وفي أماكن غنية بعقوباتها الحازمة، هذه الأفراح التي أصبحت شرط سعادتي، كما يشهد منديلي المبقع بالمني. كانت كراية تعلن انتصاراتي على الشرطة في الأماكن السرية، وهي مستلقية هناك على المكتب، كنت في زنزانة، لكني أعرف أنها ستتعرض للسخرية طوال الليل من مجموعة رجال الشرطة الأقوياء المتأنقين، حتى أن أضعفهم لوضغط قليلا بإصبعيه عليها، فسينطلق منها أولا صوت ضعيف ثم شريط من الصمغ الذي يستمر في الانبثاق في صمت سخيف. ومع ذلك، فإني متأكد أن هذا الشيء التافه المتواضع سيقف في وجوههم، وسيكون قادراً على إثارة كل شرطة العالم بمجرد وجوده، وسيجر على نفسه المذلة والكره والغضب الأبيض البليد. سيداعبهم قليلاً، كبطل أسطوري يستمتع باستثارة غضب الآلهة، غير قابل للتلف ومخلص لكبريائي وسعادتي. أود لو أترنم بأحدث الكلمات الفرنسية من أجل أنبوبتي، أحارب في سبيلها، وأقيم المذابح على شرفها، وأزين الريف عند الشفق برايات حمر، كنت بالفعل أفضل نزف الدم على أن أتنصل من ذلك الشيء السخيف.

إن جمال الفعل الأخلاقي يعتمد على جمال التعبير عنه. وأن تقول إن ذلك الشيء جميل، هو أن تقرر إنه سيكون كذلك، ويبقى أن نبرهن إنه كذلك. الفعل يكون جميلا إذا حرضنا وألهم حناجرنا الغناء. وهذه هي وظيفة الصور، للتواصل مع أبهة العالم المادي. أحياناً الوعي الذي نتأمل به عملاً دنيئاً مشهوراً، وقوة التعبير التي تدل عليه، تحثنا على الغناء. هذا يعني مثلا أن الغدر يكون جميلاً إذا دفعنا إلى الغناء. أن أخون اللصوص، ليس فقط أن أجد نفسي في العالم الأخلاقي ثانية، ولكن أن أجد نفسي مرة ثانية في عالم الشذوذ. جسمي ينمو ويقوى، وبالتالي أصبح سيد نفسي، أملي ما أريد. وحسب المنطق الرجولي، فإن كلمة جمال تعني لي الصفات المتوافقة والمتناغمة للوجه والجسد، يضاف إليها أحيانا سماحة القوة. الجمال آنذاك يسير بصحبة العظمة والسيادة والظواهر المسيطرة. ونتخيل أن أمثال هؤلاء الرجال يتحلون بمواقف أخلاقية معينة، وأنه بغرس هذه الفضائل في أنفسنا، نأمل أن نمنح وجوهنا البائسة وأجسادنا العليلة القوة التي يملكها أحبتنا بالطبيعة. لكن للأسف هذه الفضائل التي لم يملكوها قط، هي نقاط ضعفنا.

وأنا أكتب الآن، أستغرق في التفكير بأحبتي، أود لومُسحت أجسادهم بالفازلين الذي سرقته، أود لو استحمت عضلاتهم بتلك المادة الناعمة الرقيقة نصف الشفافة، التي بدونها

سيبدون أقل نضارة.

يقال انه حين ينقص طرف من جسد الإنسان، فإن الطرف الباقي ينمو بشكل أقوى. أملت لو أن قوة الذراع التي فقدها «ستلتانو» قد تركزت في عضوه، تخيلت لمدة طويلة عضواً صلباً مثل الهراوة، قادراً على أكثر الوقاحات خيالية، مع أن ماسمح لي به «ستلتانو» هو النظر إلى الساق اليسرى لبنطلونه الأزرق القطني حيث يرقد نائماً بفضول. وتسكن أحلامي لولا إنه في لحظات غريبه يضع يده اليسرى عليه، ويقرص النسيج القطني بخفة بأظافره. لا أعتقد أن لحظة مرت عليه فقد فيها سكينته واطمئنانه، وخاصة معي كان هادئا جدا. يراقبني وأنا أتشوق له بابتسامة صفيقة غير متحدية. أعرف إنه سيحبني.

قبل أن يعبر «سلفادور» عتبة فندقنا والسلة في يده، خرجت منفعلا وقبلته في الشارع. لكنه دفعني جانبا وهو يقول «هل أنت مجنون! ماذا سيظن الناس بنا! كان يتكلم الفرنسية جيدا، لقد تعلمها في إقليم «بيرتبان» حيث اعتاد الذهاب لجمع العنب. استدرت وقد جرحت بعمق. كان وجهه أرجوانيا، ككرنبة شتائية، لم يبتسم لقد صدم، لابد أنه قال في نفسه: «ذلك جزائي، أستيقظ مبكرا وأخرج للتسول في الثلج وهو لايعرف كيف يتصرف» كان شعره أشعث ومبتلا، وخلف النافذة كانت وجوه تحدق بنا، فالجزء الأسفل من الفندق كان يحتله مقهى يفتح على الشارع، ولابد من عبوره لنصعد إلى غرفنا. مسح «سلفادور» وجهه بكمه ودخل. ترددت، ثم تبعته. كنت في العشرين من عمري. اتجه نحو المطبخ والسلة في يده، مارا بالشحاذين وأولاد الشوارع، كان يتقدمني، قلت له:

– ماحكايتك؟

قال: أنت تلفت الأنظار إلينا.

قلت: وما الخطأ الذي ارتكبته؟

– الناس لاتقبل بعضها بهذه الطريقة في الشارع.. الليلة إذا أردت. قالها باستياء ساحر وبالترفع ذاته.

أردت ببساطة أن أُبدي له اعترافي بجميله، وأن أُدفئه بحناني الضئيل قلت: إلى أين ذهب فكرك؟

اصطدم به أحدهم دون اعتذار، فأبعده عني. لم أتبعه إلى المطبخ، صعدت لأجلس على مقعد طويل كان شاغرا قرب الموقد. ومع أني عاشق للجمال بقوة. فلم أشغل فكري كثيرا بحب هذا الشحات البيتي البائس الذي تنقصه الجرأة، ولا بكيفية الاهتمام بردفيه النحيلين، أو ما العمل لو كان، لسوء الحظ، يمتلك آلة ضخمة؟

كان «الباريوتشينو» في ذلك الوقت مأوى يزدحم بالأجانب أكثر منه بالإسبان، وكانوا جميعا صعاليك في حالة شديدة من البؤس. كنا نرتدي في أغلب الأحيان، قمصانا خضراء لوزية أو بيضاء من الحرير، وأحذية خفيفة بالية تقريباً، وكان شعرنا يلتصق ببعضه حتى يبدو كأنه مشقق. لم يكن لنا قادة بالمعنى المفهوم، ولكن كان هناك من يشير علينا بفعل كذا وكذا، ولا أستطيع أن أفسر لماذا أصبحوا كذلك، ربما نتيجة لعملية رابحة قاموا بها في بيع أسلابنا الضئيلة، كانوا يعتنون بشؤوننا، ويأخذون عمولة معقولة عن الأعمال التي يرشدوننا إليها، لم نكن نكوّن عصابات منظمة فاجرة بالمعنى المفهوم، لكن وسط تلك الفوضى الكبيرة من البذاءة، في تلك الحارة المبقعة بالزيت والبول والخراء، كان قليل من المتشردين والصعاليك يعتمدون على من هو أكثر ذكاء منهم. الدناءة كانت تشع من العديد من شباب صحبتنا، وبشكل أكثر بريقا وغموضا من قلة رائقة، غلمان كانت أجسادهم ونظراتهم وإشاراتهم محملة بجاذبية جعلت منا هدفها. وبهذه الطريقة ترنحت أمام أحدهم، ولكي أنصف «ستلتانو» صاحب الذراع الواحد سأنتظر بضع صفحات، وليكن معلوما من البداية إنه كان خالياً من أية فضيلة، كل تألقه وقوته كانا بين ساقيه. فكل ماهنالك كان جميلا، حتى أن كل ما يمكنني أن أصفه به إنه كان كالمولد الكهربي، يظن المرء أنه ميت، لأنه نادرا مايثار، وإذا حدث فببطء، في الظلام يولد في بنطلون مزرر جيدا بيد واحدة، وإشراقه يجعل حامله متقدا.

علاقتي مع «سلفادور» استمرت ستة أشهر، لم تكن أكثر العلاقات فتنة ولكنها الأكثر خصبا. أحببت ذلك الجسد الواهن والوجه الشاحب وشعرات الذقن النابتة المضحكة. كان يرعاني، لكني كنت بالليل، أفلّى بنطلونه من القمل على ضوء شمعة. كان القمل يسكننا، وأصبح وليفنا، جلب إلينا حضورا وحيوية، حتى أنه حين يتركنا تصبح ملابسنا بلاحياة. كنّا نحب أن نعرف أين يتجمع لنشعر بهذه الحشرات نصف الشفافة، ومع أنها غير أليفة إلا أنها كانت جزءا منا، حتى أن قملة من شخص ثالث كانت تزعجنا. كنا نطاردها ليلا على أمل أن يفقس بيضها نهارا، نسحقها بأظافرنا بلا قرف أو كراهية، ولا نلقي بجثثها أو بقاياها في الزبالة، بل نتركها تسقط على ملابسنا الداخلية المهلهلة وتنزف دماؤها.

كان القمل العلامة الوحيدة لنجاحنا، نجاحنا السفلي، وأصبح مفيدا لمعرفة انحلالنا، كالنصر يُعرف بمكاسبه من اللآلئ، ولذا غدا القمل ثمينا. كان عارنا وانتصارنا.

عشت فترة طويلة في غرفة بلا نوافذ، عدا تلك المساحة في الممر التي تقع بين الباب والحائط، حيث تتجمع في المساء خمسة وجوه، قاسية وغضة، تبتسم أو تتلوى من تشنج نتج عن جلسة صعبة، ينضح عرقها وهي تطارد هذه الحشرات التي تشاركها فضائلها. وكان الوضع جيدا بالنسبة لي في مستنقع البؤس ذلك، حيث كنت محبوب أفقر المجموعة وأكثرهم طواعية. كنت أملك مزايا قليلة جدا. وذلك يصعّب الأمور، فكل نصر كنت أحققه كان يعطيني قوة

للنصر التالي الذي هو خسارة في لغتكم. يداي القذرتان، اللتان أستعرضهما بفخر، ساعدتاني في استعراض شعري الطويل ولحيتي النابتة، إن القوة والضعف هما الشيء نفسه هنا فكلاهما نصر من وجهتي نظر مختلفتين. كان لدينا الصقيع المميت، وذوبان الثلج الفضي، ولذا فإن الضوء والشمس كانا ضروريين لحياتنا، كان شعاع الشمس يخترق اللوح الزجاجي وقذارته ويبدد الظلام قليلا، وبرغم أن ظروفنا تنبئ بفاجعة إلا أننا كنا نستدعي المرح الذي تبدو ظواهره في غرفتنا على قدر حالنا. كان كل ما نعرفه عن أعياد الميلاد وحفلات رأس السنة، هو الصقيع الذي يصحبها، مما جعلها أكثر محبة لصناع الفرح.

إن ثقافة الآلام والأحزان التي اكتسبها الشحاذون، هي أيضا وسيلتهم للحصول على نقود قليلة، يعيشون عليها، مع أن ما قادهم إلى ذلك قد يكون كسلا ما بسبب حياة الفقر التي يعيشونها، إلا أن الكبرياء الذي يحتاجونه لرفع رأسهم عاليا فوق الاحتقار، هو فضيلة شجاعة: كالصخرة في النهر، يخترق الاحتقار، يفتته ويفجره. إن الانغماس في الحقارة، يقويّ الكبرياء (في حالتي)، حيث أعلم – بالقوة أو بالضعف– كيف أستفيد من هذا المصير. وذلك ضروري، فما دام هذا الجذام يتكسب مني فعلىّ أن أتكسب منه، وفي النهاية فأنا المنتصر. لكن هل يعني ذلك أن أزداد دناءة، وأغدو هدفا للاحتقار أكثر وأكثر حتى أصل لتلك النقطة النهائية التي مازالت مجهولة، لكنها محكومة بتساؤل جمالي وأخلاقي في الوقت ذاته؟

لقد قيل بأن الجذام، الذي أقارن حالتنا به، يسبب هياجا في الأنسجة، فيحك المريض جسده، ويحدث له انتصاب نتيجة لذلك، فتصبح ممارسة العادة السرية أمرا متكررا. ويعزي المجذوم نفسه، في شهوته المنعزلة، فيترنم بمرضه– الفقر يجعل أعضاءنا منتصبة. وفي ربوع إسبانيا كلها، نحمل سرا مستورا بروعة دون وقاحة. وتغدو إشاراتنا أكثر وأكثر تواضعا ورقة، بينما تتقد حجرات التواضع التي تبقينا أحياءً بكثافة أكبر.

وهكذا تطورت موهبتي بإعطاء معنى رفيع لمثل هذا المظهر التسولي، (لم أتكلم بعد عن الموهبة الأدبية)، ولقد ثبت أنه مبدأ مفيد جدا، ومازال يساعدني في أن ابتسم برقة لكل الأشياء الوضيعة وسط الحضيض، سواء كانت بشرية أو مادية، بما فيها القيء، واللعاب الذي تركته يسيل على وجه أمي، وبما فيها خراؤك. سأحتفظ بداخلي، بفكرة أني شحات.

أردت أن أكون مثل تلك المرأة التي خبأت في بيتها، بعيدا عن أعين الناس ابنتها، التي هي نوع من المسخ المشوه، بيضاء وغبية، تشخر وتمشي على أربع. حين ولدتها، أصبحت خيبة أملها، هي جوهر حياتها نفسها. وقررت أن تحب هذا المسخ، أن تحب القبح الذي تكوّن في بطنها وخرج منه، وأن تكرّس نفسها لتربيته. وأقامت في داخلها هيكلا حفظت فيه فكرة المسخ. ووقفت ضد العالم كله، بعناية منذورة، وبيدين رقيقتين برغم آثار كدحها اليومي، وبحماسة اليائس العنيدة، وواجهت الدنيا بهذا المسخ الذي اتخذ سمة العالم وقوته. وفرضت قوانين جديدة

بناء على حياة هذا المسخ، وجاءت قوى العالم تلومها، وتحارب مبادئها، لكنها جوبهت بجدران منزلها حيث تحتجز ابنتها.

[علمت من الصحف، أنه بعد أربعين سنة من تكريس نفسها لهذا المسخ، قامت هذه المرأة برش ابنتها والبيت كله بالجاز، وأشعلت فيه النار. ماتت البنت المسخ وأُنقذت المرأة العجوز (٧٥ سنة) من النار، وقدمت للمحاكمة].

ولأنه، أحيانا، كان ضروريا أن نسرق، فقد عرفنا أيضاً محاسن الجرأة الواضحة، فقبل الذهاب إلى النوم، كان الرئيس، الفارس، ينصحنا. مثلا، يرشدنا أن نذهب إلى قنصليات مختلفة، مطالبين بإعادتنا إلى وطننا، وكان القنصل، متأثرا أو منزعجا من بؤسنا وقذارتنا يعطينا تذكره قطار إلى موقع حدودي. وكان زعيمنا يعيد بيع هذه التذاكر في محطة برشلونة، وكان أيضا يرشدنا إلى السرقات التي يمكن أن نرتكبها في الكنائس- وهي مما لا يجرؤ الإسبان على القيام به- أو القيللات الفاخرة، وكان هو نفسه الذي يحضر إلينا البحارة الإنجليز والهولنديين الذين نعرض عليهم أنفسنا مقابل بضع بيزيتات.

وهكذا كنا نسرق أحيانا، وكانت كل سرقة تتيح لنا أن نتنفس لحظات على السطح. كل حملة ليلية كان يسبقها مراقبة يقظة، وتوتر الأعصاب الذي يثيره الخوف أو القلق أحيانا، يجعل حالتنا شبيهة بمن هو في وجد ديني. في مثل هذه الأوقات، أتطير من أتفه الأحداث، وتصبح الأمور خاضعة للحظ، فأحاول أن أسترضي هذه القوى المجهولة، التي تبدو لي أن نجاح المغامرة يعتمد عليها، فأحاول أن أسعدها بأفعال أخلاقية تتمثل بالإحسان، فأعطي الشحاذين بلا مماطلة، وأقوم لكبار السن عن مقعدي، وأتنحى جانبا لأدعهم يمرون، وأساعد العميان في عبور الطريق، وهكذا. وهو اعتراف بأن هناك إلاهاً يرقب هذه السرقات، وترضيه هذه التصرفات الأخلاقية، لعل هذه المحاولات تجعل هذا الإله الذي لا أعرف عنه شيئا، يستجيب لها، فيعذبني ويقلقني لسرقاتي لكنه يحبذ تصرفاتي الدينية. ففعل السرقة يتواصل بشكل ما مع طقوس الأفعال المقدسة. فهو يتم في قلب الظلام والناس نيام، في مكان يغلفه الظلام، والصمت والسير على أطراف الأصابع، والتخفي الذي نحتاجه حتى في وضح النهار، والأيدي المتلصصة التي تؤدي إشارات معقدة حذرة غير عادية، فمجرد تحريك أكرة باب يتطلب العديد من الحركات البارعة، كل منها في روعة جوهرة.

حين اكتشفت الذهب، بدا لي أني استخرجته من الأرض، نبشت القارات بحثا عنه، وجزر البحار الجنوبية، يحيطني الزنوج، يهددون جسدي العاري بحرابهم المسمومة، وتعمل فضيلة الذهب، آنذاك، عملها، ونشاط كبير يطريني ويخضعني وتنخفض الحراب، ويتعرّف عليّ الزنوج، وأُصبح واحدا من القبيلة.

إتقان العمل، حين أضع يدي في جيب زنجي وسيم نائم، وأشعر دون قصد، بعضوه منتصبا، وأسحب يدي مطبقة على قطعة ذهبية وجدتها في جيبه، وسرقتها – الحذر، والصوت الهامس، والأذن المنتبهة، والحضور العصبي الخفي للشريك المتواطئ، وفهم أدق إشاراته، كل ذلك يكثف شعورنا بذواتنا، يجعلنا كتلة من الحضور، توضح ملاحظة زميلنا «چاي» : «أنت تشعر بأنك تحيا».

ولكن داخل نفسي، هذا الحضور الكلي للذات، يتحول إلى قنبلة تبدو لي مرعبة، فهو يعطي لفعل الخطورة– اللصوصية وحدانية نهائية أثناء تنفيذه، بحيث يبدو أنه آخر عمل تقوم به، ليس بمعنى أنك لن تقوم بسرقة أخرى بعده، فأنت لا تفكر بذلك، ولكن بسبب أن هذا التجمع للذات لن يتكرر (ليس في الحياة، فإن ضغطة أخرى كفيلة بأن تخرجك من الحياة)، هذه الوحدانية التي تتطور كظواهر واعية (مثلما تنبت الزهرة تويجاتها) واثقة من فعاليتها، وهشاشتها أيضا، ثم العنف الذي تضفيه على الفعل، مما يخلع عليه قيمة الطقس الديني. وكنت أهدي كل فعل سرقة إلى شخص ما، أول مرة حظِي بها شخص بهذا التكريم، كان «ستلتانو». وأعتقد أن بسببه بادرت بالسرقة، فافتتاني بجسده منعني من الإحجام. وأهديت سرقاتي الأولى إلى جماله وبساطته الهادئة، وأيضا لتفرد ذلك العاجز الرائع الذي كانت يده المقطوعة من عند الرسغ، تتعفن في مكان ما تحت شجرة كستناء في غابة في وسط أوروبا، كما أخبرني. يكون جسدي أثناء السرقة معرضا للخطر، وأعرف أنه يومض بكل ما فيه من مزايا، والعالم كله مصغ لحركاتي، فإذا أرادني أن أكبو، فسأدفع غاليا بسبب غلطة، ولكن إذا تنبهت للخطأ في الوقت المناسب، فإن الفرح – فيما يبدو لي– ينتشر عند أبينا الذي في السموات. أما إذا وقعت فستكون بلية فوق بلية وأنتهي بالسجن.

لكن بالنسبة للمتوحشين، فإن المجرم الذي يخاطر ويفلت من العقوبة، سيقابلهم بالخطوات التي وصفتها بإيجاز في مغامرتي الداخلية، فإذا دخل الغابة العذراء، يصل إلى مكان تحرسه قبائل قديمة، وهناك إما أن يقتل أو ينجو. وقد اخترت العودة للحياة البدائية عن طريق مسار طويل طويل، وما أحتاجه أولا هو أن يدينني مساري وبني جنسي.

لم يكن سلفادور مصدر فخر لي، فهو حين يسرق، «ينتش» أشياء تافهة من الحوامل الموضوعة أمام المحلات، وحين نتجمع في المقاهي ليلا، يكتفي بأن يدس نفسه وسط شباب بهي الطلعة ليشعر بالدفء. حياتنا كانت ترهقه، كنت أشعر بالخجل حين أدخل وأجده محتبيا على مقعد طويل، كتفاه تحتويهما بطانية قطنية خضراء بخطوط صفراء، يخرج فيها للتسول في أيام الشتاء الباردة، ويضع على رأسه شالاً صوفياً قديما أسود، قرفت أن أضعه على جسمي. وبرغم أن عقلي يحب الذلة ويرغبها، لكن جسدي الفتي العنيف يرفضها.

ويتحدث «سلفادور» بصوت حزين خافت:

– أتحب أن تعود إلى فرنسا. ستعمل في الريف.

قلت بحزم: لا.

لم يفهم اشمئزازي وكراهيتي لفرنسا. ولا أن مغامرتي لو كان لها أن تتوقف في برشلونة، فمن المؤكد أن تستمر بعمق أكثر في أقصى أرجاء نفسي.

قال: لكني سأقوم بكل العمل وسيكون الأمر سهلا بالنسبة لك.

– لا.

كنت أتركه على مقعده بفقره البائس، وأتجه إلى المدفأة أو البار لأدخن أعقاب السجائر التي التقطتها أثناء النهار مع شاب أندلسي مستهتر، تضخم سترته الصوفية القذرة البيضاء من جذعه وعضلاته.

يغادر «سلفادور» مقعده، بعد أن يفرك يديه ببعضهما كما يفعل الكبار، ويتجه إلى مطبخ المجموعة ليجهز الحساء ويضع سمكة على الشواية.

اقترح ذات يوم أن نذهب إلى Huelva لنجمع البرتقال. كان ذلك بعد يوم طويل لقي فيه من الإهانات والزجر الكثير، وهو يشحت لي، حتى أنه جرؤ على لومي لنجاحي الضئيل في منطقة Criolla، قائلاً: انت الذي يجب أن تدفع حين تلتقط زبونا لاهو.

تشاجرنا أمام صاحب الفندق، الذي أزمع طردنا. فقررنا أن نسرق بطانيتين في اليوم التالي، ونختبئ في قطار الشحن المتجه جنوبا. ولكن في ذلك المساء نفسه، كنت ماهرا حتى أني سرقت بدلة ضابط جمارك. كنت أعبر رصيف الحراسة حين ناداني أحد الضباط، فعلت ما أراده في كشك الحراسة. بعد الانتهاء خرج دون أن يخبرني عن وجهته، ربما خجل، وأراد أن يغتسل من نافورة قريبة. تركني لحظات كانت كافية لالتقاط بدلته الصوفية السوداء والهرب. لففت نفسي بها لأعود إلى الفندق، وعرفت السعادة التي يشعر بها المشبوه، ولم أدرك فرح الغدر بعد، ومع ذلك فإن الحيرة المخادعة التي ستجعلني أنكر الموازنات الأساسية بين شيئين كانت تتكون داخلي.

بمجرد أن فتحت باب المقهى رأيت سلفادور. كان أكثر الشحاذين بؤسا في طلعته. كانت بشرة وجهه كنشارة الخشب التي تغطي أرضية المقهى. وأدركت فورا، بوجود «ستلتانو» وسط لاعبي الروندا، وتلاقت أعيننا، تباطأت نظراته على وجهي واحمرّ وجهه. خلعت البدلة السوداء، وبدأت المساومة عليها في الحال. كان يراقب المساومة البائسة دون أن يشارك.

قلت: أسرعوا إذا أردتم شراءها. فكروا بسرعة. فمن المؤكد أن يأتي رجل الجمارك للبحث

عني.

دبت فيهم الحمية، فقد اعتادوا هذه الظروف، حين أصبحت بجانبه بفعل الحركة الدائرة، قال لي «ستلتانو» بالفرنسية:

– هل أنت من باريس؟

– نعم.. لماذا تسأل؟

– هكذا.

ورغم أنه هو الذي اتخذ الخطوة الأولى بالحديث إليّ، فقد عرفت وأنا أجيبه، تلك النظرة الولهانة التي يلقيها المنحرف حين يقترب من شاب صغير. تعللت بأن نفسي «مكروش» لأغطي اضطرابي، وتعجلت اللحظة.

قال: أنت تعتني بنفسك جيداً.

عرفت أن هذا المديح محسوب بذكاء، كم كان «ستلتانو» أنيقا وسط الشحاذين (لم أكن أعرف اسمه بعد)، كان أحد ذراعيه مثنيا إلى صدره وعليه ضمادة كبيرة كما لو أنه مقلاع، لكني عرفت أن اليد مفقودة. لم يكن «ستلتانو» من رواد المقهى أو حتى الشارع.

قال: كم ستكلفني هذه البدلة؟

قلت: هل ستدفع لي؟

– ولم لا؟

– كيف؟

– هل أنت خائف؟

سألته: من أين أنت؟

– من صربيا. عائد من الفرقة الأجنبية. هربت.

استرحت. تدمرت. الانفعالات التي تولدت داخلي، فرغت لتمتلئ على الفور بذكرى مشهد عرس. قاعة رقص، حيث الجنود يرقصون، وأرقب الفالس الذي يؤدونه، بدا لي وقتها أن خفاء اثنين من الفرقة أصبح كليا. كانا مشبوبين بالعاطفة. بدأ رقصهما عفيفا، فهل يظل كذلك حين يزفان في حضورنا بتبادل ابتسامة كما يتبادل الأحبة الخواتم؟ وأجاب الحشد متجاهلا كل الاعتراضات الدينية الخفية بنعم. كل واحد منهم كان زوجا، يرتدي خمارا وفستانا

اليوم ينذر بعاصفة. أسرتني قلة الصبر الطفولية للشاب الأسباني. لعبت وكسبت. وكسبت في كل دورة. لم أتلفظ بكلمة أثناء اللعب، فالغجري كان غريبا بالنسبة لي، وتسمح لي التقاليد أن أضع النقود في جيبي وأنصرف. كان الغلام جميلا، وشعرت أني بتركه بتلك الطريقة أنتقص من احترامي لجماله.

وفجأة شعرت بالحزن لوجهه المتهدل من الحرارة والضجر. أعدت له نقوده بلطف. اندهش قليلا، لكنه أخذها ببساطة وشكرني.

مرَّ بنا كسيح مجعد الشعر أسمر اللون، قال وهو يعرج:

– مرحبا «بيبي»

قلت لنفسي «اسمه «بيبي»، لاحظت يده الصغيرة الجميلة الأنثوية، فغادرت على الفور. لكن ما إن سرت بضع خطوات وسط ذلك الحشد من اللصوص والعاهرات والشحاذين والشواذ، حتى شعرت بشخص يلمس كتفي. كان «بيبي» وقد ترك اللعب.

قال بالإسبانية: اسمي «بيبي».

قلت: اسمي چان.

قال: تعال لنتناول شرابا.

كان بطول قامتي، وبدا وجهه الذي رأيته من علٍ وهو مقرفص، أقل حزنا، وملامحه أكثر جمالا.

فكرت: إنه فتاة، واضعا في الأعتبار يديه الرقيقتين. وشعرت أن صحبته ستضايقني. وقرر في الحال، أننا سنشرب بالنقود التي كسبتها. تنقلنا من حانة إلى أخرى، وطوال الوقت كان فاتنا. كان يرتدي جرسي أزرق اللون بلارقبة بدلا من القميص، يبرز من فتحته عنق قوى، ينفر منه عرق هائل حين يدير رأسه دون أن يحرك صدره. تخيلت جسده قويا برغم هشاشة ورقة اليدين، فقد كان فخذاه يملآن سرواله. كان الطقس حارا، ولم تهب العاصفة. كانت الشمس والغبار مزعجين، والعاهرات متثاقلات، وكنا بالكاد نشرب أية سوائل، وإن فضلنا «الليموناده». جلسنا قرب الباعة الجائلين، وتبادلنا حديثا كيفما اتفق. ظل مبتسما مع ضجر خفيف. بدا أنه يدللني، هل شعر بإعجابي بوجهه الجذاب؟ لا أدري، لكنه لم يبح بشيء بالإضافة إلى أن لي النظرة الخبيثة ذاتها التي تطل من عينيه، وأبدو خطرا على المتأنقين، ولي مثل شبابه وقذارته وكنت فرنسيا، قرب المساء أراد أن يقامر، لكن الوقت كان متأخرا حيث أحتلت كل الأماكن. تصعلكنا قليلا وسط اللاعبين، وحين كانت العاهرات تناوشنه كان يمازحهن وأحيانا يقرصهن. زاد

ضيقنا من الحر، وكانت السماء تتورد خجلا من الأرض. وأصبحت عصبية الجمهور مزعجة.

وتغلب التسرع على الغجري، الذي لم يقرر بعد أية لعبة يختار، كانت يده تعبث بالنقود في جيبه. أمسكني فجأة من ذراعي قائلا: venga قادني عدة خطوات في اتجاه دورة المياه الوحيدة في «الباراليلو» تشرف عليها امرأة عجوز. دهشت من قراره المفاجئ. وسألته، ماذا ستفعل؟

قال: انتظرني.. ثم تلفظ بكلمة إسبانية لم أفهم معناها. قلت له لم أفهم، وأمام المرأة العجوز التي تنتظر نقودها لتسمح له بالدخول، أتى بحركة بذيئة وانفجر ضاحكا.

حين خرج، كان لايزال مبتسما، وقد استرد وجهه لونه.

وقد عرفت بعد ذلك، أنه في المناسبات الكبيرة، يذهب اللاعبون هناك ليمارسوا العادة السرية لتهدأ أعصابهم ويصبحوا أكثر ثقة في أنفسهم.

عدنا إلى الأرض الخالية، واختار «بيبي» مجموعة ليلعب معها. وخسر، حتى خسر كل مامعه. أردت أن أكبح جماحه، لكن الوقت كان قد فات. طلب من الرجل الذي يدير اللعب أن يقرضه من رهائن اللاعبين كما هي العادة. رفض الرجل. وخُيِّل إليّ أن كل ما يشكل لطف هذا الغجري قد أنقلب رأسا على عقب كما يفسد الحليب، وأصبح غضبا شرسا لم أره من قبل. وبخفة ومهارة نتش نقود الرهان، انحنى الرجل ليركله، تفادى الركلة، ناولني النقود، وبالكاد وضعتها في جيبي حتى كان قد فتح سكينه وغرسها في قلب الرجل الأسباني. كان شابا طويلا أسمر اللون، وقع على الأرض وشحب وجهه برغم سمرته، تمرغ قليلا في التراب ثم مات.

لأول مرة في حياتي أرى شخصا يُسلم الروح، واختفى «بيبي». ولكن حين أزحت عيني عن الجثة، ورفعت بصري اصطدمت عيناي «بستلتانو» يحملق في الجثة بابتسامة واهنة. كانت الشمس على وشك الغروب، وبدا لي الرجل الميت وستلتانو أجمل المخلوقات يتوافقان تماما مع التراب الذهبي وسط هذا الحشد من البحارة والجنود والصعاليك واللصوص من كل أنحاء المعمورة. لقد ارتجفت الأرض أمام الشمس، ففي اللحظة نفسها عرفت الموت والحب. كانت هذه الرؤية قصيرة جدا، لأني لم أستطع البقاء هناك، وخفت أن يربطوا بيني وبين «بيبي»، أو أن أحد أصدقاء الميت يخطف مني النقود التي أحتفظ بها في جيبي. لكن وأنا ابتعد كانت ذاكرتي حية تعج بالمشهد التالي الذي بدا لي عظيما «قتل شاب أسمر يشحب لونه عند الموت، على يد طفل جميل، أمام مراهق ساخر طويل أشقر، عشقته سرا على الفور».

وبسرعة، كسرعة نظرتي إليه، لمحت فيه قوة الرجولة، ورأيت بين شفتيه وفمه نصف المفتوح

تلك الكرة الغزيرة من اللعاب، كدودة بيضاء، يكورها ويمدها من أسفل لأعلى حتى تغطي فمه كله. كان يقف حافيا على التراب، يحتوي ساقيه بنطلون قطني أزرق، كالح اللون ممزق، كان يشمر كمي قميصه الأخضر، أحدهما فوق يد مقطوعة عند الرسغ، حيث يظهر الجلد المحيط ندبة وردية شاحبة منكمشة قليلا.

وتحت سماء مأساوية، كان مقدرا لي أن أقطع أجمل بقعة في العالم، حين أمسك «ستلتانو» بيدي. ما طبيعة ذلك الفيض الذي غمرني منه كالصدمة. مشيت على شواطئ خطرة، تندمج مع سهول موحشة، وسمعت البحر. وما إن لمسته، حتى تغير الدرب. كان سيد العالم. ذكرى هذه اللحظات القصيرة كافية لإعطائي القدرة على وصف النزهات، والمطاردات والهروب اللاهث في كل بلدان العالم التي لم أذهب إليها.

ابتسم ثم ضحك لي.

قلت: هل تصطادني؟

قال: يعني.

قلت: «طيب امشي دوغري».

– لماذا..؟

– لأنك مغرور بجمالك ولاترى أحدا أمامك.

– معي حق فأنا «حبوب».

– واثق بنفسك؟!

انفجر ضاحكا: طبعا واثق بنفسي، أحيانا لا أستطيع التخلص ممن يلاحقونني فأضطر لأن أكون بذيئا معهم لأبعدهم.

– أي نوع من البذاءة؟

– أتحب أن تعرف؟ اصبر وستراني وأنا أعمل. أين تسكن.

قلت: هنا مشيرا إلى الفندق.

قال: غلط. الشرطة ستأتي الآن. سيحققون هنا أولا. تعال معي. صعدت لأخبر سلفادور بأني لن أستطيع النوم في الفندق تلك الليلة، وأن أحد أعضاء الفرقة التي كنت أخدم فيها قد قدّم لي غرفته.

شحب لونه، وجعلني ألمه المتواضع أشعر بالخجل، ولكي لا أتركه دون ندم أهنته، استطعت فعل ذلك لأنه يحبني لدرجة العبادة. نظر إليّ نظرة مكروبة محملة بكراهية بائسة عليلة، أجبته بكلمة واحدة «امرأة».

ولحقت بستلتانو الذي كان ينتظرني في الخارج. كان فندقه في زقاق من أكثر المناطق إظلاما في الجوار. كان يقيم هناك منذ أيام، كان هناك سلم في ممر يفتح على ممشى جانبي يؤدي إلى غرفته. ونحن نصعد همس لي «هل تريد أن نعيش معا؟»

قلت: إذا أعجبنا ذلك.

قال: على رأيك.. ذلك يسهل علينا تجنب المتاعب.

أمام باب الممر، قال لي «ناولني الكبريت»

كان معنا علبة كبريت واحدة، قلت: إنها فارغة.

شتم، أمسك بيدي قائلاً: اتبعني وتوقف عن الكلام.

كان السلم يغري بالثرثرة، قادني برفق من سلمة إلى أخرى، لم أعد أدري أين نذهب، لاعب رياضي لدن الجسم، رائع، يقودني في الليل، أكثر قدما من أنتيجوني وأكثر هيلينية مما يجعل السلم أكثر إرهاقا وإظلاما. كانت يدي مطمئنة ليده، وكنت خجلا من تعثري أحيانا بحجر أو نقرة أو أفقد موضع قدمي، كان محبوبي ينتزعني بقوة.

قلت في نفسي: سيظن أني أخرق غير رشيق.

على كل حال، ساعدني برقة وصبر، والصمت الذي فرضه عليّ، والسرية التي أحاط بها أول ليلة لنا، جعلني أعتقد لفترة أنه يحبني.

كانت رائحة البيت ليست أفضل أو أسوأ من سائر بيوت «باريو تشينو»، ولكن هذه الرائحة المرعبة لهذا البيت، ستظل بالنسبة لي الرائحة بعينها، ليس للحب فقط ولكن للرقة والثقة.

بعد الانتهاء من فعل الحب معه، ظلت الرائحة الحيوانية لحبيبي في «نخاشيشي» لفترة طويلة. وربما جزء منها ظل ملتصقا بشعيرات أنفي، وأن ما أشمه، وأستعيده حين أتمخط هو جزء من جسده.

حين تتذكر حاسة الشم عندي رائحة «ستلتانو»، رائحة تحت إبطيه، وعضوه الذي لم يغسل قط، وقد تأتيني فجأة بدقة مزعجة، فإنها قادرة على أن تبعث في عروقي أكثر أنواع الاندفاع وحشية. (أحيانا أقابل غلاما في الليل، وأصحبه إلى غرفته، يتمسك بيدي عند أول

درجات السلم، فزبائني دائما يعيشون في فنادق مشبوهة، ويقودني بمهارة كما فعل «ستلتانو»)

وقد يغمغم «ستلتانو» بكلمة «احذر» التي لها وقع حلو على أذني، لأنه بسبب وضع ذراعينا، فإن جسدي ينضغط على جسده لحظات، أشعر فيها برجرجة ردفيه اللدنين. وصعدنا السلم الضيق، يحدّنا حائط هش ينام وراءه اللصوص والقوادون والشحاذون والعاهرات ممن يسكنون الفندق. كنت كطفل يقوده والده بحرص (واليوم أنا كرجل يقوده ابنه الصغير إلى الحب).

في الدور الرابع، دخلت غرفته الصغيرة القذرة، وسقطت كل أقنعتي، كنت أعاني آلام الحب.

قدمني إلى أقرانه في بار «باراليلو»، كان هناك الكثيرون من الشواذ حتى أن أحدا لم يلحظ أني أعشق الغلمان.

قمت أنا وهو ببعض الأعمال التي زودتنا بحاجاتنا اليومية. عشت معه، نمت في سريره، لكن هذا الزميل الأكبر كان خجولا بشكل رائع، حتى أني لم أر عريه قط. لو نلت منه ما أرغبه بشدة، لظل في عيني السيد الساحر الحازم، مع أن قوته وجماله لاتشبعان رغباتي في كل الأنواع الأخرى التي للجندي والبحار والمغامر واللص والمجرم. ولأنه بقي صعب المنال، فقد أصبح في نظري خلاصة كل أولئك الذين ذكرتهم ويديرون رأسي. لذا بقيت طاهرا عفيفا. أحيانا كان يقسو عليّ جداً، فيطلب مني أن أربط حزامه، كانت يدي ترتجف، كان يتظاهر بأنه لايرى، وكان يتسلى (سأتحدث فيما بعد عن شخصية يديّ، وعن معنى هذا الارتجاف، فهو ليس دون سبب، يقال في الهند عن بعض الأشياء أو الأشخاص إنها ليست للمس أو ممنوع لمسها.)

ولعدم استطاعتي رؤية عريه، تخيلت في ذهني أضخم وأحب عضو في الدنيا، وزينته بالصفات: ثقيلا، قويّا، عصبيّا، رزيناً مع ميل إلى الكبرياء والصفاء. شعرت به تحت أصابعي من فوق القماش منحوتا كالبلوط، بعروقه النافرة، بحرارته وخفقاته، بلونه الوردي وأحيانا بدفقات منيه المتدافعة. يحتل نهاري أكثر من ليلي، وراء فتحة بنطلون ستلتانو يقبع ذلك الذي تقدم له القرابين.

كان ستلتانو سعيدا أن أكون في غديره وتحت يده، قدمني إلى أصدقائه كذراعه اليمنى، كانت يده اليمنى هي المقطوعة، وكنت أردد لنفسي فرحا أني بالتأكيد ذراعه اليمنى، كنت الشخص الذي احتل مكان العضو الأقوى. لو كانت لديه صديقة وسط العاهرات في «كاليه كارمن» لما عرفت، فهو يبالغ في احتقاره للنساء.

عشنا معا بهذه الطريقة عدة أيام. وذات مساء، حين كنت في «الكريولا» طلبت مني

إحدى العاهرات أن أغادر المكان.

قالت: إن ضابط الجمارك يبحث عني.

لابد أنه ذلك الضابط الذي أرضيته ثم سرقته. عدت إلى الفندق، وأخبرت ستلتانو بالأمر. قال إنه سيتدبر الموضوع، وخرج.

ولدت في باريس في التاسع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩١٠، تحت وصاية المؤسسة العامة لرعاية اللقطاء. ولم أتمكن من معرفة شيء عن أصلي حتى بلغت الحادية والعشرين وحصلت على شهادة ميلادي. كان اسم والدتي «جابرييل چينيه» والأب مجهولا، والعنوان ٢٢ ش «داساس». قلت في نفسي «سأعرف شيئا عن أصلي من هناك»، وحين ذهبت إلى ذلك الشارع وجدت العنوان لمستشفى ولادة، ورفضوا تزويدي بأية معلومات.

نشأت في رعاية بعض الفلاحات في «لومورفان». كنت كلما مررت بزهرة الجينيه التي تزهر في الأراضي البور، شعرت بوشائج عميقة تربطني بها، خاصة عند عودتي في الأصيل من زيارة أطلال «تيفوج» حيث كان يعيش «جايلز دوريه»، فأرنو إليها بخشوع ومحبة، ويبدو أن مشكلتي تكمن في الطبيعة التي تحكمت في عاطفتي واتسقت معها. فأنا وحيد في هذا العالم، ولست متاكدا إذ كنت ملك هذه الزهور أو شيطانها، فهي تبدي لي الإجلال حين أمر، فتنثني دون انحناء، لكنها تعرفني، وتدرك أني كيانها المتحرك، وممثلها الرشيق هازم الرياح. هي شعاري، ومن خلالها تمتد جذوري في تلك التربة الفرنسية التي تغذّت على العظام المسحوقة للأطفال والشباب الذين ضاجعهم «جايلز دوريه» ثم ذبحهم وأحرقهم. ومن خلال ذلك النبات الشوكي، ساهمت في مغامرات «فاشيه» الإجرامية. وهكذا عبر اسمها الذي أحمله، أصبحت المملكة النباتية هي أليفتي، أنظر إليها باحترام لابشفقة، فهي أفراد عائلتي. وإذا ربطت نفسي بالممالك السفلى، فإن هبوطي هناك، كان لأجل الطحالب ونبات السرخس ومستنقعاته، وابتعدت أكثر عن البشر.

يُقال إن الجو في كوكب «أورانوس» ثقيل، لذا فالنباتات هناك من الأنواع الزاحفة، والحيوانات تجر نفسها أو تنسحق بفعل ثقل الغازات. أريد أن أختلط مع هذه المخلوقات المسحوقة، الملقاة على بطنها دائما، ولو يمنحني التناسخ مكانا آخر للسكني لاخترت ذلك الكوكب المجهول، أسكنه مع المدانين أمثالي، وسط زواحف متخفية، باحثا عن حقيقة أبدية بائسة، في ظلام تكون فيه أوراق الشجر سوداء، وحياة المستنقعات ثقيلة باردة. سينكرني النوم، لكني سأعرف بصفاء متزايد الأخوّة المدنسة للتماسيح المبتسمة.

لم أقرر أن أصبح لصا، في فترة معينة، من حياتي، قادني كسلي وأحلام يقظتي إلى الإصلاحية، حيث كان من المفترض أن أظل هناك حتى سن الحادية والعشرين، لكني هربت، وسجلت نفسي متطوعا في الجيش لمدة خمس سنوات لأحرز مكافأة التطوع الاختياري، لكني بعد فترة هربت حاملا معي بعض الحقائب الخاصة بضباط زنوج.

عشت فترة على السرقة، لكن الدعارة كانت أكثر مناسبة لبلادتي. كنت في العشرين، وحين ذهبت إلى أسبانيا كنت قد عرفت الجيش، والاعتبار الذي يمنحه الزي للفرد، والانعزال عن العالم الذي تفرضه الجندية، ولقد أعطتني مهنة الجندي ذاتها سلاما معينا وثقة في النفس، مع أن الجيش على هامش المجتمع.

بعد عدة أشهر، زال إحساسي بأني طفل ذليل بطبيعته، وعرفت أخيرا، حلاوة أن يرحب بك الرجال. حياة الفقر في إسبانيا كانت نوعا من تحقير الذات والانغماس في العار، كنت ساقطا، ولوطيتى كانت كافية لمنعي من أن أكون جنديا صرفا تحكمني الفضائل الصارمة التي تخلق الشخصية. وكان يراودني عمل سري ظل يدور في ذهني حتى ظهر يوما إلى الضوء. إن العزلة الأخلاقية للجنود، التي أطمح إليها جعلتني أُعجب بالخونة وأحبهم.

طعم العزلة هذا، كان علامة كبريائي وفخر إبراز قوتي، بل واستخدام وإثبات هذه القوة، لأني سأكسر أقوى الروابط، روابط المحبة، كما أني أحتاج الحب، فمنه أسحب قوة كافية لتدميره، لقد كان في الجيش أن شاهدت لأول مرة (كما كنت أظن) يأس إحدى الضحايا الذين سرقتهم. أن تسرق الجنود معناه أن تخون، لأنك تحطم روابط المحبة التي تشدك مع الجندي الذي سرقته.

كان «بلوستنير» بهي الطلعة، قويا وواثقا بنفسه. جلس في سريره يفتش حقيبته، بحثا عن مئة فرنك سرقتها منه منذ ربع ساعة. كانت حركاته كالمهرج وهو يبحث في المكان الخطأ، وتخيل أكثر الأماكن بعدا عن صلاحية أن تكون مخبأ لأي شيء، الإناء الذي أكل فيه منذ لحظات، علبة فرشاة الأسنان، علبة الزبد، كان مضحكا وهو يردد «سأجن... لايمكن أن أكون قد وضعتها هناك».

بحث كالمجنون ولم يجد شيئا. ويتمدد على السرير، لينهض ثانية آملا أن تكذبه عيناه ليبحث مرة أخرى في الأماكن ذاتها. رأيت عزمه وقد انسحق، أفخاذه وعضلاته الصلبة تنسحق، وانتابته ليونة لم تكن في طبعه، كنت حاضرا هذا التحول الصامت، وتظاهرت باللامبالاة، ومع ذلك فقد بدا لي هذا الجندي الصغير الواثق بنفسه شخصا يدعو للرثاء، بجهله أن خوفه وحيرته وخجله وخبثه الذي لايعيه يفضح نفسه للمرة الأولى كضحية. كاد أن يرقق عواطفي لدرجة أني فكرت أن أعيد له المئة فرنك التي خبأتها بعد أن ثنيتها ست عشرة ثنية، في شق في جدار الثكنة قرب مجفف الملابس. رأس الرجل المسروق يبدو بشعا. رءوس المسروقين التي تحيط باللص تعطيه

إحساسا بعزلة متغطرسة، وأجرؤ على القول بلهجة جافة «شكلكم مضحك. تبدون كمن لديه مغص. اذهبوا إلى دورة المياه وشدوا السلسلة».

هذا التفكير أنقذني من نفسي.

شعرت بحلاوة غريبة، بنوع من الحرية جعلني خفيفا، وأعطى جسدي، وأنا مستلق على السرير، رشاقة غير عادية. أكان ذلك بسبب الخيانة؟ لقد كنت لتوي قد انتزعت نفسي بعنف من رفقة غير نظيفة كانت طبيعتي التأثرية تقودني إليها، دهشت لشعور القوة الذي انتابني آنذاك.

كنت قد تركت الجيش لتوّي، وأغلقت مصاريع الصداقة.

كان النسيج المطرز الذي يعلق على الجدران والمعروف باسم «السيدة مع وحيد القرن». يثيرني لأسباب لن أحاول التحدث عنها هنا. لكن حين عبرت الحدود من تشيكوسلوفاكيا إلى بولندا بعد ظهر يوم صيف، كانت الحدود تسير عبر حقل شوفان ناضج، واللون الذهبي للمحصول أشقر كشعر البولنديين الصغار، له نعومة الزبدة كبولندا التي عرفت أنها عبر التاريخ، ارتكبت الخطايا في حقها أكثر مما ارتكبت هي من الخطايا. كنت مع رفيق آخر، مثلي طرده البوليس التشيكي، لكنه سرعان مازاغ عن بصري، ربما كان يتسكع وراء أكمة من الأشجار، أو أراد أن يتخلص مني، لقد اختفى. كان يحد حقل الشوفان من الناحية البولندية غابة ساكنة من أشجار البتولا، بينما على الجانب التشيكي غابة أخرى من شجر التنوب. بقيت فترة طويلة أتسكع على الحافة متسائلا عما يكون خبيئا في الحقل بين الغابتين. ماذا لو عبرت؟ هل يختبئ ضباط الحدود وسط الشوفان؟ أم ربما أرانب برية تجري عبره؟ كنت قلقا. عند الظهر، وتحت سماء صافية، كانت كل الطبيعة تبدو لي كلغز يقدم لي بدمائة. قلت لنفسي: لو يحدث شيء فسيكون ظهور وحيد القرن. فلحظة كهذه، ومكان كهذا لاينتجان إلا وحيد القرن.

الخوف والمشاعر التي تنتابني عند عبور الحدود بدأت تمارس طقوسها السحرية عند الظهر، تحت شمس رصاصية، فبدت أرض الجنيات الأولى. جازفت مخترقا البحر الذهبي كما يدخل المرء الماء. سرت عبر الشوفان واقفا، تقدمت ببطء وثقة، وبعزم بشير أقيمت له زركشة الطبيعة هذه: لون سماوي، حقل من ذهب، شمس وغابات، هذا الخيال الذي كنت جزءا منه تشوش بالخيال البولندي.

«في سماء الظهيرة هذه لابد للملاك الأبيض أن يحلق بشكل غير مرئي» حين وصلت شجر البتولا كنت في بولندا. وكان أمر رائع آخر ينتظرني. السيدة ووحيد القرن بالنسبة لي التعبير

الشامخ لعبور هذا الخط عند الظهيرة. لقد خبرت لتوّي، نتيجة للخوف، قلقا غريبا في حضور غموض الطبيعة النهاري. كان الريف الفرنسي الذي تجولت فيه، خاصة في الليل، يزدحم بشبح «فاشيه» قاتل الرعاة، وكنت وأنا أسير عبره أسمع بداخلي نغمات الأكورديون الذي يعزفه، وكنت أدعو الأطفال في ذهني للحضور وتقديم أنفسهم لقاطع الرقاب. أذكر ذلك في محاولة لإخباركم في أية فترة من حياتي بدأت الطبيعة تقلقني، باعثة بداخلي ذلك الخلق التلقائي لحيوانات خرافية أو مواقف وأحداث كنت أسيرا لرعبها وسحرها.

(أول بيت من الشعر كتبته، تذكرت لدهشتي أني كتبته متأثرا بهذا الذي ذكرته «حاصد الأنفاس المسروقة»).

عبور الحدود،والانفعال الذي يثيره في نفسي، يساعدني أن أدرك مباشرة جوهر الأمة التي أدخل بلادها. أتوغل في البلد أقل من توغلي في الصورة المتخيلة عنها. ومن الطبيعي أن أرغب في امتلاكها، ولكن أيضاً أن أمثل عليها وأخدعها، والزي العسكري أفضل ما يمكن استخدامه، وهذا ما أملت أن أتلاعب به، لكن لا توجد وسيلة أخرى للأجنبي سوى التجسس، والانغماس فيه يعني تلويثا بالخيانة لمؤسسة تعتبر الاستقامة والولاء والشرف صفاتها الأساسية. ربما أردت أن أغرّب نفسي أكثر عن بلدي (هذه التفسيرات طرأت على ذهني عفويا. وتبدو صالحة في حالتي، وهي مقبولة عندي وحدي). في أية حادثة، من الحوادث التي تنتج عن حالة عقلية خاصة وتبدو طبيعية بسبب الافتتان بشيء ما (كنت منتشيا أكثر بعاطفتي في حضور الطبيعة، والقوة التي تمنحها) كنت على استعداد للتصرف، ليس حسب القواعد الأخلاقية، بل حسب قوانين معينة لجماليات خيالية تجعل من الجاسوس أبعد من أن يكون قلقا أو خفيا. بل شخصية قوية.، باختصار، موقف كهذا، يكون في حالات معينة، مبررا عمليا لدخول بلد ما، لايضطرني شيء لدخوله، سوى، بالطبع، طردي من بلد مجاور.

وبطبيعة هذه النظرة لمشاعري في حضور الطبيعة، أتكلم عن التجسس حين هجرني «ستيلتانو» فإن التفكير في التجسس حدث لي كعزاء، كما لو أني أرسو على أرضكم، حيث الوحدة والفقر، يجعلانني أطير ولا أسير، ولأني فقير جدا، واتهمت بسرقات كثيرة بالفعل، فإني حين أغادر غرفة ما بهدوء تام على أطراف أصابعي، فإني أشك. وحتى الآن، بأني لا أحمل معي ثقوب الستائر أو الأشياء المعلقة على الجدران. لم أكن أعرف مدى تمكن «ستيلتانو» من الأسرار العسكرية، أو ما الذي تعلمه في فرقته في الجيش في مكتب الكولونيل، لكنه كان يفكر أن يصبح جاسوسا. لم أهتم بالربح الذي سيعود من العملية أو حتى المخاطر التي تحيطها، فقط فكرة الخيانة كانت لها تلك القوة التي تقبض عليّ أكثر فأكثر.

– لمن سنبيع الأسرار؟

–ألمانيا.

بعد لحظات من التفكير، قال: إيطاليا

قلت: لكنك من الصرب وهم أعداؤك.

– وماذا في ذلك؟

لو نفّذنا تلك المغامرة، لجرفتني بعيدا عن البؤس الذي كان يمسك بي، على الأقل. لمدى معين. إن التجسس عمل تخجل منه الدول، ومع ذلك تبجله. كنا سنربح من هذا التبجيل لولا أنه يعتبر خيانة في حالتنا. حين اعتقلت في إيطاليا، بعد ذلك، واستجوبني الضباط لمعرفة القوات التي تحمي حدودنا، اكتشفت منطقا يمكن أن يبرر إفشائي الأسرار، وكان يمكن لستيلتانو أن يدعمني في هذه الحالة. ربما خان ستيلتانو بلده، وحبي له زيّن لي الخيانة. حين أتكلم بعد ذلك عن چاڤا Java، ستجدون، تقريبا، الصفات ذاتها، بل الوجه نفسه الذي لستيلتانو، وكما يلتقي ضلعا المثلث عند الرأس، فإن چاڤا وستيلتانو ذهبا لمقابلة نجم مميز في عالم الإجرام: مارك أوبرت. (هذا الوجه أيضا، ينسجم مع «راسينو» نصّاب عملت معه حوالي سنه ١٩٣٦، وقد قرأت خبرا منذ فترة قريبة في مجلة «ديتكتيف ويكلي» أنه قد حكم عليه بالسجن المؤبد، في الأسبوع ذاته رفع عدد من الكتاب التماسا لرئيس الجمهورية للعفو عني من حكم مماثل. كانت صورة «راسينو» وحدها في الصفحة الثانية، وعلق عليها الصحفي بسخرية قائلا بأنه بدا مسرورا تماما بذلك الحكم. ولم يدهشني ذلك. لقد كان في سجن «سانتيه» ملكا صغيرا، وسيكون شيئا كبيراً في سجن «ريوم» أو «كليرفو». كان يسرق اللواطيين أيضاً، وعلمت من صديق أن سيارة تقودها إحدى ضحاياه طافت باريس فترة طويلة بحثا عنه، كي تدوسه بشكل يبدو كحادث. هناك انتقام مرعب وعادل دوما.)

إن «الكاب» الصوفي الأزرق الذي سرقته من ضابط الجمارك، أمدّني بنوع من الحس الداخلي لمعرفة أين يختلط القانون بالخروج عن القانون، أحدهما يتوارى تحت الآخر، ويشعر، بلمسة من التوق، بفضائل ضده. بالنسبة لستيلتانو لايعدو الأمر أن يكون مجرد مغامرة، أقل روحية أو دهاءً، وأكثر انغماسا في الحياة اليومية، وتجدر الاستفادة بها، فالأمر لم يصل بعد درجة الخيانة. كان ستيلتانو سلطة بالنسبة لي، وكانت أنانيته تحدد بشكل واضح تخومه الطبيعية.

حين عاد متأخرا في الليل، أخبرني أن المسألة قد سُوّيت، وأنه قد قابل ضابط الجمارك.

قال: لن يضايقك. انتهى الأمر. يمكنك أن تخرج دون قلق.

– وماذا عن «الكاب»؟

– سأحتفظ به..

شعرت بمزيج غريب من الوضاعة والسحر تلك الليلة، فلم أجرؤ على سؤاله عن تفاصيل أكثر.

بإشارة من يده النشطة، أفهمني أنه يريد أن يخلع ملابسه. وكما في الليالي الأخرى، ركعت على ركبتي لأقطف عنقود العنب.

كان يشبك داخل سرواله، أحد تلك العناقيد المصنوعة من سليلوز رقيق، على شكل حبات عنب محشوة بالقطن (كانت الحبات بحجم الخوخ الأخضر، وكانت النساء الاسباينات الرشيقات- في تلك الفترة- يعلقنها على حواف برانيط الشمس).

وكان أي شخص شاذ في حانة «الكريولا»، يُثار بالتضخم بين ساقي ستيلتانو، فيضع يده هناك، وكانت أصابعه المرتعدة، تلمس ذلك الشيء ؛ ظنا منه، أنه خصيتاه وشيؤه بالفعل. كان يرتاد «الكريولا»، بعض الغلمان، يرتدون الفساتين ويرقصون، وكذلك العاهرات، مع قواديهن وزبائنهن، وكان، بإمكان ستيلتانو، أن يجنى كثيرا من النقود، لولا أنه كان يحتقر الشواذ، ويبصق عليهم، ويسعد لذهولهم مما بين ساقيه واستمرت اللعبة عدة أيام.

فككت العنقود الذي كان مشبوكا بدبوس، وبدلا من أضعه على حافة المدفأة كالعادة. ونضحك(في كل مرة، كنا ننفجر بالضحك، ونتبادل النكات حوله)، لم أستطع منع نفسي، من الاحتفاظ به، بين كفي، ثم وضع خدي عليه.

تحوّل وجه ستيلتانو، إلى شكل بشع، وقال:

- ضعه أيها العاهر.

جلست القرفصاء، لكن غضبه جعلني أقع على الأرض. توقفت عن الحركة، ضربني بقدمه وقبضة يده، كان بإمكاني الهرب، لكني بقيت مكاني.

فكرت «المفتاح في الباب»، ومن خلال الركلات الوحشية التي تنهال عليّ، رأيت المفتاح في الثقب، وتمنيت لو أدرته دورتين ؛ لأُسجن وحدي مع جلادي.

لم أحاول فهم سبب غضبه، غير المتناسب مع الحدث. فعقلي لم يكن مهتما- آنذاك- بالدوافع النفسية، ومنذ ذلك اليوم، لم يعد ستيلتانو يرتدي عنقود العنب.

ذات صباح، وصلت قبله، فجلست في الغرفة في انتظاره. في الصمت المحيط، سمعت صوتا يصدر عن ورقة الجريدة التي تغطي إحدى ضلف الشباك المكسورة، قلت لنفسي: صوت رقيق، لكن في سكون الغرفة وقلبي، وفي انتظار ستيلتانو أزعجتني هذه الضجة البسيطة، فقبل أن

أفهم معناها أنتابتني فترة قصيرة من القلق، فمن أو ما الذي يريد أن يلفت الانتباه إلى نفسه بهذا الرتل من المشاعر في غرفة رجل فقير؟

قلت لنفسي ثانية: إنها جريدة طُبعت في إسبانيا ومن الطبيعي ألا أفهم الصوت الذي يصدر عنها.

ثم شعرت أني في منفى، وأن عصبيتي ستدفعني إلى أن أكون قادرا على قول الشعر.

وأصابني عنقود العنب المزيف على حافة المدفأة، بالغثيان. وذات ليلة نهض ستيلتانو ليلقيه في دورة المياه. خلال الفترة التي ارتداه فيها، لم يقلل ذلك من جماله في نظري، بل على العكس، فقد كان يعطي لركبتيه انثناءة خفيفة في المساء، ولخطواته تؤدة لطيفة، وكنت أشعر وهو يمشي بجانبي ذهابا وإيابا، بإثارة لذيذة، لأن يدي هي التي جهزت ذلك العنقود. ومازلت أعتقد أنه بسبب فضيلة القوة الخفية للعنقود، ازداد تعلقي بستيلتانو، ولم يقل هذا التعلق حتى حدث ذات يوم أثناء الرقص مع بحار في صالة أن انزلقت يدي تحت ياقته. هذه الحركة التي تبدو بريئة جدا تكشفت عن فضيلة مميتة، كانت يدي منبسطة على ظهر الفتى وأدركت أن صراحة البحار تخفيها برقة وحنان، شعرت أن شيئا ما يسدل فوقها ولم تستطع يدي التوقف عن التفكير بأن «چاقا» يبسط جناحه عليها، لكن الوقت مازال مبكرا للحديث عنه.

سأعلق بحذر على هذا الارتداء الغامض لعنقود العنب، ولقد سرّني أن أرى في ستيلتانو شاذا يكره نفسه. كنت أقول لنفسي وأنا أفكر فيه: «يريد أن يحرج ويؤذي أولئك الذين يرغبونه»، وكلما فكرت في الأمر مليا، انزعجت من الفكرة – التي وجدتها محمّلة بالكثير من المعاني، إن ستيلتانو اشترى جرحا زائفا لتلك البقعة المقدسة كي ينقذ يده المبتورة من الاستخفاف، بواسطة هذه الحيلة الفظة، وأنا أتحدث هنا عن الشحاذين وسوء حظهم، فوراء كل عاهة بدنية، حقيقية أو زائفة، ومن شأنها أن تلفت الانتباه، يكمن مرض خفي أكبر في الروح. وكتبت قائمة بالمعاطب السرية:

– أسنان تالفة

– نَفَس كريه

– يد مقطوعة

– رائحة الأقدام الكريهة.. الخ.

ولكي نخفي ذلك ونعلي من كرامتنا، نجعل لنا عينا متورمة أو ساقا خشبية.. الخ.

نسقط في الوقت ذاته الذي نحمل فيه علامات السقوط، وغير مُجد إلا قليلاً أن نكون

على وعي بالحيلة، فحين نستخدم فقط الكبرياء الذي يمنحنا إياه فقرنا، نبعث الشفقة علينا بزراعة أكثر العاهات بغضا، وبذلك ننغص عليكم سعادتكم.

في ذلك الوقت، كنا نعيش أوقاتا صعبة. وحين أُحضر قليلاً من النقود، والشكر لبعض الشواذ في ذلك، كان يبدي نوعا من الفخر يجعلني أتساءل عن حقيقة عظمته في ذاكرتي، فهذا التباهي كنت أنا علته وسببه الأساسي. وحبي له كان يتطلب أن يثبت رجولته، فإذا كان هو الوحش العظيم الذي يبرق في ظلام ضراوته، فليكرس نفسه لرياضة تستحق ذلك. وشجعته على السرقة. وقررنا أن نسرق متجرا معا، ولكي نقطع سلك التليفون الذي كان قرب الباب، كنا نحتاج إلى «زرادية». دخلنا إحدى أسواق «برشلونه» العديدة حيث توجد محلات العدد والآلات.

قال: لا تتحرك إذا رأيتني أنشل شيئاً.

– وماذا سأفعل؟

– لاشيء فقط انظر.

كان ستيلتانو يرتدي حذاءً خفيفاً، وبنطلونه الأزرق وقميصه الكاكي.. لم ألاحظ شيئاً في البداية، لكن حين غادرنا المحل، دهشت إذ رأيت على جيب قميصه شيئاً كالسحلية الصغيرة معلقة من أسنانها، كانت «الزرادية» التي نحتاجها، وقد سرقها.

قلت لنفسي: أفهم أنه يفتن القرود والنساء والرجال.. ولكن ما طبيعة جاذبيته المتولدة عن عضلاته الملسة وخصل شعره الكهرمانية التي تخلب لب الأشياء.؟

لايوجد شك، في حقيقة أن الأشياء تطيعه، بل يمكن القول إنها تفهمه. فهو يعرف جيداً طبيعة الصلب، وطبيعة ذلك الشيء الخاص من الصلب المصقول المسمى «بالزرادية»، بحيث إنها بقيت طيعة له، محبة وممسكة بقميصه الذي تعرفه بدقة كيف علقها، بحيث تمسك القماش بفكها الرقيق، دون أن تقع! أحيانا، قد تؤذيه هذه الأشياء التي تثار بحركة غير رشيقة، ولقد اعتاد أن يجرح نفسه، أطراف أصابعه دقيقة ومنحوتة جيداً، ظفره أسود ومسحوق، لكن ذلك يضفي عليه جمالا. الأشياء العادية، تلك التي نستخدمها كل يوم، تعبد «ستيلتانو». أفعاله الجبانة تذيب غضبي، أحب ذوقه في الكسل، كان يرشح منه كما يرشح الماء من إناء كما يقولون.

حين حصلنا على الزرادية، إنسل خارجا.

قال: ربما يكون هناك كلب.

فكرنا أن نبعده عن طريقنا بقطعة لحم مسمّمة.

قال: كلاب الأغنياء لا ترمرم.

وفجأة خطرت على ذهنه الحيلة الغجرية الأسطورية التي تقول إن اللص كان يرتدي سروالا ملطخا بدهن أسد. كان يدرك أن هذه المادة غير متوفرة، لكن الفكرة أثارته، فتوقف عن الحديث، بالتأكيد، يتخيل نفسه في غابة في الليل، يطارد فريسته مرتديا سروالا ملطخا بالدهن. قويا بقوة أسد، متوحشا مستعدا لخوض الحرب، بالسفّود والمحرقة والقبر، رائعا بخياله، وطلاء الدهن الواقي. لا أعرف إذا كان واعيا بجماله لو تزين بقوة وجرأة غجري، أم أنه مثار بفكرة اختراق أسرار القبيلة، سألته ذات مرة: أتحب أن تكون غجريا؟

– أنا؟

– أيوه أنت.

– لا أهتم.. فقط لا أريد أن أظل في قافلة.

وهكذا كان يحلم بين حين وآخر. وأعتقد أني اكتشفت الصدع في صدفته المتحجرة، ومنه تسلل إليها قليل من رقتي. كانت لاتستثيره المغامرات الليلية، وكنت لا أشعر بأية بهجة حقيقية بصحبته، حين نتسحب خفية بجوار الجدران أو في الأزقة والحدائق أو نتسلق الأسوار، ولم يكن إلا مع «جاي» في فرنسا حيث شعرت بالرؤيا العميقة لمعنى اللصوصية (حين أغلقنا على أنفسنا غرفة «الكهنة» في انتظار الليل والتسلل لمكاتب الرهان الخالية، بدا لي «جاي» غامضا، مبهما، عصيا على الفهم، لم يعد شخصا عاديا من الذين تقع عينك عليهم هنا أو هناك، كأنه ملاك مدمر، حاول أن يبتسم، فانفجر في ضحكة صامته، وتعقّد حاجباه، وانبثق من هذا الجني الصغير الذي يعتقل شقيا بداخله، رقيقا حازما مرعبا على استعداد لفعل أي شيء– وأول شيء هو القتل إذا جرؤ أحد على اعتراضه. كان يضحك، وقرأت في عينيه رغبة في القتل قد يجربها عليّ، وكلما أطال تحديقه في وجهي، انتابني الشعور بأنه يقرأ في عيني العزم نفسه، في أن أجرب القتل عليه. أصبح متوترا، عيناه أكثر حدة، وهيكله معدني صلب، وعضلات وجهه أكثر تعقيداً. تصلبت بدوري نتيجة لذلك، فجهزت السلاح وراقبته.لو دخل علينا شخص آنذاك، فربما قتل أحدنا الآخر، لعدم ثقتنا في بعضنا، وبسبب خوف كل منا مواجهة قرار الآخر المرعب.)

وقمت بأعمال أخرى مع ستيلتانو، كنا نعرف حارسا ليليا كان يزودنا بالمعلومات، شكرا له، لقد عشنا على سرقاتنا فترة طويلة، إن جرأة حياة اللص– وخفتها– لم تكن لتعني لي شيئاً، لو لم يكن ستيلتانو بجانبي، وهو خير برهان عليها. أصبحت حياتي عظيمة من وجهة نظر الرجال، فصديقي جماله مشتق من فكرة الرفاهية. كنت المستخدم الذي يعتني، وينفض ويلمّع ويشمع شيئاً ذا قيمة كبيرة ينتمي إليه من خلال معجزة الصداقة.

كنت أتساءل وأنا أسير معه في الشارع: هل تحسدني أجمل وأغنى السيدات؟

من هذا الأمير المتشرد في الملابس المهلهلة الذي يسير ممتلكا هذا العاشق الأنيق؟

أتحدث عن هذه الفترة بحميمية، وأمجّدها أيضاً، وإذا كانت الكلمات الفاتنة، أعني الكلمات المحمّلة بالرونق أكثر مما هي محمّلة بالمعنى، ترتاد ذهني، فربما بسبب الفقر الذي تعبر عنه والذي كان من نصيبي أيضاً، ولكونها أيضاً منبعا للتساؤل. أريد أن أرد اعتبار هذه الفترة بالكتابة عنها بأسماء أكثر الأشياء نبلا، فانتصارى يكمن في الألفاظ التي أدين لها بغناء المصطلحات، ولعل الله يبارك الفقر، الذي يشير، عليّ بهذه الاختيارات. في الفترة التي اختبرت فيها أخلاقيات البؤس، عزفت نفسي عن الرغبة في ستيلتانو، وكرهت كل مايمكن أن يشير إلى ذلك البؤس: قملي، وهلاهيلي وبذاءتي. كانت قوته وحدها كافية أن تبعث الاحترام دون الحاجة لأن يؤدي عملا جريئا. ومع ذلك، كنت أتمنى أن تكون حياتنا معا أكثر روعة، وكان متعة لي أن أتوارى في ظله (ظله الأسود كزنجي كان حريمي)، ونتلقى نظرات الإعجاب من العاهرات ورجالهن مع أننا لصان فقيران. وظللت أغويه للقيام بمغامرات أخطر.

قلت له: نحتاج مسدسا.

– هل تعرف ماذا تفعل به؟

– وأنت معي لا أتورع عن قتل أي أحد.

وحيث إني ذراعه اليمنى فقد كان عليّ أن أقوم بالتنفيذ. وكلما أطعت أوامره التي يصدرها بازدياد، التصقت به أكثر. وكان يبتسم. الصغار والمنحرفون هم الذين يستعرضون جسارتهم، وهم المحرضون على الأعمال الخطرة، إنهم يلعبون دور إبرة التخصيب. إن مايعززهم ويقويهم الذكورة والسن والسلطة والصداقة وحضور الكبار. أما الرجال فيعتمدون على أنفسهم فقط، فهناك سماؤهم الخاصة، ولأنهم يعرفون ضعفهم فهم يتردّدون، يبدو لي أن الرجال الغلاظ يتكونّون من نوع من الضباب الأنثوي، أحب أن أتوه فيه بحيث أشعر، بحدة أكثر، أني كتلة صلبة. ما أكد لي نجاحي، وارتقائي في المجال الدنيوي، تفوق معيّن في السلوك، وخطوة أكثر ثقة. وفي حضور «ستيلتانو» أسير في انتباه دوق، كنت كلبه المخلص والغيور، وازداد تصرفي فخرا. مررنا، قرب المساء في شارع «رامبلا» بامرأة وابنها، كان الصبي جميلا في نحو الخامسة عشرة من عمره، سقطت عيناي على شعره الأشقر، وحين تخطيناهما أدرت رأسي، لم يبد الصغير أي رد فعل، واستدار «ستيلتانو» ليرى إلام أنظر، في تلك اللحظة التي كانت فيها عيوننا تحدق في الغلام من الخلف سحبت المرأة ابنها إليها أوجرّت نفسها إليه، كما لو أنها تحميه من خطر نظراتنا التي لاتعيها. شعرت بالغيرة من ستيلتانو، لأن مجرد حركة من رأسه، كما بدا لي، أحست بها المرأة كخطر يأتيها من وراء ظهرها.

يوما ما، وأنا في انتظاره في بار «باراليلو» – كان البار في ذلك الوقت مكان تجمع كل المجرمين الفرنسيين العتاة: قوادين ونصابين، مبتزين وهاربين من السجن، وكانت لهجتهم السوقية فيها بعض من لهجة «مارسيليا»، وكانوا يلعبون هناك البوكر والواحد والعشرين أكثر من الروندا– وهبط ستيلتانو، فحّياه قوادو باريس، كعادتهم، بأدبهم الاحتفالي. وبشدة ووقار، لكن بعينين مبتسمتين، رمى بجسده الصلب على كرسي القش الذي أنّ ببلادة حيوان من حيوانات الحمل، صوت هذا المقعد عبّر بالتمام عن احترامي لعجيزة ستيلتانو الرائعة بسحرها الذي لايتواجد هناك دائما، وتتجمع في تلك البقعة، أو عليها بالأصح، تتراكم وتتموج بلطف لتعطي الكفل ذبذباته ووزنه.

أرفض أن أكون سجين تلقائية لفظية، ولكني أستعين هنا، لمرة ثانية، بصورة دينية: هذه العجيزة كانت مزارا.

جلس ستيلتانو بكل تراخيه اللطيف المعتاد، وكان يقول في كل مناسبة «سأحتويها بيديّ» ويبدأ التعامل مع أوراق اللعب. استُبعدت من اللعبة، لم يطلب أحد من السادة أن أترك اللعبة، لكني انسحبت من نفسي، ومجاملة مضيت لأجلس خلف ستيلتانو، وما إن هممت بالجلوس حتى رأيت قملة على ياقة سترته. كان أنيقا وقويا ويحظى بالتبجيل من مجموعة من الذكور المشابهين له، ممن تكمن سلطتهم في عضلاتهم ووعيهم بمسدساتهم. القملة على ياقته، لم يرها الآخرون بعد، لم تكن نقطة صغيرة بحيث تبدو كبقعة، كانت تتحرك مراوحة بسرعة مزعجة كأنها تقيس منطقة نفوذها. كانت علامة على أنه ينتمي إلى عالم حشري لايمكن الخطأ في إدراكه، على الرغم من قميصه الحريري، والعطر الذي يضمّخ نفسه به. تفحصته عن قرب، شعره قرب عنقه كان قذرا وطويلا جدا ومقصوصا بشكل عشوائي. إذا استمرت القملة في سيرها فستقع على كمه أو في كأسه، وسيرونها، ولعاطفتي نحوه، انحنيت على كتفه وبدأت أمرّر يدي بالتدريج على ياقته. لم أستطع أن أكمل حركتي، فقد أزاح يدي بهزة من كتفيه. وواصلت الحشرة هيامها على وجهها. أبدى أحد القوادين– يقال إنه مرتبط بعصابة دولية للرقيق الأبيض– الملاحظة التالية: هناك شيء لطيف يتسلقك. استدارت كل العيون، دون أن تتغافل عن اللعبة، إلى ياقة ستيلتانو الذي لوى عنقه في محاولة لرؤية الحشرة.

قال وهو يلتقطها ويسحقها: إنها منك.. أنت الذي تلتقط هذه الحشرات.

– ولماذا أنا؟

– أقول لك إنه أنت.

كانت لهجته وقحة، لكن عينيه كانتا مبتسمتين، وواصلوا لعبهم. أخبرني «ستيلتانو» في ذلك اليوم أن «بيبي» قد اعتقل وأنه في سجن «مونتجوش». سألته: من أخبرك؟

قال: قرأت ذلك في الجريدة.

- كم سيحكمون عليه؟

- مؤبد.

ولم ننبس بتعليق آخر.

❖ ❖ ❖

هذه اليوميات ليست مجرد تسلية أدبية فكلما تقدمت في كتابتها منسقا ما توحي به حياتي السابقة بصراحة التعبير- في الجمل والفصول والكتاب كله- شعرت بأن نفسي تنزع بشدة لتحويل كل معاناتي السابقة إلى نهايات عفيفة فاضلة، وأدرك فعل هذه القوة. في المباول العامة، التي لم يدخلها «ستيلتانو» قط، تصرفات الأحبة ستوضح الأمور، يؤدون رقصتهم كحركة الثعبان الواقف على ذيله، يتموج ويترنح من جانب لآخر، يميل بخفة إلى الخلف ليتمكن من اختلاس نظرة إليه، وكنت أذهب مع صاحب النظرات الأكثر حدة.

كان يتردد على «الرامبلا»، في ذلك الوقت، شابان صغيران، يحمل أحدهما قردا أليفا على كتفه، كحجة سهلة للاقتراب من الزبائن، بأن يقفز القرد على الرجل الذي يشيران إليه. اسم أحدهما «بدرو»، كان نحيفا شاحبا، ذا خصر لين جدا وخطوات سريعة. كانت عيناه، على وجه الخصوص، رائعتين، ورموشه طويلة. سألته مداعبا: أيكما القرد؟ وبدأ الشجار، دفعته، التصقت رموشه بمفاصل أصابعي، كانت زائفة، واكتشفت لأول مرة وجود الخدع.

كان «ستيلتانو» يحصل على النقود، أحيانا، من العاهرات، وغالبا ما كان يسرقها منهن، إما بأخذ الباقي حين يدفعن ثمنا لشيء ما، أو يسرقها من حقائبهن في الليل حين تكنّ في التواليت. كان يدخل «الباريوشينو» أو «الباراليلو»، فيعاكس كل النساء، وأحيانا يضايقهن، وتارة يداعبهن، ودائما بشكل ساخر. وحين يعود إلى الغرفة قرب الفجر يحضر معه بضع مجلات للأطفال مملوءة بالصور المبهرجة، كان يسير أحيانا مسافات طويلة ليشتريها من بائع جرائد يفتح حتى ساعة متأخرة من الليل. كان يقرأ القصص التي تشبه مغامرات طرزان أو الحكايات الكوميدية الآن، بطل هذه القصص له تقاطيع محببة، وقد بذل الفنان جهده ليظهره في أوضاع جسدية مختلفة، كان فيها، غالبا، عريانا أو شبه عريان. وبعد القراءة ينام، كان السرير ضيقا جدا، لكنه كان يتدبر الأمر بحيث لايلامس جسده جسدي، ويقول وهو يطفئ النور «تماما ياغلام»، وحين يستيقظ يقولها أيضاً. (اعتدت أن ألقي بملابسي في أي مكان عند الذهاب إلى النوم، بينما كان

«ستيلتانو» يرتب ملابسه بعناية على الكرسي: السترة والبنطلون والقميص بحيث لايتجعد أي شيء، ويبدو، آنذاك، وكأنه يضفي على ملابسه نوعا من الحياة، ويريدها أن تقضي الليل براحة بعد عناء اليوم.) كانت غرفتنا ضيقة قذرة، وحوض الغسيل كان وسخا، ولا أحد في «الباريوشينو» كان يحلم بتنظيف غرفته أو ملابسه أو ملاءاته، عدا قميصه، وغالبا الياقة فقط. ندفع غرفة الأجره أسبوعيا، وكان «ستيلتانو» ينام مع المالكة التي كانت تطلق عليه أحيانا سنيور.

كان عليه ذات ليلة أن يتعارك. كنا نسير في «الكاليه كارمن» عند الغروب، أجسام الإسبانيين تتأرجح أحيانا بشكل مثير، مما يثير معنى ملتبسا. لم يكن «ستيلتانو» ليقع في الخطأ في ضوء النهار القوي، لكن مع بداية الظلام، مسّ برفق أجساد ثلاثة رجال كانوا يتحدثون بهدوء، كانت إيماءاتهم رشيقة ومتراخية، ثم وجّه إليهم بلهجته الصفيقة عدة كلمات وقحة. ردوا الإهانة بسرعة وتطاول، فقد كانوا ثلاثة قوادين.

وقف ستيلتانو مأخوذا، واقترب الثلاثة:

– هل تعتبرنا (.....) لتقول لنا ذلك؟

وعلى الرغم من معرفته بخطئه الفاحش، فقد أراد أن يختال في حضوري، فقال: افرضوا ذلك.

قالوا: أنت (.....).

وتجّمع بعض الرجال وقليل من النساء، والتفت دائرة منهم حولنا. وبدا أن الشجار حتمي. فقد تحدى أحدهم «ستيلتانو» بالفعل، قائلاً:

– إن لم تكن ثمرة للرجال.. تعال وقاتل.

وقبل الوصول إلى مرحلة الضرب بالقبضات أو السلاح، تدخل بعض البلطجية ليفصلوا بينهما ليس لكي يمنعوا القتال، بل ليأخذوا دورا فيه. وكان بعض من أصدقائهم يحثونهم على العراك.

وشعر «ستيلتانو» بالخطر، ولم يعد حضوري يضايقه، قال:

– يارفاق.. لا أظنكم ستقاتلون شخصا مقطوع اليد.

ورفع يده المقطوعة، فعل ذلك ببساطة ووقار، بحيث إن هذه المبالغة الدنيئة، رفعته في عيني، بدلا من أن تشعرني بالاشمئزاز. وانسحب، ليس تحت أصوات السخرية والاستهزاء، بل

بتمتمات تعبّر عن أسف رجال مهذبين اكتشفوا تعنتهم.

تراجع «ستيلتانو» ببطء، محميا بيده المقطوعة الممدودة أمامه، إن غياب اليد كان حقيقيا ومؤثرا كأنه ميزة ملكية، أو كأنها يد العدالة.

بعض الأحبة ممن يدْعون «بالكارولينا» قاموا باستعراض في موقع دورة مياه مهدّمة. فخلال أحداث شغب سنة ١٩٣٣ حطم المتمردون إحدى أقذر دورات المياه وأقربها إلى قلوب الأحبة. فقد كانت قرب الميناء وثكنات الجند، وكان حديدها قد تآكل من سخونة بول آلاف الجنود، وحين أعلنت وفاتها النهائية، قام ممثلون ممن يدعون «بالكارولينا»، متلفعين بالشالات والأوشحة، مرتدين الفساتين الحريرية والستر الفاخرة، بالذهاب إلى الموقع ليضعوا فوقه حزمة من الورود الحمراء مربوطة بوشاح كشارة حداد. بدأ الموكب من «الباراليلو» قاطعا «كاليه سان باولو» ثم هبط إلى «رامبلادو» حتى وصل إلى تمثال كولومبس، كان الأحبة حوالي ثلاثين عددا. عند شروق الشمس، في الثامنة صباحا، رأيتهم يتجهون إلى هناك، فصحبتهم مسافة، فقد كنت أعرف أن مكاني وسطهم، ليس لأني واحد منهم، ولكن لأن أصواتهم الحادة، وصرخاتهم وإشاراتهم المبالغ فيها، بدت لي، أن هدفها ليس إلا محاولة لاختراق صدفة إزدراء العالم لهم. كانوا عظاما، فهم بنات العار.

حين وصلوا الميناء، اتجهوا يمينا نحو الثكنات، وفوق جدران المبولة الحديدية الصدئة كريهة الرائحة التي تستلقي محطمة على كومة من الخردة، وضعوا الزهور. لم أكن في المسيرة ولكن مع الجمهور الساخر المتسامح الذي كان يستمتع بها. واعترف «بدرو» بمرح، بأن رموشه صناعية، بالأحبة ومزاحهم الجامح.

كان «ستيلتانو» يتمنّع على متعتي، لذلك أصبح رمز العفة، وخلاصة البرود. وإذا كان غالبا مايمارس الجنس مع العاهرات، فلم أكن أعرف بذلك. حين نستلقي لننام في سريرنا، كان يسّوي طرف قميصه بطريقة ماكرة بحيث لا أستطيع رؤية عضوه. نقاء ملامحه يخفي شهوانية مشيته، وددت لو سلمت نفسي لأكثر الزنوج وحشية، ولأكثر الرجال فطسة في الأنف، ولأقوى وجه، حتى لايبقي داخلي سوى الجنس، لكن حبي «لستيلتانو» كان أقوى من ذلك، وكنت أستطيع أن أخاطر في حضوره بأكثر الأوضاع حقارة ولامعقولية.

كنا نذهب إلي «الكريولا» معا، ولم يحدث أن استغلّني قط، لكني كنت أحضر له النقود التي أكسبها حول دورات المياه، فقرر أن أعمل في «الكريولا».

تمتمت: هل تريدني أن ألبس كامرأة؟

بتمتمات تعبّر عن أسف رجال مهذبين اكتشفوا نعنتهم.

تراجع «ستيلتانو» ببطء، محميا بيده المقطوعة الممدودة أمامه، إن غياب اليد كان حقيقيا ومؤثرا كأنه ميزة ملكية، أو كأنها يد العدالة.

بعض الأحبة ممن يدْعون «بالكارولييناس» قاموا باستعراض في موقع دورة مياه مهدّمة. فخلال أحداث شغب سنة ١٩٣٣ حطم المتمردون إحدى أقذر دورات المياه وأقربها إلى قلوب الأحبة. فقد كانت قرب الميناء وثكنات الجند، وكان حديدها قد تآكل من سخونة بول آلاف الجنود، وحين أعلنت وفاتها النهائية، قام ممثلون ممن يدعون «بالكارولييناس»، متلفعين بالشالات والأوشحة، مرتدين الفساتين الحريرية والستر الفاخرة، بالذهاب إلى الموقع ليضعوا فوقه حزمة من الورود الحمراء مربوطة بوشاح كشارة حداد. بدأ الموكب من «الباراليلو» قاطعا «كاليه سان باولو» ثم هبط إلى «رامبلادو» حتى وصل إلى تمثال كولومبس، كان الأحبة حوالي ثلاثين عددا. عند شروق الشمس، في الثامنة صباحا، رأيتهم يتجهون إلى هناك، فصحبتهم مسافة، فقد كنت أعرف أن مكاني وسطهم، ليس لأني واحد منهم، ولكن لأن أصواتهم الحادة، وصرخاتهم وإشاراتهم المبالغ فيها، بدت لي، أن هدفها ليس إلا محاولة لاختراق صدفة إزدراء العالم لهم. كانوا عظاما، فهم بنات العار.

حين وصلوا الميناء، اتجهوا يمينا نحو الثكنات، وفوق جدران المبولة الحديدية الصدئة كريهة الرائحة التي تستلقي محطمة على كومة من الخردة، وضعوا الزهور. لم أكن في المسيرة ولكن مع الجمهور الساخر المتسامح الذي كان يستمتع بها. واعترف «بدرو» بمرح، بأن رموشه صناعية، بالأحبة ومزاحهم الجامح.

كان «ستيلتانو» يتمنّع على متعتي، لذلك أصبح رمز العفة، وخلاصة البرود. وإذا كان غالبا مايمارس الجنس مع العاهرات، فلم أكن أعرف بذلك. حين نستلقي لننام في سريرنا، كان يسوّي طرف قميصه بطريقة ماكرة بحيث لا أستطيع رؤية عضوه. نقاء ملامحه يخفي شهوانية مشيته، وددت لو سلمت نفسي لأكثر الزنوج وحشية، ولأكثر الرجال فطسة في الأنف، ولأقوى وجه، حتى لايبقي داخلي سوى الجنس، لكن حبي «لستيلتانو» كان أقوى من ذلك، وكنت أستطيع أن أخاطر في حضوره بأكثر الأوضاع حقارة ولامعقولية.

كنا نذهب إلي «الكريولا» معا، ولم يحدث أن استغلّني قط، لكني كنت أحضر له النقود التي أكسبها حول دورات المياه، فقرر أن أعمل في «الكريولا».

تمتمت: هل تريدني أن ألبس كامرأة؟

لو جرؤت أن اسير في الشوارع بجونلة «مترترة»، تؤازرني كتفه القوية، لم يكن أحد ليندهش سوى البحارة الأجانب. ولكن لم نكن نعرف كيف نختار الفستان أو التسريحة المناسبة للذوق المطلوب، وربما ذلك ماجعلنا نتراجع. مازلت أذكر تأوهات «بدرو» حين رافقته مرة يوم ذهب يلبس زي امرأة. قال: حين أرى هذه الهلاهيل معلقة هناك تحط عليّ التعاسة، كأني في غرفة ملابس الشمامسة، أستعد للسير في جنازة. إن رائحتها كنسية، كالبخور، كالبول، انظر إليها وهي معلقة، فأعجب كيف يمكنني أن أدخل في هذه النقانق اللعينة.

– هل يجب أن أملك أشياء كهذه. ربما يتحتم عليّ أيضاً أن أقص وأخيط بمساعدة رجلي وألبس أنشوطة أو أكثر في شعري. وانتابني الرعب وأنا أتخيل نفسي مزينا ليس بأشرطة بل بنقانق في شكل أعضاء جنسية.

وأضاف صوت ساخر داخلي: ستكون أنشوطة متدلية متهدلة.. تهدل رجل عجوز.. طرف مقوس شيطاني.. وفي أي شعر؟ في باروكة أو في شعري المجعد القذر!

وعرفت، أنه بالنسبة للفستان فلابد أن يكون محترما، ألبسه بتواضع، بينما كل ما نحتاجه لنفوز بالأمر بسهولة هو نوع من الإسراف المبهر. ومع ذلك رحبت بأن أخيط عليه وردة من قماش تزينه وتكون المقابل الأنثوي لعنقود عنب ستيلتانو. (بعد ذلك بزمن، حين قابلته في «انتيرب» حدثته عن العنقود الزائف الذي كان يخفيه في فتحة بنطلونه، فأخبرني أن عاهرة إسبانية اعتادت أن ترتدي وردة من الموسلين في مستوى عضوها، لتستعيض عن زهرتها المفقودة.) نظرت بكآبة إلى الجونلات في غرفة «بدرو»، أعطاني عناوين بعض النساء اللاتي يقمن بإصلاح الثياب حتى تناسبني.

وقال: سيكون عليك أن تضع «تواليت» ياجوان..

لكن «ستيلتانو» الذي تأذى من فكرة أن يكون صديقه في زي امرأة، رفض.

وقال: لاحاجة بك إلى ذلك. ستتدبر أمر الصيد بنفسك.

لكن مدير «الكريولا» طلب أن أبدو بمظهر سيدة. وأدركت آنذاك صعوبة الوصول إلى الضوء بثقب دمّل الخجل.

ذات مرة، جرؤت على الظهور بملابس امرأة مع «بدرو» لأعرض نفسي معه. وخرجنا في المساء، ودعانا بعض الضباط الفرنسيين، كانت تجلس على مائدتهم سيدة في حوالي الخمسين، ابتسمت لي برقه ودلال، وباندفاع لم تستطع أن تمنع نفسها منه، سألتني: هل تحبين الرجال؟

قلت: نعم يامدام.. أحبهم.

– و... متى بدأ ذلك؟

لم أُهن أحدا، لكن صوتي أصبح متوتراً، وأدركت كم كنت غاضباً وخجلاً. ولكي أعيد لنفسي هدوءها سرقت أحدهم في تلك الليلة ذاتها. وقلت لنفسي: إذا كان خجلي حقيقيا، فهو يخفي، على الأقل عنصرا أكثر حدة وخطورة، إبرة أوزبانة تهدد دوما أي شخص يثيرها، قد لا تكون بارزة كمصيدة، وقد لا تكون مقصودة، لكن وجودها هناك يخفيني، فأستلقي تحتها منتظراً.

أثناء الكارنافال من السهل أن يتجول المرء بملابس النساء. سرقت ذات مرة طقما نسائيا من غرفة بأحد الفنادق. وسرت ذات مساء، عبر المدينة، متنكرا لأصل إلى «الكريولا»، وكي يكون انفصالي عن عالمكم أقل قسوة، احتفظت ببنطلون تحت التنورة. بعد وصولي بلحظات قليلة مزق أحدهم ذيل الفستان، استدرت بغضب فقال: عفوا.. اعذريني.

كان شابا أشقر تعثرت قدمه برباط الحذاء، قلت بصعوبة مغمغما:

– انظر ماذا فعلت!

كان الشاب الأخرق يبتسم ويعتذر، وكان شاحبا حتى أني خجلت،

همس لي شخص بجانبي: اعذريه ياسيدتي.. إنه أعرج.

صاحت الممثلة الجميلة المتقدة غضبا بداخلي «لا أريد الناس أن تعرج على فستاني» لكن الناس حولي كانوا يضحكون، فصحت «لا أريد أحدا يدوس على زينتي» جملة تكونت داخلي، في معدتي أو أمعائي، كما بدا لي، ولابد أني قلتها بتوهج مريع. غادرت المكان غاضبا ومهانا وسط ضحك الرجال، ومضيت توا إلى البحر وألقيت بالتنورة والبلوزة والطرحة والمروحة. كانت المدينة كلها فرحة، مخمورة بالكارنفال المعزول عن الأرض في وسط المحيط. وكنت فقيراً وحزيناً.

(الذوق يتطلب... ورفضت أن يكون لديّ شيء منه آنذاك، حظرته على نفسي مع أنه كان بإمكاني إظهار الكثير منه، وإن غرسه في النفس قد يهذبني لا أن يجعلني حادا، كان ستيلتانو دهشا أن كنت بهذه الدرجة من الوقاحة. أردت أن تكون أصابعي صلبة، ومنعت نفسي أن تتعلم الخياطة.)

وغادرت أنا و«ستيلتانو» إلى «قادش»، نغّير قطار شحن بآخر، حتى وصلنا أخيرا إلى مكان قرب «سان فرناندو»، وقررنا أن نواصل رحلتنا على الأقدام. ورتّب أن يلقاني في محطة السكة

الحديدية واختفى. ذهبت إلى المحطة فلم يظهر، وانتظرته وقتا طويلا، وعدت في اليوم التالي، والذي يليه، يومين متتاليين، وتأكدت أنه هجرني.

كنت وحيداً بلا نقود، وحين أدركت ذلك، بدأت أعي ثانية، بوجود القمل في ثنيات قميصي وبنطلوني، وصحبته المزعجة والمرضية. لم نكن أنا وستيلتانو قد توقفنا عن كوننا كالراهبات المعزولات تماما. اللواتي لايغسلن أقدامهن، وتتعفن عليهن ثيابهن.

تقع سان فرناندو على البحر، فقررت أن أذهب إلى «قادش» المبنية على الماء يربطها بالأرض رصيف أمواج طويل. بدأت الرحلة في المساء، وكانت أمامي أهرامات الملح الكبيرة لمستنقعات «سان فرناندو»، وانعكست بعيدا في البحر، بسبب الشمس الغاربة، ظلال مدينة من المآذن والقباب، وفي أبعد نقطة في الغرب رأيت أمامي فجأة تراكيب شرقية، ولأول مرة في حياتي أُهمل شيئا إنسانيا من أجل شيء غير إنساني. نسيت «ستيلتانو».

ولكي أظل حيا، فلابد أن أذهب إلى الميناء صباحا، إلى «الباسكاثوريا» حيث اعتاد الصيادون أن يرموا من قواربهم سمكات قليلة اصطيدت في ليلة سابقة. كل الشحاذين يعرفون ذلك. وبدل أن أذهب، كما في «ملقا» لأشويها على نار متسكعين آخرين، أعود وحدي إلى وسط الصخور، وتبزغ الشمس وهي تشوى، فآكلها دون خبز أو ملح، واقفا أو مستلقيا أو جالسا وسط الصخور في الجهة الشرقية من الجزيرة مواجها الأرض، وأكون أول من تسقط عليه أشعة الشمس وتدفئه، وتكون هي نفسها الإعلان الأول عن الحياة. أجمع السمك عن الأرصفة، ويكون الظلام منتشرا حين أصل صخوري، بروز الشمس يكتسحني، أقدسها، نوع من الحميمية نما بيننا، أبجلها، دون أية طقوس معقدة، فلم يحدث لي أن قلدت البدائيين، لكني عرفت أن هذا النجم قد أصبح معبودي، إنه يشرق داخل جسدي، ويواصل رحلته ويكملها، وإذا رأيته في السماء فهو العرض الجريء لمن احتفظ به بداخلي، ربما مزجت بطريقة غامضة بينها وبين «ستيلتانو» المختفي.

بهذه الطريقة، أوضّح الشكل الذي اتخذته حساسيتي. فالطبيعة تجعلني قلقا، حبي لستلتانو، والجلبة التي يثيرها حول بؤسي، وعدة أشياء أخر، أسلمتني لمكوناتي، لكنها مكونات خبيثة، لكي أرّوضها سعيت لاحتوائها، رفضت أن أُنكر عليها قسوتها، بل على العكس، أُطريها لامتلاكها هذا القدر منها، فأنا أتملقها.

عملية من هذا النوع لا تنجح بالمنطق، فاستنجدت بالسحر، أعني لجأت إلى نوع من التهيؤ والاستعداد المتعمد، نوع من المشاركة الحدسية مع الطبيعة، لم تكن اللغة بقادرة أن تكون عونا لي، ولذا أصبحت الظروف والأشياء نوعا من الأم لي، وبما أنها منتبهة لذلك، فقد كانت مصدر فخري. (أقصد بالأم أن عنصرها الأساسي هو الأنوثة. ودون أية أوهام «مازودكية» (نسبة إلى

مازدك في الديانة الفارسية القديمة) أشير فقط أن حساسيتي تتطلب أن تحاط بنظام أنثوي. وهي تفعل ذلك بقدر ما تخفي نفسها بصفات ذكورية كالصلابة والقسوة واللامبالاة.)

ولو حاولت أن أعيد صياغة مواقفي تلك الأيام، بالكلمات، لكان انفعال القارئ بها ليس أقل من انفعالي. فنحن نعرف أن اللغة غير قادرة حتى على استدعاء الانعكاسات الباهتة لهذه المواقف السابقة، وينطبق الشيء نفسه على هذه اليوميات لو أردت لها أن تكون دلالة عما كنته. ولذلك عليّ أن أوضح أني قصدت أن تعني ما أنا عليه اليوم، وقت كتابتها. إنها ليست بحثا عن زمن مضى، ولكنها عمل فني تعلّة موضوعه حياتي السابقة، إنه حاضر يحدّد الماضي وليس العكس، فليفهم القارئ أن الحقائق هي فعلا حقائق ماضية، لكن التفسير الذي أعطيه لها، هو ما أنا عليه الآن.

كنت أتجول في المدينة ليلا، أنام بجانب حائط أحتمي به من الريح. وفكرت في طنجة، وقد سحرني قربها، وفتنني سحرها الذي يجذب الخونة على الأخص. ولأهرب من فقري، ابتدعت أجرأ أعمال الخيانة، ونفذتها بكل هدوء. أعرف اليوم أن حبي اللغة الفرنسية هو الذي يجذبني إلى فرنسا، لكن في ذلك الوقت!

هذا الميل للخيانة، سيتضح بشكل أفضل، حين أُستجوب وقت اعتقال ستيلتانو. وسألت نفسي: هل أخون ستيلتانو من أجل النقود وتحت التهديد بالتعذيب. مازلت أحبه. وأجبت بلا. ولكن هل أخون «بيبي» الذي قتل لاعب الروندا في الباراليلو؟

وقد تقبلت، بخجل كبير، إدراكي بأن روحي قد تعفنت مذ انبعثت منها تلك الرائحة التي تجعل الناس تغلق أنوفها. ولعل القارئ يذكر أن فترات التسول والدعارة التي مرّت بي، علمتني أن أستفيد من عناصر خسيسة، أوظفها لغاياتي الخاصة، وأستمتع باختيارها. كنت سأفعل الشيء نفسه بروحي التي تعفنت بالخيانة (مهارتي عالية في إعطاء عاري بعض الاعتبار). ودفعني الحظ أن أضع السؤال موضع الاختبار حين حكم على بحار شاب بالإعدام في المحكمة البحرية في طولون. لقد نقل إلى الأعداء خططا عن سلاح ما أوعن حرب الموانئ أو السفن. ولا أتحدث هنا عن خيانة تسببت في خسارة معركة بحرية، فذلك غير حقيقي، ولكن عن خسران منافسة في صنع وحوش من الصلب، يكمن فيها فخر من صمّمها من الفنيين والرياضيين، باختصار كانت خيانة عصور حديثة. وكانت الجريدة التي ذكرت هذه الحقائق قد علقت بغباء بأنه «حس الخيانة»، وكان يصاحب النص صورة ضابط شاب أنيق جدا، لقد بهرتني صورته التي

مازلت أحملها معي. وكما يظهر الحب في المواقف الخطرة، قلت في سري إني على استعداد لمشاركته منفاه. لقد استثارت المحكمة البحرية عداوتي، فسهّلت طيراني إليه بقدم ثقيلة ولكن سريعة. كان اسمه «مارك أوبرت»، وقلت لنفسي سأذهب إلى طنجة. فربما حسبوني ضمن الخونة، وأصبح واحداً منهم.

غادرت «قادس» إلى «هيلفا» وحين طاردتني الشرطة رجعت إلى «جيريز»، ثم تتبعت الساحل إلى «اليكانتة».

كنت أسافر وحدي، وأحيانا أقابل أو ألحق. بجوال آخر، وبدون حتى الجلوس على حجر، كنا نخبر بعضنا أي القرى أكثر كرما مع الشحاذين، وأي العمد أكثر إنسانية؟ ثم يستمر كل منا في طريقه وحيداً. أو نسخر من المخلاة التي نحملها، فنقول «إنه خارج للصيد ببندقية من الخيش».

كنت وحيداً، أسير بذلةٍ على حواف الطرق، وقرب الخنادق حيث يعفّر التراب قدمي، وعلى الرغم من هذه السفينة المحطمة التي أغرقتها بلايا العالم في محيط اليأس، فإني كنت أستشعر حلاوة قدرتي في أن ألتصق بزنجي قوي مثير يعتصرني، فذلك أقوى وأكثر وجودا وعزاءً من العالم كله، وأن آهة واحدة تصدر عني آنذاك تعادل العالم ومافيه.

قرب المساء تكون قدماي تنزّان عرقا، وفي أمسيات الصيف أسير في الوحل. الشمس تفرغ رأسي وتملؤه بثقل رصاصي يعادل الفكر – كانت الأندلس جميلة، حارة وجافة، عبرتها كلها، فلم يكن التعب معروفا لديّ في تلك السن. وأثقِل كاهلي حمْل من الأسى، وتأكدت أني سأقضي حياتي كلها جوّالا. لم يعد التشرّد جزئية ترصِّع حياتي بَل يبدو أنه أصبح حقيقة واقعة. ولم أعد أدري فيم أفكر، لكنني أذكر أني شكوت مصابي إلى الله. وأصبحت، في بعدي عن الرجال، أكثر قربا من أن أكون الحب والتقوى كليهما.

وكنت أقول لنفسي «أنا بعيد عنهم، ولم أعد أملك أملا في العودة، فلأمتنع، إذن، عن ذلك تماما. بيني وبينهم روابط قليلة، آخرها سيقطع إما لاحتقارهم لي أو لمقاومتي حبهم».

وهكذا أمنحكم شفقتي بأثر رجعي، من المحتمل أن يأسي لايعّبر عنه بهذا الشكل. في الواقع، إن كل ما في فكري قد طار مني، لكن الشفقة التي أتكلم عنها لابد أنها قد تبلورت بدقة من بقايا الفكر الذي شوشته الشمس في رأسي، فاتخذت شكلا نهائيا ومتسلطا. منعني مللي– لم أعتقد أنه تعب– من الاستراحة. لم أعد أذهب للشرب من النافورات، جف حلقي، وحرقتني عيناي، كنت جوعان ولمع وجهي النحاسي في ضوء الشمس، كنت صغيراً، ذابلا، وحزينا.

تعلمت أن أتأمل الأشياء، وأضحك منها، وكشاب فرنسي على ذلك الشاطئ، من وحدتي

وفاقتي، ومن الغبار المتصاعد من الخنادق في سحابات دقيقة متتالية عند رفع كل قدم، مجدّدة نفسها مع كل خطوة فإن كبريائي اشتقّت فردية مواسية تتناقض مع القذارة والخيبة البادية على مظهري. فلا حذائي الممزق ولا جواربي القذرة لديها النبل برفع الصندل، كأحد أفراد الرهبنة الكارملية، وحملها عبر الغبار، ولاسترتي الوسخة تضفي على حركاتي أية نبالة.

كان ذلك سنه ١٩٣٤ حين سرت على الطرق السريعة في الأندلس. في الليل، وبعد تسوّل بعض النقود في قرية ما، أواصل السير في الريف، وكنت أستلقي لأنام في قاع خندق، كانت الكلاب تتشممني، ورائحتي زادت من عزلتي، كانت تنبح حين أغادر مزرعة ما أو أصل إليها.

كنت اتساءل وأنا أقترب من بيت أبيض محاط بحوائط بيضاء مغسولة: هل أُقدم أم أُحجم؟

ولم يكن لترددي أن يطول، فسيواصل الكلب المربوط عند الباب نباحه، وأقترب، ويعلو صوت النباح، وبلغة إسبانية رديئة، سأطلب من المرأة التي ظهرت عند الباب قطعة نقود، ولكوني أجنبيا فذلك يحميني قليلاً، ولو رفضت طلب الصدقة، أنسحب ورأسي محني ووجهي بلا تعبير. لم أجرؤ حتى أن ألاحظ جمال تلك البقعة من العالم، فما بالك بالبحث عن سر ذلك الجمال، والخداع الذي وراءه، الذي سيكون المرء ضحيته إذا وثق به. وبرفضي ذلك الخداع اكتشفت الشعر.

كل هذا الجمال معدّ لي، أسجله وأعرف أنه لافت للنظر لدرجة أن يوضّح كم أنا بائس.

على طول ساحل المحيط الأطلنطي وشواطئ البحر المتوسط، مررت بموانئ صيد جرح فيها الفقر المذهل للصيادين، فقري، ودون أن يروني كنت أحتك بالرجال والنساء الواقفين في رقعة ظل، وبأطفال يلعبون في ساحة، الحب الذي يبدو أن البشر يشعرونه تجاه بعضهم، عذّبني في ذلك الوقت. ولو تبادل شابان التحية أو الابتسام وهما عابران، كنت أنسحب إلى أبعد ركن في العالم. النظرات السريعة التي يتبادلها صديقان – وأحيانا كلماتهم، تكون أرق انبعاث لأشعة الحب من قلبيهما. أشعة من ضوء رقيق جداً، ملفوفة بنعومة، شعاع مغزول من الحب. اندهشت أية رقة هذه! أجمل ما يمكن للحب أن ينسجه من خيطها الجميل القيم الثمين في ورشة مظلمة هي أجساد هؤلاء الذكور ذات العضلات التي تطلق، دوما، تلك الأشعة الرقيقة التي تتلألأ أحيانا كقطرات ندى غامضة.

كنت أتخيل الكبير يقول للأصغر، الذي لم أكُنه، متحدثا عن ذلك الجزء من الجسم الذي أحبه بشدة:

– سأقوم الليلة ثانية بفرد ثنيات هالتك.

لم أستطع أن آخذ، باستخفاف، فكرة أن الناس يمارسون الجنس دوني (تقابل موريس وروبرت في إصلاحية في «بيليزل»، كانا في السابعة عشرة، عرفتهما في باريس ومارست الجنس مع كل منهما عدة مرات، دون أن يعرف أي منهما بذلك)، والتقيا ذات يوم وهما يرعيان الغنم أو البقر. لا أعرف كيف حدث الأمر، لكن في حديثهما عن باريس، كان اسمي أول اسم جاء على لسانيهما. اندهشا وسعدا حين علم كل منهما أنه كان حبيبا لي، أخبرني بذلك موريس، قائلاً: أصبحنا زميلين حميمين ونحن نفكر فيك. واعتدت أن أشعر بالإحباط في المستودع في الليل، فسألته: لماذا؟ فقال: كنت أسمعه يتأوه خلف الحاجز الذي يفصل الرجال عنا، كان أجمل مني وكل اللصوص يفضلونه، ولم أستطع فعل شيء حيال ذلك.

كنت أُثار دائما حين أعلم أن التعاسة الخارقة لطفولتي في الإصلاحية مازالت متواصلة إلى الأبد.)

مضيت من المناظر الطبيعية في الريف، إلى منطقة صخرية حادة تنطح السماء وتمزق لونها اللازوردي. هذا العوز الخبيث الأعجف القاسي الذي يزدرى رقتي وإنسانيتي، أغواني أن أكون قاسيا. وأصبحت أقل وحدة حين اكتشفت في الطبيعة إحدى صفاتي الأساسية: الفخر وأردت أن أكون صخرة وسط الصخور، آنذاك سأغدو سعيدا وفخوراً، لأني سأتحد بالأرض وألتحق برفاقي، فأنا أعرف مملكة المعادن. سنتصدى للريح والمطر والصدمات.

مغامرتي مع «ستيلتانو» تتداعى ذكرياتها في ذهني، وهو نفسه كان يتضاءل، وكل مابقي منه كان نقطة مضيئة للنقاء الرائع، قلت لنفسي: «كان رجلاً». ألم يعترف لي بأنه قتل رجلاً من الفرقة الأجنبية التي كان يعمل فيها؟ ألم يبرر فعلته بقوله: هدد بأن يقتلني، فقتلته. كان معه مدفع أكبر من مسدسي. أنا غير مذنب.

الشيء الوحيد لديه، الذي له معنى بالنسبة لي، هو صفاته ومواقفه الرجولية التي أعرفها عنه. صلدة وثابتة للأبد حيث تكونت في الماضي بشكل راسخ، وتحققت عبر هذه التفاصيل القليله غير المنسية..

في أعماق هذه الحياة السلبية، أسمح لنفسي، أحيانا، بأن تقوم بعمل، عدة سرقات في مناسبات تؤذي الفقراء المساكين، وتمنحني وعيا خاصا بخطورتها.

النخيل. وأشعة الصباح تزيّنه بالذهب، ارتعش الضوء لا النخيل، وصلت إلى أولها على شاطئ البحر. للصقيع على زجاج النوافذ في الشتاء تشكيلات متنوعة جميلة، لكن منظر النخيل اكتسحني ربما بأفضل من مشهد عيد الميلاد وقد شُيِّد بتناقض ظاهري من شعرٍ عن اليوم السابق لصلب المسيح، ودخول القدس والسعف ينشر تحت أقدامه. طفولتي كانت تحلم بأشجار النخيل، والآن أراها بالفعل. قيل لي إن الثلج لايسقط في بيت لحم. اسم «اليكانته» أعطاني قبسا من

الشرق. كنت في قلب طفولتي، وفي أكثر لحظاتها قيمة وبقاءً.

وعند انحناءة في الطريق، كنت على وشك أن أكتشف تحت ثلاث شجرات نخيل، مذود عيد الميلاد، حيث اعتدت وأنا طفل أن أحضر عيد ميلادي بين الثور والحمار، كنت كبش الفداء وأكثر أطفال العالم تواضعا.

ومشيت، بتعاسة، وسط الغبار والتعب، مستحقا، أخيرا، السعف رمز النصر، يانعا لمستعمرة العقاب، ولبرانيط القش ولأشجار النخيل.

النقود في يديْ رجل فقير، لاتعد علامة على الثراء، بل على العكس. لاشك أني سرقت بعض أغنياء اسبانيا في طريقي – كان ذلك نادرا، فهم يعرفون كيف يحمون أنفسهم – لكن هذه السرقات لم تؤثر على روحي، سأتحدث عن تلك التي ارتكبتها ضد شحاذين وفقراء آخرين. جريمة «اليكانته» ستوضح الأمر.

يذكر القارئ أنه في «برشلونة» حين هرب «بيبي» كانت لديه الفرصة ليضع النقود التي اختطفها في الغبار، بيدي. وبسبب إخلاص بطولي لبطل، وبسبب الخوف أيضاً لئلا يجدني «بيبي» أو أحد رفاقه، دفنت النقود تحت شجرة في ميدان صغير قرب «مونتجوش». وكانت لديّ الإرادة ألا أذكرها لستيلتانو. وحين قررنا أن نذهب جنوبا، أخرجت النقود وأرسلتها معنونة باسمي، لتسلم في مكتب بريد «اليكانته».

لقد قيل الكثير عن تأثير المناظر الطبيعية على المشاعر، لكن فيما يبدو ليس بالطريقة التي تؤثر بها على المواقف الأخلاقية. قبل أن أدخل «موريشيا» عبرت غابة النخيل في «الكي» وكنت مثارا بطريقة تلقائية بالطبيعة، حتى أن صلاتي بالرجال بدأت تصبح كصلة البشر بالأشياء. وصلت «اليكانته» ليلا، ونمت في فناء ورشة عمل. وعند الصباح تكشّف لي سر المدينة واسمها: على شواطئ بحر هادئ، وغائصة فيه جبال بيضاء، عدد من أشجار النخيل، منازل قليلة، والميناء، والهواء المنعش والمتألق عند شروق الشمس (جربت لحظة مماثلة في البندقية)، والعلاقة بين كل هذه الأشياء كان الضياء. ولكي أستحق دخول مثل هذه المنظومة، بدا لي ضروريا أن أقطع صلتي بالبشر لأطهر نفسي، وحيث إن الرابطة التي تربطني بهم، هي رابطة عاطفية، فقد كان عليّ أن أنتزع نفسي دون جعجعة. وطوال الطريق وعدت نفسي بالفرحة القاسية حين أسحب النقود من مكتب البريد، وأرسلها إلى «بيبي» في سجن «مونتجويش». شربت كوبا من الحليب الساخن عند كشك فتح لتوه، وذهبت إلى مكتب البريد. لم تنشأ أية مشكلات عند تسلمي الطرد. كانت النقود بداخله سليمة. صرفت النظر عن إرسالها، ودعوت نفسي على غداء فخم، لابد أن «بيبي» يتضور جوعا في السجن، لكني بواسطة هذه الجريمة، قد حررت نفسي من إشغال البال بالمسائل الأخلاقية.

لم أتجول، على الرغم من كل شيء، في الطرق عشوائيا. كان طريقي هو طريق كل الشحاذين، ومثلهم كان يجب أن أعرف جبل طارق. كانت الكتلة الشهوانية للصخرة، تمتلئ وتحتشد بالجنود والمدافع النائمة، مما بعث فيّ الجنون.

عشت في قرية «لينيا»، وهي ببساطة بيت دعارة كبير، وهناك بدأت فترة علب الصفيح. كل شحاذ في العالم – رأيت ذلك في دول أوروبا الوسطى وفرنسا – لديه علبة صفيح بيضاء أو أكثر بيد من السلك، تعلق بالكتف، يسير بها في الشوارع والطرقات الموازية للسكة الحديدية وتحتوى على ما يتسوله من البسلة واليخني وغيرها.

حصلت على أول علبة لي في «لينيا»، كانت جديدة، التقطتها من القمامة وكان شخص ما قد ألقاها في الليلة السابقة. كانت تلمع. طبّقت الحافة الحادة بحجر حتى لاتجرحني، ومضيت إلى السلك الشائك لجبل طارق لألتقط بقايا الأطعمة من الجنود الإنجليز. ولقد أهنت نفسي، بتلك الطريقة، لدرجة كبيرة. لم أعد أتسول النقود، بل بقايا الطعام، وأضفت إلى عاري تسوله من الجنود. وكنت أشعر بأني لا أساوي شيئاً إذا كان الجندي جميل الطلعة أو أثارني بقوة زيه. حاولت أن أبيع نفسي لهم، ونجحت، والشكر لظلام الأزقة الضيقة في الليل. كان الشحاذون، عند الظهر، يتسكعون في أي مكان حول الأسيجة، وفي المساء يستلقون في الخنادق قرب الثكنات، وذات ليلة رأيت «سلفادور» هناك.

بعد سنتين، قابلت «ستيلتانو» في «أنتيرب» وقد ازداد وزنه، كان يسير متأبطا ذراع عاهرة جميلة، تضع رموشا صناعية وترتدي فستانا ضيقا أسود من الساتان. مازال جميلاً على الرغم من امتلاء ملامحه، وكان يرتدي بدلة صوفية غالية، وخاتما ذهبيا، ومعهما كلب صغير أبيض مضحك ومزعج. وآنذاك تكشفت لي حقيقة هذا القواد. كان (الكلب) يقود حماقته بحبل، حقارته المدللة تسبقه وتقوده إلى مدينة عابسة دوما ومبللة بالمطر. عشت قرب «رودوساك» قرب أرصفة الميناء، أتسكع في الليل حول البارات على أرصفة (الشلوت فيليسكو) عند ذلك النهر، في تلك المدينة التي تقطع فيها الجواهر المسروقة، توحدت مع تألق مغامرة «مانون ليسكو»، شعرت بنفسي وقد اندمجت في الرواية، داخلا الصورة، متماثلاً متحولاً إلى فكرة السجن والحب ممتزجين.

ترافقت مع بلچيكي نسرق الدراجات في مدينة الذهب والمجوهرات والنصر في المعارك البحرية. وهناك، كان ستيلتانو غنيا ومحبوبا، وبقيت أنا في فقري. ولم أجرؤ على لومه لخيانته «لبيبي»، وهل لي أن أعرف ما الذي أثارنى بدرجة أكبر: خيانته أو جريمة الغجري؟ ومع أني لا أعرف التفاصيل الدقيقة كي أرويها، فإن هذه الحيرة منحت القصة نبرة تاريخية نّمقتها. كان «سلفادور» سعيدا وهو يخبرني بما حدث بصوته المخمور المرح– أحيانا يبدو مشروخا دون أن

يستسلم لكون ضحية – وقد أثبت كراهيته لستيلتانو ومرارته منه. ومثل هذا الإحساس يجعل من ستيلتانو أقوى وأكبر.

لم يندهش سلفادور لرؤيتي، وأنا كذلك. وحيث إنه واحد من كبار الصعاليك، وله امتياز معين في لينيا، فقد لجأت إليه هربا من دفع ضريبة العشر التي يطلبها مني اثنان أو ثلاثة من الشحاذين الأقوياء، ضخام الجسد.

قال: عرفت بكل ماحدث.

قلت: عرفت ماذا؟

– اعتقال ستيلتانو.

– اعتقل ؟ ولماذا؟

– لا تتظاهر بالبراءة... أنت تعرف عن ذلك أكثر مني.

وتحولت كل طيبته إلى نوع من التبرم والشراسة. تحدث بخبث وأعلمني باعتقال صديقي لم يكن اعتقاله بسبب سرقة البدلة أو أية سرقة أخرى، ولكن بتهمة قتل الأسباني.

قلت: لم يكن هو القاتل.

– بالطبع. وكل واحد يعرف ذلك. لقد كان الغجري. إن ستيلتانو أفشى سره وأبلغ عنه، قبضوا على الغجري، واعتقلوا ستيلتانو ليحموه من أشقاء وأصدقاء الغجري.

وعلى الطريق في «الكانته»، شكرا للمقاومة التي واجهتها، وشكرا لما رتبته لأمحو مايسمى بالندم، وأصبحت السرقات التي ارتكبتها، في نظري، عملا قاسيا ونقيا ومتألقا لايماثله إلا تألق ماسة. ولكي أحققها، كان عليّ أن أدمر ثانية الروابط الحميمة للأخوة البشرية.

بعد تلك الجريمة، مانوع الكمال الأخلاقي الذي آمله؟ وحيث إن السرقة لايمكن تدميرها وكأنها لم تكن، فقد قررت أن أجعلها أصل حالة الكمال الأخلاقي. إنها جبن وضعف وخسة وانحطاط (سأعرفها بالكلمات التي تدل على العار فقط). لم يترك لي عنصر واحد من العناصر المكونة لها فرصة لتبجيلها، ومع ذلك فلا أتنكر لأكثر أولادي وحشية، ووددت لوملأت العالم بسلالته الكريهة. لكني لا أستطيع أن أتحدث في التفاصيل الكثيرة لهذه الفترة من حياتي، ذاكرتي تود أن تنساها، أن تعتّم على تفاصيلها، وترشها بمسحوق التلك، أو تقدم لها تركيبة مشابهة لحمام الحليب الذي كان يطلق عليه متأنقو القرن السادس عشر حمام العفة.

حصلت على علبتي المملوءة ببقايا الطبيخ، ومضيت إلى ركن لأتناوله. أحتفظ بداخلي

بذكرى «ستيلتانو» النبيل الحقير، المتصرف حسب هواه، كنت فخورا بقوته، وقويا بمشاكساته مع الشرطة. كنت طوال النهار حزينا ورزينا. نوع من السخط ضخّم كل أعمالي بما فيها أبسطها. رغبت في مجد مرئي مبهر يظهر على أطراف أصابعي، رغبت أن ترفعني قوتي عن الأرض، وتنفجر داخلي، تحللني، وتذروني في اتجاهات الريح الأربعة بحيث أهطل فوق العالم، ويلمس مسحوقي وغباري النجوم. أحببت «ستيلتانو»، ولكن حبه تحت هذه الشمس الحادة، والأرض الصخرية الجدباء، يرهقني، ويحيط جفوني بالنار. قد يخفف عني البكاء قليلاً، أو التحدث كثيراً وطويلاً بذكاء أمام جمهور منتبه محترم. كنت وحيداً بلا صديق. بقيت في جبل طارق أياما قليلة، معظمها في «لينيا». كنت أتقابل مع «سلفادور» وقت تناول الطعام أمام الأسلاك الشائكة الإنجليزية، نتقابل بلا مبالاة رأيته أكثر من مرة، يشير نحوي عن بعد بإصبعه، أويومىء، بذقنه إلى متشرد آخر، كان يعتبر تلك الفترة من حياتي التي قضيتها مع ستيلتانو، مؤامرة ضده، وحاول حلّ لغزها. وحيث إنها فترة قضيتها مع رجل، كان هو شاهدها وممتزجا بها، فقد كانت شهادته حقيقية، جعلتني أتمتع في عيون الشحاذين الآخرين بسحر غريب، كنت واعيا للإشارات القصيرة الفطنة، وتحملت تبعاتها دون غطرسة، بينما كنت أتبع ما اعتقدت أن «ستيلتانو» يرشدني إليه من داخلي.

أحببت أن أشرع في الذهاب إلى طنجة. فقد صنعت السينما والروايات من هذه المدينة مكانا مخيفا. مكانا تغطس فيه حيث المقامرون يساومون على الخطط السرية لكل جيوش العالم. وكانت طنجة تبدو لي من الساحل الإسباني مدينة خرافية. كانت رمز الخيانة ذاتها.

كنت أذهب أحياناً إلى «الچيسيرا»، أتجول على الصخور وأحدق عن بعد إلى المدينة سيئة السمعة حيث يمكن رؤيتها أحياناً، وأتساءل عن نوع الخيانة المعربدة، والمساومة التي يمكن أن ينخرط فيها المرء هناك.

العقل، بالتأكيد، يمنعني من التفكير بأن يستخدمني أي فرد لغرض التجسس. لكن رغبتي كانت قوية جداً، بحيث شعرت أنها تضيئوني وتختارني، وكأنه مكتوب على جبيني كلمة خائن يراها الجميع. وهكذا وفرت قليلاً من النقود، دفعتها في رحلة إلى طنجة بقارب صيد، لكن الطقس السيىء اضطرنا إلى العودة. ومرة أخرى، تواطأت مع بحار ليأخذني إلى هناك على ظهر مركب بخارية. ملابسي الممزقة، ووجهي القذر، وشعري الطويل الوسخ، أخافت ضابط الجمارك، فمنعني من النزول في الميناء. عدت إلى إسبانيا، وقررت الذهاب عن طريق «سيوتا»، حين وصلت هناك وضعت في السجن لمدة أربعة أيام، وكان أن عدت إلى المكان الذي أتيت منه.

ربما لم تكن طنجة أفضل من غيرها بالنسبة لما يمكن أن أنفذه من مغامرات مرتبة عن طريق منظمة تقبع رئاستها في المكاتب. مغامرات محكومة بقواعد استراتيچية السياسة العالمية.

لكني كنت أرى أن هذه المدينة تجسد الخيانة بدقة وعظمة بحيث إني شعرت بارتباط وثيق بتلك الأرض هناك. ومع ذلك قد أجد نماذج جيدة فيها، قد أقابل «مارك أوبرت» أو «ستيلتانو» وآخرين الذين أشك بلامبالاتهم بقوانين الولاء والاستقامة، ولا أصدقها، لكن كلمة «إنهم خونة» ترقق قلبي نحوهم ومازالت، فهم الوحيدون الذين اعتقدت أنهم قادرون على كل أنواع الجرأة. خطاياهم، وتعدد نشاطاتهم الأخلاقية تتشابك كحبل مجدول اسمه «مغامرة» فهم بعيدون عن قوانينكم، غير مخلصين، ثم إن لديهم جرحا أوعيبا، يمكن مقارنته بعنقود العنب في بنطلون ستيلتانو. باختصار كلما كبر ذنبي في عيونكم، أفترض أن تكون حريتي أكبر، وعزلتي أكثر كمالا وتفردا. وأكسبتني ذنوبي حق الذكاء، ومن ليس له الحق في ذلك! كما يظن معظم الذين لم يدفعوا الضمان الذي دفعته، لجعل التفكير ضروريا للخلاص.

هذه الملاحقة للخيانة والخونة، كانت شكلاً من أشكال الشبق. من النادر أن يقدم لي غلام متعة كبيرة، كتلك التي يمكن أن يقدمها تشابك حياتينا إذا اندمجنا معا. فجسد يتمدد في ملاءاتي، أو أضاجعه في شارع أو غابة ليلا، أو على شاطئ البحر، يمنحني نصف متعة، ولم أجد في نفسي جرأة لأحب ذلك. عرفت الكثير من الأوضاع، كان فيها جسدي، الذي تكمن أهميته في رشاقته وحسنه، عامل السحر في تلك اللحظات، مغامرة عابرة لن أجدها ثانية، وأدركت أني أبحث عن الأوضاع المحمّلة بنيّات شهوانية. ذلك ماقاد حياتي، مع أشياء أخر. أعي تماماً أن هناك مغامرات أبطالها وتفاصيلها شهوانية، وهذه هي الحيوات التي أردت أن أعيشها.

بعد أيام قليلة، علمت أن «بيبي» قد حُكم عليه بالسجن، أرسلت كل النقود التي أملكها إلى «ستيلتانو» السجين.

وقعت بالمصادفة، على صورتين فوتوغرافيتين من سجلي الإجرامي، في واحدة منهما، كنت في السادسة أو السابعة عشرة، أرتدي تحت سترة من معونة الشتاء، كنزة صوفية ممزقة، وجهي بيضاوي بريء جداً، أنفي مسحوق وقد تفلطح من ضربة في عراك نسيته. نظرتي لامبالية، حزينة ودافئة وجادة جدا، شعري غزير وغير مجعد، وأنا أنظر إلى نفسي في تلك السن، عبرت عن مشاعري بصوت مرتفع:

– أيها الصديق المسكين... لقد قاسيت كثيرا.

كنت أتكلم – بلطف– عن چان چينيه آخر لم يعد أنا، فقد عانيت – آنذاك– من قبح لا

أجده في وجه طفولتي، فالإهانة الشديدة التي واجهتها، أطلقتني في الحياة بسهولة.

حين أكون قلقا، لايبدو عليّ ذلك في البداية، لكن عند الغسق، وقد انتابني الإرهاق، يتدلى رأسي وتراقب نظراتي العالم بتلكؤ، وتندمج معه، أو ترتد إلى داخلي وتختفي. أعتقد أنها تعي وحدتي المطلقة.

حين كنت جنديا، أو كنت أعمل في مزرعة، أو في ملجأ الأيتام، وعلى الرغم من الصداقة، وأحيانا عطف الرؤساء، فقد كنت وحيداً، وحيداً بقسوة.

وقدّم لي السجن المواساة الأولى، والسلام الأول، والزمالة الودودة الأولى: جربت كل ذلك في مملكة الخطأ. الوحدة الكثيفة أجبرتني أن أصبح صديق نفسي. وحين أتخيل العالم الخارجي، بغموضه، واضطرابه الذي يكون أكثر اكتمالا في الليل، أقيمه كمقدس، أكون فيه لست العلة فقط المتمسك بها بحرص وحذر كبيرين، التي اختيرت وقيدت بطريقة عظيمة عبر محنة مؤلمة قاسية إلى حافة اليأس، بل أيضاً الموضوع الوحيد لكل هذا العمل. ورويدا رويدا، من خلال عمليات لا أستطيع وصفها دون أن أعدّل من أبعاد جسدي، وربما كان من الأسهل احتواء مبرر ثمين كهذا لمثل ذلك المجد، فقد أقمت بداخلي هذه القداسة- أصلاً لنفسي ومزاجا لها. ابتلعتها، أهديت لها قصائد من إبداعي، في الليل أصفّر. اللحن نغم ديني، بطيء، إيقاعه ثقيل نوعا ما، واعتقدت، آنذاك، أني أدخل في عملية تواصل مع الله. ذلك ماحدث. الله هو الأمل والوجد في أغنيتي. وعلى طول الشوارع، يداي في جيبي، ورأسي متدل أو مرتفع، أنظر إلى البيوت والأشجار، وأدندن ترانيمي الخرقاء التي لم تكن مرحة أو حزينة، كانت وقورة، واكتشفت أن الأمل مجرد تعبير يعطيه المرء معنى، مثل الحماية، لم أدندن قط لحنا خفيفا، لقد عرفت الإيقاع الديني الذي خلق الزهرة وعطارد والعذراء.

تظهرني الصورة الثانية وأنا في الثلاثين، لقد تصلّب وجهي، الفك بارز، والفم قاس، وبدوت كبلطجي، لكن عيني بقيتا لطيفتين، كان لطفهما غامضا تقريباً، بسبب ثبات نظرة المصور الرسمي على وجهي.

من هاتين الصورتين، استطعت أن أرى العنف الذي منحني القوة في ذلك الوقت، من سن السادسة عشرة إلى الثلاثين. لم تكن المغامرة البطولية هي التي بحثت عنها في جحيم الطفولة السجينة أو في السجون أو البارات، وإنما التطابق مع أكثر المجرمين أناقة وتعاسة. أردت أن أكون العاهرة الصغيرة التي تصحب عشيقها إلى سيبيريا، أو التي تعيش بعده، لا لتثأر له، بل لتقوم بالحداد عليه وتمجيد ذكراه.

كنت أظن أن مولدي كان عظيماً، وعدم التأكد من أصلي سمح لي أن أفسره، مضيفا

إليه خصوصية تعاساتي. فقد شعرت بالفعل، وأنا مهجور من العائلة، أن من الطبيعي أن أكون ناقما على هذا الوضع، وتجلت نقمتي بتفضيلي للغلمان، وقادني ذلك إلى السرقة، ثم السرقة المقترنة بالجريمة، أو بموقف راضٍ عن الجريمة، وهكذا رفضت، بحزم، العالم الذي رفضني.

هذا الاندفاع الجذل تقريبا إلى المواقف الأكثر خزيا مازالت تحركه مخيلة طفولتي التي اخترعت لي حصونا وحدائق عامة مزدحمة بالحراس أكثر منها بالتماثيل، فساتين زفاف، فواجع وأعراسا، حتى أتجول هناك بذلك الشخص الرقيق المتغطرس لطفل صغير مهجور. وبعد فترة عبثية، حين أحبطت هذه الخيالات الجميلة بعد أن وصلت إلى أقصى مدى، إلى نقطة الإنهاك في حياة البؤس، في الإصلاحيات والسجون، في السرقات والإهانات والدعارة، كان من الطبيعي أن أزين موقفي الحقيقي كرجل بهذه الأشياء التي أردتها (ولكن أولا كطفل مهان أشبعت معرفته بالسجن إلى نهايتها)، هذه الزينة- والأسلوب النادر المتعلق بها- هي التي أنعمت عليّ بعاداتي العقلية. السجن يقدم إلى السجين إحساس الأمان ذاته الذي يقدّمه القصر الملكي لضيف الملك فالمبنيان أنشئا بكل الإخلاص الذي يضمن لهما أن يبقيا ويظلا كما هما،، البناء الحجري، المواد، التناسب والمعمار كلها تتناغم بوحدة أخلاقية، مما يجعل مثل هذه المباني غير قابلة للهدم بقدر ما يتحملها الشكل الإجتماعي الذي هي رمزه.

أحاطني السجن بضمان كامل. إنه أنشئ من أجلي بالتأكيد. هو، والمحكمة الضخمة بملاحقها ودهاليزها الهائلة، كل شيء هناك صمم لأجلي بروح الجدية القصوى. صرامة القوانين، وحزمها ودقتها، هي في جوهرها الشيء نفسه كإتيكيت البلاط الملكي، كالأدب الفاتن والطاغي الذي يكون الضيف في البلاط موضوعه. أساسات القصر تشبه تلك التي للسجن، أفخر أنواع الحجارة، السلالم الرخامية، التذهيب، النقوش، أندر المباني في المملكة بقوة المضيفين فيها، والمبنيان متشابهان، فأحدهما الجذر، والآخر ذروة نظام حياتي، ويدور بين هذين القطبين، يحتويانه، يضغطانه بقوتهما المطلقة. ماهو الأمان في السجاجيد والمرايا والخصوصية الشديدة لمراحيض القصر! لايوجد مكان آخر تأخذ فيه عملية «الشخ» في الصباح أهمية وقورة، تؤدى في مرحاض، يمكن أن تتبين من نوافذه التي يعلوها الصقيع، الواجهة المنحوتة والحراس والتماثيل ومحكمة الشرف، في خلوة محجوبة، حيث ورق التواليت، ووصيفة في فستان من الساتان وشبشب وردي، غير مبودرة بعد، ومشعثة الشعر، تدخل لتترك حملاً ثقيلاً، أو في خلوة صغيرة، لايطردني منها الحراس الغلاظ بوحشية، يصبح «الخري» هناك عملا مهما، يأخذ مكانه في حياة دعاني إليها الملك، السجن أعطاني الأمان ذاته، لاشيء يحطمه، لاهبّات الرياح، ولا العواصف ولا الإفلاس، ويظل السجن واثقا من نفسه، وأنت وسطه واثق من نفسك. ومع ذلك فهذه الروح من الجدية التي بنيت بها تلك المباني، التي هي منبع احترامهم لأنفسهم، وذخيرتهم ومكمن تفاهمهم المشترك، من هذه الروح سيهلكون. لو كانت مقامة على الأرض وفي عالم

أكثر عرضية، ربما بقيت مدة طويلة، لكن ثقلها جعلني أعتبرها قاسية بلاشفقة، وأنها مقامة داخل ذاتي، علامة أقصى العنف في ميولي المتطرفة، وأن روحي المتآكلة تعمل بالفعل على تدميرها. لقد حططت نفسي، بتهور، وسط حياة بائسة، هي المظهر الحقيقي لقصور مدمرة، وحدائق منهوبة، وأبهة ميتة. وكلما تشوهت هذه الأطلال أكثر بدت العلامة المرئية أكثر بعداً، مدفونة عميقا في ماضٍ مقدس، بحيث لم أعد أعرف إذا كنت قد أقمت في إملاق باذخ، أو أن بؤسي كان عظيماً، وأخيرا، رويدا رويدا، فكرة الإذلال هذه سحبت نفسها مما كان سببا فيها، كسرت الكابلات التي تربطها مع هذه التمويهات المثالية- تمويهات تبررها في أعين العالم، ومعتذرة في عيني- وبقيت وحيدة. وحدتها سبب وجودها، وذاتها هي ضرورتها فقط، ونفسها هي نهايتها. لكن تخيل الولد المهجور، الوله للعظمة الملكية، هي التي مكّنتني أن أمّوه خجلي وعاري، أن أنحته وأعمل عليه كالحدّاد، حتى أنبثق منه خلال الاستعمال، وضعف الكلمات التي تحجبه، خصلة التواضع.

حبي «لستيلتانو» جعلني مرة ثانية واعيا بمثل هذه السجية الاستثنائية. ومع أني عرفت من خلاله نبلا معينا، لكني الآن أكتشف الاتجاه الحقيقي لحياتي - كما يقول المرء اتجاهي في الغابة- وأنها يجب أن تعلن عن نفسها خارج عالمكم.

عرفت، ذلك الوقت، صلابةً وصفاءً، وضحًا موقفي تجاه الفقراء. كان عوزي كبيراً حتى بدا أني عجينة تكونت منه، كان جوهري الحقيقي، ورافدا يطعم جسدي وروحي.

أكتب هذا الكتاب في فندق فخم في إحدى أجمل مدن العالم، حيث إني غني، ومع ذلك لا أستطيع أن أرثي للفقراء، فأنا الفقير. ومع أنه من الممتع أن أختال أمامهم، لكنّي أحزن، بالتحديد، لأني غير قادر أن أفعل ذلك بتفاخر وصفاقة أكبر.

لديّ عربة سوداء لامعة لاتحدث ضجيجاً. أنظر من داخلها إلى الفقر. تتجرر ورائي مواكب من نفسي في ملابس غالية، كي يتمكن الفقر من مشاهدتها، وحتى يراني الفقير الذي كنته يوما، أختال بنبل وسط صمت آلة قوية بكل التألق الأرضي، ويتخيل لو كان مكاني.

كنت مع «ستيلتانو» فقيراً يائسا، أخوض تجارب في أكثر بلدان أوروبا قحطاً، أجف التكوينات شعرية، أرّق في الليل، أحياناً، بسبب قلقي وارتجافي في حضور الطبيعة.

كتبت منذ صفحات «منظرا ريفيا في الغسق»، لم أتخيل في ذلك الوقت، أنه يحتوي مخاطر مهلكة، محاربون سيقتلونني أو يعذبونني، بل على العكس، كان عذبا وأموميا ولطيفا، حتى خفت أن أظل نفسي، فربما ذبت بسهولة وسط تلك الرقة.

كنت أنزل، غالباً، من قطار شحن، وأتجول في الليل لأصغي إلى إيقاعه البطيء. كنت

أقرفص على العشب، وأحياناً لا أجرؤ، فأظل واقفاً وسط الحقل بلا حركة. كنت أتخيل في بعض الأوقات أن المشهد الريفي كان مسرحا لجريمة قتل، أضع فيها أولئك الأبطال الذين سيرمزون بتأثير أكبر، بقدر ما أعيش، إلى دراما حياتي الحقيقية: بين صفصافتين منعزلتين، يقف قاتل شاب، إحدى يديه في جيبه، يصوّب مسدساً ويطلق النار على ظهر فلاح. هل الاشتراك الخيالي في مغامرة إنسانية يشيع مثل هذه الحلاوة في المملكة النباتية؟ أنا أفهم ذلك. توقفت عن حلاقة الزغب الذي كان يكدّر «سلفادور»، وأصبح يشبه ساق نبات الطحلب.

لم يقل سلفادور كلمة أخرى عن «ستيلتانو»، وغدا أكثر سذاجة، ومع ذلك يُدخل السرور على المتشردين في زقاق عشوائي أو على مهاد من الهلاهيل. قال لي «ستيلتانو» مرة عن «سلفادور»: «لابد أنك فاسد تماماً حتى تفعل ذلك مع هذا الولد».

تفسخ عظيم، ورقيق، ذلك الذي يجعلك تحب القبيح والقذر والمشوه سألته: هل تجد دائماً مايعجبك، منهم؟

قال وقد بانت بعض أسنانه السوداء: يحدث. بعضهم يعطيك ما بقي معه أو مافي مخلاته.

ومازال يحقق، بانتظام دقيق، وظيفته البسيطة، تسوله كان راكدا، بحيرة راكدة شفافة، لاتحركها نسمة، هذا الحيوان الفقير كان الصورة الكاملة لما أردت أن أكونه.

لو قابلت أمي آنذاك، وكانت أكثر هوانا مني، لسرنا في طريق الصعود- مع أن اللغة تستدعي أن أقول السقوط أو مايشير إليه- الصعود الصعب المؤلم الذي يقود إلى الإذلال، ولنفذت تلك المغامرة معها، وكتبت عنها كي أمجّدها، شكرا للحب والتعبيرات- سواء بالإشارة أو اللفظ - الأشد دناءة.

رجعت إلى فرنسا. عبرت الحدود دون مشاكل، وحين قطعت عدة أميال في الأرض الفرنسية اعتقلني البوليس، كان شكل هلاهيلي إسبانياً جداً.

- أوراقك؟

أبرزت لهم بعض قصاصات الورق، ممزقة وقذرة نتيجة للطي والفرد.

- وماذا عن بطاقتك؟

- أية بطاقة؟

علمت بوجود بطاقة تعريف للمذلّة، تُعطي لكل المتشردين، وتختم في كل مركز شرطة، وألقوا بي في السجن.

بعد عدة إقامات في السجن، غادر اللص فرنسا، ذهب أولا إلى إيطاليا، الأسباب التي دفعته إلى هناك كانت غامضة، ربما قربها للحدود. روما، نابولي، برنديزي، ألباني، سرقت حقيبة سفر في «الرودي» وضعتني على الشاطئ في «سانتاكوارنتا»، ورفضت سلطات الميناء في «كورفو» أن أقيم هناك، وقبل أن أغادر، اضطروني لقضاء الليل في القارب الذي استأجرته، ليعود بي ثانية.

بعد ذلك ذهبت إلى الصرب ثم النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا حيث حاولت ترويج عملة بولندية مزورة، وفي كل مكان، كان يحدث الشيء ذاته: سرقة وسجن وطرد من البلد. أعبر الحدود في الليل، أيام الخريف اليائسة، حين يكون الأولاد متعبين ومتبلدين، أما في أيام الربيع، عند قدوم الليل، تجدهم وقد انبثقوا من حيث لايعلم إلا الله، يعدّون أنفسهم للاحتشاد في الأزقة وعلى الأرصفة والأسوار، في الحدائق ودور السينما وقرب الثكنات. وأخيراً ذهبت إلى ألمانيا النازية ثم إلى بلچيكا، وفي «أنتيرب» قابلت «ستيلتانو» مرة ثانية.

برنو أوبرن مدينة في تشيكوسلوفاكيا، وصلتها سيرا على الأقدام، بعد عبور الحدود النمساوية تحت المطر عند «ريتز». بعض السرقات البسيطة من الدكاكين جعلتني أعيش أياما قليلة، كنت بلا أصدقاء، ضائعا وسط أناس عصبيين. أردت أن أستريح قليلاً بعد رحلتي المضطربة وهروبي من الشرطة وشركاء الجرائم الذين كانوا في إثري. كانت «برنو» مدينة كثيرة الأمطار كئيبة. مسجونة بدخان المصانع ولون الأحجار. كانت روحي ستسترخي هناك وينتابها الكسل في غرفة مسدلة الستائر، لو استطعت، فقط، أن أقضي عدة أيام دون القلق حول النقود. كانت اللغة الألمانية مع التشيكية دارجتين هناك. ونوع من الحرب تدور بين عصابات متنافسة من مغني الشوارع الشباب بكلتا اللغتين. دعتني فرقة، تغني بالألمانية، أن أنضم إليها، كنا ستة شباب، توليت جمع النقود التي يتبرع بها الناس، وتنظيم الإنفاق. ثلاثة من زملائي كانوا يعزفون الجيتار، وواحد على الأكورديون، والخامس يغني، ذات يوم كنت أستند على حائط أراقبهم، كان أحد عازفي الجيتار، أشقر، يرتدي قميصا من نسيج مربع، وبنطلونا من القطيفة. الجمال نادر في «برنو»، لكن وجهه سحرني. وقفت أنظر إليه فترة طويلة، وضبطته يتبادل ابتسامة مع رجل بدين، متورد الخدين، يلبس بطريقة محافظة، ويحمل حقيبة جلدية. وتساءلت هل يعرف الآخرون أن زميلهم يسرح مع شواذ المدينة الأغنياء؟ وقررت أن أراقبهم عددا من المرات على نواصي شوارع عدة. لم يكن أحد منهم من «برنو» عدا «مايكل» الذي أصبح صديقي. كانت ملامحه جميلة دون أن تكون أنثوية، وبمجرد أن يكون معي لاتعود النساء تهمه، ودهشت لأن أرى لأول مرة

شاذا ملامحه رجولية، بل حتى خشنة، لكنه كان أرستقراطي الفرقة. كانوا جميعا ينامون في قبو، حيث يطبخون وجباتهم أيضاً. لا يوجد الكثير مما يقال عن الأسابيع القليلة التي قضيتها معهم، عدا حبي لما يكل الذي كنت أتكلم معه بالإيطالية. عرّفني على صاحب المصنع البدين المتورد خفيف الحركة، كنت متأكداً أن مايكل لايحمل له أية عاطفة، فأشرت عليه بأن السرقة ستكون أكثر جمالاً من الدعارة.

قال لي بوقاحة: لكني أنا الرجل

شككت في ذلك، لكني تظاهرت بأني أصدقه. أخبرته عن بعض السرقات، وأني كنت في السجن، فأُعجب بي لذلك. وخلال أيام قليلة، وبفضل ملابسي أصبحت شخصا ساحراً بالنسبة له، قدته إلى عدة أعمال وأصبحت سيده.

سأسمح لنفسي ببعض الدلال وأقول إني كنت لصا ذكيا، لم أضبط مرة متلبسا. وكوني أسرق بمهارة لأقيم أودي، ليس مهما بالنسبة لي، فما كنت أبحث عنه أكثر من أي شيء آخر هو أن أكون ضمير اللص الذي أكتب قصيدته، بكلمات أخرى، ودون أن أعدد مباذلي، أن أظهر ما أدين لها به في مملكة الأخلاق، مابنيته معها كأساس، ما يبحث عنه أبسط اللصوص على نحو غامض، ما يمكن أن يحققوه بأنفسهم. «دلال معين» منتهى الفطنة.

هذا الكتاب «يوميات لص» مطاردة للعدم المستحيل.

وقررنا أن نغادر بعد أن سرقنا السيد. كان علينا الذهاب إلى بولندا حيث يعرف «مايكل» بعض المزورين. وخططنا أن نروّج عملة بولندية مزورة. ومع أنني لم أنس «ستيلتانو»، فإن الآخر كان يأخذ مكانه في قلبي وضد إرادة جسدي. مابقي من الأول نوع من التأثير أشاع في ابتسامتي قسوة خفيفة حين اصطدم بذكراه، وأعطى حركاتي صرامة معينة. لقد كنت المحبوب من طائر جميل كاسر، وغد من أفضل السلالات، بحيث استطعت أن أمارس صفاقة خاصة مع عازف جيتار ساحر، وفعلت ذلك بسهولة، مع أنه كان لطيفا ونبيها. لا أجرؤ على المجازفة برسم صورة له، فسترى فيها الصفات التي وجدتها في جميع أصدقائي– دلائل لزهوي، ثم لشفافيتي وأخيراً لغيابي. الأولاد الذين أتكلم عنهم تبخروا، كل مابقي منهم، هو مابقي مني، أنا أوجد من خلالهم فقط فلم يبق بداخلي شيء، يطرحون الضوء عليّ ولكني منطقة متداخلة.. هؤلاء الأولاد: حراس شفقي – هذا الشاب لديه خبث لذيذ، وكان نابضا بالظرف حتى أني وقعت في الغواية، وأفضل شيء لتعريفه هو استخدام التعبير القديم: كان عازف جيتار عذبا.

عبرنا الحدود بنقود قليلة، لأن الزميل القديم الذي سرقناه كان حريصا، وصلنا «كاتووايس Katowice»، ووجدنا أصدقاء «مايكل»، لكننا اعتقلنا في اليوم التالي بتهمة التعامل بنقود مزورة، مكث في السجن ثلاثة شهور ومكثت شهرين. وقد وقعت حادثة، آنذاك، كان لها

تأثير على حياتي الأخلاقية.

أحببت مايكل، وجمع التبرعات لفرقة الغناء ليس عملاً مهينا، فقد اعتادت دول أوروبا الوسطى على مثل هذه المجموعات من الشباب، كل حركاتنا وإشاراتنا كانت بريئة بسبب حيويتها ومرحها، ويمكنني أن أحب «مايكل» بجنون دون أن أشعر بالخجل، وأستطيع أن أخبره بذلك، وقد كانت لنا ساعات حظ في الليل سراً في بيت عشيقه البدين. عشنا لمدة شهر في قسم الشرطة قبل أن يحكم علينا بالسجن، كان كل منا في زنزانة. لكن في الصباح، قبل فتح المكاتب، يصطحبنا شرطيان لننظف المراحيض ونغسل البلاط. فالوقت الوحيد الذي كنا نرى فيه بعضنا كان ملونا بالخجل، فالشرطة كانت تنتقم من الفرنسي والتشيكي الأنيق. نوقظ مبكراً في الصباح لإفراغ جردل الخراء. كنا نحمله وننزل خمسة طوابق على سلم منحدر، في كل درجة موجة من البول تبلل يدي ويد «مايكل» الذي أصر الشرطي أن أناديه باسمه الأخير «أندريتش»، كنا نود الابتسام لنخفف من هذه اللحظات، لكن الرائحة تجبرنا أن نقفل أنفينا باليد الأخرى، والتعب يعقّد ملامحنا، ننزل، بحزن وحذر وبطء، بالوعاء المعدني الضخم الذي يتخفف فيه رجال البوليس البدناء من بولهم وخرائهم طوال الليل، وقد أصبح باردا في الصباح، نفرغه في مراحيض في الفناء ونعود نصعد السلالم. لو لم أعط «مايكل» صورة مشرقة عن نفسي، لما أثر فيّ وضع مخز كهذا ولبقيت هادئا ونحن ننزل بالوعاء، ولكي أقلل من إحساسه بالذل، تماسكت وشددت نفسي حتى أصبحت كحرف من لغة كهنوتية قديمة. أعجبه هذا التيبس ورأى فيه نوعا من البطولة، وأغنية تحرك قلب الحقير. حين نفرغ الوعاء، يرمي لنا الشرطي بقطعة من الخيش لنمسح الأرضية، ننظف وندعك الأحواض، نزحف أمامهم على ركبنا، قد يضربوننا بكعوب أحذيتهم. لابد أن مايكل قد فهم معاناتي، ولأني لا أستطيع قراءة نظراته أو تصرفه، فلم أكن واثقا من غفرانه لسقطتي. وفكرت ذات صباح أن أتمرد وأُفرغ الوعاء على قدمي الشرطي، لكني تخيلت ماسيكون عليه انتقام هؤلاء البدناء، سيمسحون بي البول والخراء، وربما يجعلونني ألعقه في غضبهم وارتجافهم. ورأيت أن هذا الموقف قد يكون رائعاً، فسيحقق لي مالم يحققه عمل آخر. وهو موقف استثنائي في حضور الشخص الذي أحبه، وينظر لي كملاك، فهأنذا أسقط أمامه، أعض التراب، مقلوبا كقفاز، مبديا بالضبط عكس ماكنته. لماذا لا أكون هذه الصورة المقلوبة؟ الحب أو الإعجاب الذي يحمله لي مايكل، كان ممكنا في الماضي، وأستطيع الحياة دون ذلك الحب.

هذا التفكير جعل ملامحي أكثر قسوة، وعرفت أني عدت إلى العالم الذي بلا رأفة، عالم تلك المشاعر المضادة للنبل والجمال، عالم يتواصل مع الدنيا عن طريق الهوان. ويبدو أن «مايكل» لم يكن واعيا بهذا الموقف، فقد حمله على محمل الخفة، كان يبتسم، غالباً، وينكّت مع الحراس، ويشع وجهه بالبراءة، وأقلقتني رقته نحوي، أراد أن يخفف عني، لكني كنت فظا معه.

كنت أحتاج إلى غدر كي أدفعه بعيداً عني، ولم أنتظر طويلاً، فذات صباح انحنى ليلتقط قلم رصاص سقط من شرطي. فأهنته. قال إنه لايفهم سبب ثورتي، أراد أن يهدئني بإظهار حنوه، فزاد غضبي.

قلت له: أنت جبان. ابن زانية. مازالت الشرطة في نظرك خيّرة.. ستلعق أحذيتهم يوما.. وقد يزورونك في زنزانتك ويركبونك.

كرهته لأنه شاهد على سقوطي، بعد أن كنت ماكنته في نظره. بهت لون بدلتي، وأصبحت قذراً غير حليق، منكوش الشعر قبيحاً، وبدوت مثل البلطجي، الذي لايحبه مايكل، لأنه هو كذلك في طبيعته. وغصت بخجلي. ولم أعد أحب صديقي، بل على العكس، هذا الحب، وهو الأول الذي أجربه وأكون حاميا لمحبوبي، تبعته كراهية موبوءة نجسة لأنه مازال يحتوي على مزق قليلة من الرقة. وكنت أعرف أني لو كنت وحدي لأحببت الشرطة. فما إن يغلق عليّ باب زنزانتي حتى أحلم بقوتهم وصداقتهم، والتواطؤ المحتمل بيني وبينهم، والتبادل المشترك للفضائل، فيكشفون عن أنفسهم: بلطجية مع خائن. لكن الأوان قد فات. كان ذلك يجدي حين كنت مهندما، أحمل ساعة، وحذائي ملمّعا، حتى أكون ندا لهم، أما الآن فأنا صعلوك.

وبدا لي أن الأمر قد تقرر تماماً، وفُرض عليّ أن أسكن في الخزي، مع أنه بمجهود مُواتٍ لعدة أشهر يمكن أن أعود ثانية إلى العالم.

وقررت أن أعيش برأس محني، وأتبع قدري تجاه الظلام عكس اتجاهكم، وأستثمر مايناقض جمالكم.

كثير من المتعلمين المهتمين بالأدب سكنتهم فكرة العصابات، وقد ابتليت البلد بهم، أيمكن تخيل اتحاد إراداتهم على النهب والسلب بالكره والقسوة؟ يبدو أنه احتمال ضعيف أن يستطيع غير هؤلاء تنظيم أنفسهم، وأخشى أن يكون عنصر الترابط بينهم هو الجشع، جشع ممّوه بالغضب وطلب العدالة، وحجة كهذه تصل بالمرء بسرعة إلى نقطة ممارسة أخلاقية جاهزة وقاسية على نقيض ما يسعى إليه، الشر والضراوة والقسوة، ولأنها عكس الأخلاق، فلا يمكن أن تكون العناصر التي توحد الخارجين على القانون وتكوين العصابات إلا وسط الأطفال. كل مجرم في السجن يحلم بمنظمة مترابطة محبوكة وقوية، تكون ملجأه من العالم وأخلاقياته، ولكنه حلم يقظة. فالسجن هو القلعة والكهف المثالي وعرين اللصوص، الذي يضربه العالم عبثا. وإذا تحدثت الصحف عن عصابات مكونة من أمريكيين هاربين وبلطجية من فرنسا، فليس الأمر موضوع منظمة، إنما هو تعاون قصير الأمد، وبالمصادفة، بين ثلاثة أو أربعة رجال على الأكثر.

حين خرج «مايكل» من السجن، عدنا لبعضنا ثانية، كنت طليقا قبله بشهر. عشت على

سرقات صغيرة من القرى المجاورة، وكنت أنام في حديقة عامة على أطراف المدينة، كان الوقت صيفاً، وكثير من الصعاليك كانوا يأتون إلى هناك لينامو على الحشائش في الظل أو تحت أفرع شجر الأرز المنخفضة. قد تشاهد لصا ينهض من وسط الزهور عند الفجر، أو متسولاً صغيرا يتثاءب مع أول شعاع شمس، أو أشخاصا يفلّون أنفسهم على مصاطب معبد شبيه بالمعابد اليونانية. لم أتكلم مع أحد. أذهب في الصباح إلى كنيسة على بعد أميال قليلة، وبواسطة عصا مصمّغة أسرق النقود من صندوق النذور، وأعود في المساء إلى الحديقة سيراً على الأقدام. كانت ساحة المعجزات هذه رائعة. كل ضيوفها صغار السن، في إسبانيا كانوا يتجمعون معاً ويتبادلون المعلومات عن الأماكن ذات الحصيلة الجيدة، أما هنا، فكل شحاذ وكل لص يتجاهل الآخرين، يبدو وكأنه يدخل الحديقة من باب سري، ينزلق بصمت إلى كتل الأشجار، لايشير إلى حضوره إلا وهج سيجارته أو وقع خطواته المتسللة، ويزول كل أثر لهم في الصباح. كل هذه المبالغة في الحرص جعلت أجنحتي تخفق بسرعة أكبر. مستلقيا تحت رقعة الظل الخاصة بي، ذهلت لكوني تحت السماء ذات النجوم نفسها التي رآها الاسكندر وقيصر، وأنا مجرد شحاذ ولص كسول. عبرت أوروبا كلها بوسائلي الخاصة التي هي على النقيض من طرق المجد، وهأنذا أكتب لنفسي تاريخاً سرياً مفصلاً قيما مثل تاريخ الغزاة العظام. ولذا كان من الضروري أن تجعل مني هذه التفاصيل، الشخصية الأكثر تفردا وندرة. وواصلت تجربة أكثر طوالع السوء كآبة.

تحت وشاح من الموسلين، لمست الشحوب نصف الشفاف لكتف عارية: إنه صفاء الصباح، حين سار «الكارولیناس» في موكب في برشلونه ليضعوا الزهور على المبولة (ليعلم القارئ أن هذا التقرير عن حياتي الداخلية أو مايوحي به هو أغنية حب فقط. وللدقة، فإن حياتي كانت تمهيداً لمغامرات شهوانية (وليس لعبا) أحاول كشف معناها الآن. البطولة تبدو لي محملة بصفات غزلية مفرطة، وحيث لايوجد أبطال إلا في مخيلتنا، فلابد إذن من اختراعهم، لذا فقد لجأت إلى الكلمات، هذه الكلمات لو حاولت أن أفسر بها الأمور، ستغني.. هل ماكتبته هو الحقيقة؟ كتاب الحب هذا هو الحقيقي، أما الوقائع التي استخدمتها كذرائع، فستكون نفسي مستودعها، فليست هي التي أستعيدها).

كانت المدينة تستيقظ، العمّال يذهبون إلى العمل. أمام كل باب، جرادل من الماء أُفرغت على الأرصفة، التجأ إليها «الكارولیناس» متوجين بالسخرية، لم يعد الضحك يؤذيهم، بؤس هلاهيلهم ينبئ عن عوزهم، حافظت الشمس على هذا الإكليل الذي يشع بنورانيته الخاصة. كانوا جميعاً موتى. وما رأيناه يمشي في الشارع، كانت ظلالا أُقتطعت من العالم، الجنيّات جنس باهت رقيق يزهر في عقول الناس الطيبين، وليست مؤهلة لضوء النهار الساطع، للشمس الحقيقية، ولكن من تلك الأعراف البعيدة تسببن مصائب عجيبة تكون باكورة جمالات جديدة. إحداهن – تيريزا الكبرى– اعتادت أن تنتظر الزبائن، عند الغسق، في دورات المياه. تحضر كرسياً صغيراً إلى إحدى المباول العامة قرب الميناء، تجلس عليه وتواصل شغل الإبرة أو الكروشية، قد

تتوقف لتتناول سندويتشا، كانت كأنها في البيت. «سينوريتا دورا» كانت واحدة أخرى، تتعجب متسائلة «يالهم من عهرة هؤلاء الملاعين المخنثون.» وقد ولد تأمل عميق موجز، من ذكرى هذه الصرخة، عبّر عن يأسهم الذي كان يأسي، وقد كنت هربت من البؤس - كم مضى من الوقت على ذلك- وأريد أن أرجع إليه. قد تساعدني، هذه الفترة الفاصلة في عالمكم- أن أكتب كتاباً عن الكارولينناس.

كنت محتشما، وحمتني ملابسي، وانتظرت أن أنام في وضع أكثر جمالاً وراحة، رفعت نفسي عن الأرض، طفوت فوقها، كنت واثقا في مقدرتي على أن أتجاوزها بسهولة، سرقاتي من الكنائس ساعدتني على ذلك، عودة «مايكل» جرفتني، قليلاً إلى أسفل، مع أنه ساعدني في السرقة، وكان دائم الابتسام بشكل مألوف.

تعجبت من هذه الألغاز الليلية، وتعجبت أيضاً أن الأرض في ظلام حتى في وضح النهار. وعارفا بكل ما يجب معرفته عن تقيح الفقر، فإني أراه مرسوماً «بالسلويت» تحت القمر، معروضاً كخيال الظل في ظلال أوراق الشجر، دون عمق، إنه مجرد رسم، أملك ميزة خطيرة، بالقدرة على عبوره بكثافة دمي ومعاناتي. وقد تعلمت أنه حتى الزهور تكون سوداء في الليل، وذلك حين أجمع بعضها لأحملها إلى المذابح التي أكسر صناديق نذورها كل صباح. لم أحاول أن أستخدم هذه الباقات من الزهور لأسترضي قديسا أو العذراء، أردت أن أعطي جسدي وذراعي فرصة لتتخذ أوضاعا جميلة صادقة، تدمجني في عالمكم.

قد يدهش القارئ أني أصف شخصيات قليلة تستحق التصوير. إن نظرتي مملوءة بالحب ولم تدرك في ذلك الوقت الملامح الصارخة التي تعطي الشخصية فرديتها بحيث ينظر إليها كموضوع. كنت أعي، على الفور، ودون تفكير، تبرير كل سلوك، مهما كان غريبا. فأية إشارة غير محسوبة، أو موقف ما، بدا لي - أنها أو أنه- متواصل مع حاجة داخلية للشخص. لم أكن قادراً، وما زلت، أن أسخر من الناس. كل ملاحظة أسمعها، حتى أكثرها عبثية، تبدو لي أنها أتت، بالضبط، في اللحظة المناسبة. دخلت الإصلاحيات، والسجون، وعرفت المواخير وأحط الشوارع والبارات، ولم أدهش لشيء. لو غصت في ذاكرتي، فلن أجد فيها شخصية من تلك الشخصيات التي لو نظرت إليها عين أكثر سخرية مني لجعلتها ناراً على علم. قد يكون هذا الكتاب مخيبا للآمال. وحتى أكسر من حدة رتابته سأحاول ذكر بعض المواقف الطريفة واللماحة التي مرت بي.

في المحكمة سأل القاضي السجين: لماذا سرقت النحاس؟

قال السجين: بسبب الفقر ياسعادة القاضي.

قال القاضي: ليس ذلك بعذر.

قال لي ستيلتانو: لقد زرت أوروبا كلها حتى اليونان.

سألته: وهل أحببتها؟

قال: ليست سيئة.. لكنها مهدمة قليلاً.

اعترف لي مايكل، وهو شاب أنيق، أنه أكثر فخراً بنظرات الإعجاب التي يرمقه بها الرجال أكثر من تلك النظرات التي ترمقه بها النساء. وأضاف: لذا أختال بمشية أكثر غنجا.

قلت له: ولكنك لاتهتم بالرجال..

– ذلك لايهم، أستمتع أن أراهم يسيل لعابهم حين ينظرون إلى مؤخرتي الجميلة.. وذلك سبب معاملتي الحسنة لهم.

حين كنت متبوعا في شارع «كورون»، فإن الرعب الذي سببه لي رجال المباحث، ارتبط بالخشخشة الخفيفة لمعاطف المطر التي يرتدونها، وكلما كنت أسمع هذا الصوت، ينقبض قلبي.

أثناء ذلك الاعتقال، بسبب سرقة وثائق تخص «الدولية الرابعة»، تعرفت على «ب»، كان في حوالي الثانية أو الثالثة والعشرين، كان يخاف الترحيل، وبينما كانوا يأخذوننا إلى إدارة تحقيق الشخصية، باح لي بمخاوفه، قلت: قد أرّحل أنا أيضاً.

قال: ابق بجانبي فقد يضعوننا في الزنزانة ذاتها.. سنرتب الأمر لنكون سعيدين لو رُحلنا معاً.

حين عدنا من المكتب، مشى بجانبي وهمس بثقة:

– أعرف زميلاً في العشرين.. سألني مرة أن أجد له غلاما يحبه. وفي المساء ذاته اعترف لي: تحدثت مثل شخص مخدر.. أنا الشاب الذي يحب ذلك.

قلت له: ستجد ماتريد هنا.

– لهذا أنا لست قلقاً.

لم يرحّل. قابلته في «مونمارتر» قدمني إلى صديق له، قسيس، كان يفعل به في الليل. قال: لماذا لاتجرب كاهني؟

قلت: لا أعرف.. إنه متعال.

حين نتقابل، كان يحدثني، غالباً، عنه، يقول «كاهني» برقة معينة، كان الكاهن الذي يحبه، قد وعده بوظيفة في أبرشيته.

دون أن يشكّوا فيما يدمرونه، مزق البوليس عشر أو اثني عشرة رسماً وجدها في ممتلكاتي. لم يدركوا أن هذه الرسومات كانت عدة شغل لعملية قديمة. كنّا نخطط، أنا و«ج» و«أ» لسرقة متحف بلدة «س». كانت مهمتي أن أعرف طبيعة المكان والأشياء التي يمكن سرقتها. لا أستطيع أن أخوض في تفاصيل هذه السرقة الآن، التي نفّذها آخرون، لأنها قريبة العهد في حدوثها. كنت أبحث عن عذر أقدمه لزياراتي المتكررة للمكان، وقد وقعت على الفكرة بعد سماعي لشخص يطلب بصوت عال أن يسمح له برسم «اسكتشات» لأغلفة الكتب القديمة المحفوظة في بعض خزائن العرض الخاصة. وترددت على المتحف أياماً عديدة، أرسم بقدر جهدي ما استطعت. حين عدت إلى باريس سألت عن قيمة هذه الكتب، ودهشت حين علمت أنها ثمينة جداً. لم أفكر من قبل أن الكتب يمكن أن تكون شيئاً يسعى وراءه المرء. لم نقم بالعملية، لكن، بتلك الطريقة، جاءتني فكرة سرقة الكتب من المكتبات. تزودت بحقيبة صغيرة ذات جيب سحري، كنت أدفع ما أريده من كتب فيها بمهارة، حتى أني كنت أنفذ هذه السرقات تحت أنف بائع الكتب دون أن يراني.

❖❖❖

كان لستيلتانو العضلات نفسها التي «لجافا»، والمشية ذاتها، المتمايلة بخفة، كما لو أنه يشق الهواء، وحين ينهض «جافا» متحركا من مكان إلى آخر، أشعر بالإحساس ذاته كما لو أنني أرى عربة قوية تشق طريقها بهدوء ونعومة. لكن «ستيلتانو» كانت لديه حساسية أكثر في عضلات ردفيه، كفله أكثر تموجا، وكان «جافا» مثله يسعد بالخيانة، ويحب إهانة العاهرات.

قال لي: هي عاهرة بالتأكيد. أتعرف ماذا قالت لي لتوها؟

لايمكنك أن تخمن.. إنها لن ترافقني الليلة لأنها على موعد مع عجوز يدفع أفضل.. إنها عاهرة.. لكني سآكلها.

كان عصيبا لدرجة أنه كسر السيجارة التي كان يخرجها من علبته. حين نمت، لأول مرة، مع هذا الرياضي الأنيق ذي الواحد والعشرين عاما. تظاهر بأنه نائم وهو يدس وجهه في المخدة البيضاء. وحين فعلت به مافعلت، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتأوه برقة كأنه إنسان يتنهد. في وقت الممارسة يصبح شخصاً غير نفسه، شيئاً آخر غير عشيقي، جزءاً غريباً عني يحتفظ بالقليل من خصوصيته. نكوّن جسدا واحداً له رأسان كل منهما غارق في لذته. وفي لحظة فورة اللذة في جسدي، التي يحسها أيضاً، نفقد الرقة ويغطينا الضباب. ألمسه في الظلام، وأشعر بقناع من الظل ينتشر فوق وجهه، ويتفق مع الألم والسعادة الغارق فيها. أعرف أنه يستقطر هذه اللذة مني، وأنه ينتظرها من يدي، ومع أننا متحدان معاً فإن كل علاقات صداقتنا قد قطعت، الأفواه

دون أن يشكّوا فيما يدمرونه، مزق البوليس عشر أو اثني عشرة رسماً وجدها في ممتلكاتي. لم يدركوا أن هذه الرسومات كانت عدة شغل لعملية قديمة. كنّا نخطط، أنا و«ج» و«أ» لسرقة متحف بلدة «س». كانت مهمتي أن أعرف طبيعة المكان والأشياء التي يمكن سرقتها. لا أستطيع أن أخوض في تفاصيل هذه السرقة الآن، التي نفّذها آخرون، لأنها قريبة العهد في حدوثها. كنت أبحث عن عذر أقدمه لزياراتي المتكررة للمكان، وقد وقعت على الفكرة بعد سماعي لشخص يطلب بصوت عال أن يسمح له برسم «اسكتشات» لأغلفة الكتب القديمة المحفوظة في بعض خزائن العرض الخاصة. وترددت على المتحف أياماً عديدة، أرسم بقدر جهدي ما استطعت. حين عدت إلى باريس سألت عن قيمة هذه الكتب، ودهشت حين علمت أنها ثمينة جداً. لم أفكر من قبل أن الكتب يمكن أن تكون شيئاً يسعى وراءه المرء. لم نقم بالعملية، لكن، بتلك الطريقة، جاءتني فكرة سرقة الكتب من المكتبات. تزودت بحقيبة صغيرة ذات جيب سحري، كنت أدفع ما أريده من كتب فيها بمهارة، حتى أني كنت أنفذ هذه السرقات تحت أنف بائع الكتب دون أن يراني.

❖ ❖ ❖

كان لستيلتانو العضلات نفسها التي «لجافا»، والمشية ذاتها، المتمايلة بخفة، كما لو أنه يشق الهواء، وحين ينهض «جافا» متحركا من مكان إلى آخر، أشعر بالإحساس ذاته كما لو أنني أرى عربة قوية تشق طريقها بهدوء ونعومة. لكن «ستيلتانو» كانت لديه حساسية أكثر في عضلات ردفيه، كفله أكثر تموجا، وكان «جافا» مثله يسعد بالخيانة، ويحب إهانة العاهرات.

قال لي: هي عاهرة بالتأكيد. أتعرف ماذا قالت لي لتوها؟

لايمكنك أن تخمن.. إنها لن ترافقني الليلة لأنها على موعد مع عجوز يدفع أفضل.. إنها عاهرة.. لكني سآكلها.

كان عصيبا لدرجة أنه كسر السيجارة التي كان يخرجها من علبته. حين نمت، لأول مرة، مع هذا الرياضي الأنيق ذي الواحد والعشرين عاما. تظاهر بأنه نائم وهو يدس وجهه في المخدة البيضاء. وحين فعلت به مافعلت، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتأوه برقة كأنه إنسان يتنهد. في وقت الممارسة يصبح شخصاً غير نفسه، شيئاً آخر غير عشيقي، جزءاً غريباً عني يحتفظ بالقليل من خصوصيته. نكوّن جسدا واحداً له رأسان كل منهما غارق في لذته. وفي لحظة فورة اللذة في جسدي، التي يحسها أيضاً، نفقد الرقة ويغطينا الضباب. ألمسه في الظلام، وأشعر بقناع من الظل ينتشر فوق وجهه، ويتفق مع الألم والسعادة الغارق فيها. أعرف أنه يستقطر هذه اللذة مني، وأنه ينتظرها من يدي، ومع أننا متحدان معاً فإن كل علاقات صداقتنا قد قطعت، الأفواه

التي بإمكانها أن تعيد هذه العلاقات غير قادرة أن تتقابل، إنه يريد أن يتخوزق بعمق أكبر. لم أستطع رؤية وجهه وهو يتمتم «أطفئ النور»، لكني شعرت أنه أصبح شخصاً آخر، شخصاً غريباً وبعيداً. وحين انتهى شعرت أنه يكرهني.

في البداية، ونحن عرايا في السرير، قلبته – يقول البلطجية عن أنفسهم بسخرية مدهشة «انقلبت مثل قرصة مشوية» – وبدأت ألولبه، كان يئن، أخافني، كنت أربت على ردفه بلطف كما أفعل مع حصان حتى يظل هادئا ولايتمرد حين أبدأ العمل، ارتعاده مازال يثيرني حتى اليوم، إنه إشارة لذة أستنشقها، ألتصق به، وأضغط قليلاً بيدي على عريه لكي أشعر تحت أصابعي بالنبض الرقيق للمني المتدفق يكاد يخرق المرتبة. كانت على رسغيه علامة بدلة الغوص، وفتحة الذراعين للقميص الأبيض التحتي، قشع بخصوصية أناقة ونشاط بحار لامبال داعر. رأيت حرف A موشوماً تحت إبطه، سألته: ماهذا؟

قال: فصيلة دمي حين كنت في الـ S.S.، كلنا وشمنا.

أضاف دون أن ينظر نحوي: لا أخجل أبداً من حرفي.. لا أحد يستطيع

نزعه وقد أُقتل في سبيل الاحتفاظ به.

– هل أنت فخور لأن تكون في الـ S.S.

– أنا كذلك.

كان وجهه يحمل تشابها غريبا مع «مارك أوبرت»، الجمال البارد ذاته، خفض ذراعيه، ثم نهض وسوّى ملابسه، نفض الأعشاب واللحاء عن شعره، تسلقنا الحائط ومشينا على الحصباء بصمت. وسط الجمهور نظر نحوي بخبث وقال: يشيع الناس أن هتلر يُلولبنا.. أنا لا أهتم بما يقولونه.

ثم انفجر ضاحكا، بعينيه الزرقاوين، شق الجمهور والهواء بعظمة حتى أني حملت خجله نيابة عنه.

بعد أن عرفت إريك، وأحببته، فقدته. قابلت بعد ذلك غلاماً مثله، عرف الفرح المرعب بالانتماء إلى الجيش المرعب. وعلى الرغم من أنه كان حارساً شخصياً سابقاً لضابط كبير، فقد كان رقيقاً. دخل دورة تدريبية قصيرة في معسكر، تعلم فيها كيف يستخدم السلاح الأبيض، وأن يكون على حذر دوماً، وعلى استعداد لأن يموت في سبيل حماية الضابط الألماني. رأى ثلوج روسيا. وسلب الكثير من البلاد التي مرّ بها، تشيكوسلوفاكيا، بولندا وحتى ألمانيا، ولم يحتفظ بشيء من أسلابه. حكم بسنتين أتمهما لتوه. أحياناً، كان يحدثني عن هذه الفترة، والذكرى

التي تغطي على كل شيء عنده، هي شعوره بالفرح العميق حين يرى عيني الرجل الذي يوشك أن يقتله وهما تتسعان رعبا. كان يمشي على قارعة الطريق، يختال في الشوارع، وفي المساء يقدم عريه لمن يريد أن يمصه، ومؤخرته لمن يريد أن يدكها.

القتل ليس الوسيلة الأكثر تأثيراً للوصول إلى عالم الدناءة والخسة السري، بل على العكس، فالدم الذي أراقه، والخطر الدائم الذي يتعرض له، يؤدي في النهاية لأن يفقد رأسه (القاتل ينسحب ولكن انسحابه إلى أعلى)، والفتنة التي يجهد نفسه لإبرازها- من المفترض أن يمتلك من وجهة النظر التي يحدد بها قوانين الحياة، الصفات الأكثر سهولة للقوة الاستثنائية- تمنع الناس من ازدراء المجرم. لكني اخترت جرائم أخرى أكثر حقارة: السرقة، التسول، الخيانة، انتهاك.. الخ، مع أنني كنت دائماً ممسوساً بفكرة القتل التي تقطع صلتي بعالمكم نهائياً.

حالفني الحظ في بولندا، فاستعرضت أناقتي. ومع أن البولنديين لم يشكّوا بسلوكي، إلا أن القنصل الفرنسي أدرك الموقف، وطلب مني مغادرة «كاتووايس» خلال ثمان وأربعين ساعة، وبولندا في أسرع وقت. وقررت مع «مايكل» أن نعود إلى تشيكوسلوفاكيا، لكنهم رفضوا إعطاءنا تأشيرة دخول. استأجرنا سيارة بسائقها ليأخذنا إلى الحدود عن طريق جبلي. كان معي مسدس، قلت لمايكل «إذا رفض السائق أن يوصلنا سنقتله ونستمر بالسيارة إلى الحدود».

كنت أجلس في المقعد الخلفي، يد على السلاح والأخرى تمسك بيد «مايكل» الذي كان أقوى مني مع أنه في مثل سني. كنت على استعداد أن أطلق الرصاص على ظهر السائق بسعادة. كانت السيارة تصعد تلاً ببطء، ومن المفروض أن يقفز «مايكل» على عجلة القيادة، لكن وفي تلك اللحظة توقف السائق أمام نقطة حدود لم نرها. لقد رفضتني هذه الجريمة. وعدنا إلى «كاتووايس» مصحوبين برجلين من الشرطة. كان الوقت ليلاً. وفكرت، لو وجدوا المسدس في جيبي فقد أُعتقل وأدان، كان السلم الذي يقود إلى مكتب رئيس القسم مظلماً، وخطرت لي فكرة ونحن نصعد أن أضع السلاح على إحدى الدرجات.. تظاهرت بأني تعثرت، وانحنيت ووضعت المسدس في ركن قرب الحائط. أثناء الاستجواب (لماذا أريد الذهاب إلى تشيكوسلوفاكيا؟ وماذا سأفعل هناك؟) كنت أرتجف لئلاً تنكشف حيلتي. جربت، في ذلك الوقت، القلق المرح، هش كغبار الطلع على زهرة بندق، الفرح الذهبي الصباحي لمجرم تمكن من الهرب، ومع أنني لم أرتكب الجريمة، إلا أنني، على الأقل، سبحت بلطف على حافة بزوغها.

أحبني «مايكل». والموقف المؤلم الذي وجد نفسه فيه، أن حبي نحوه بدأ يتحول إلى نوع من الرثاء له، والأساطير مملوءة بالأبطال الذين تحولوا إلى خدم. وانتابه خوف غامض، من أن أقوم بحيلة ماكرة أثناء كموني وانقباضي، ووضعي الذي يشبه اليرقة، فيتوّج تحولي بنبت مفاجئ لأجنحة لهذه اليرقة، فأطير، كالأيل الذي نجا من الكلاب بفضل الله، أمام أعين الحراس الذين

سيصعقون بمعجزتي. البدء بتنفيذ الإعدام في القاتل كاف في حد ذاته، ومايكل يقدّرني كما كان يفعل في الماضي، لكني لم أعد أحبه. وإذا كنت أسجل مغامرتي معه، فلكي أبين أن الضحية العنيدة قد أفسدت مواقفي، فإما أن بطلي تراجع أو أني مصنوع من صلصال رديء. مع «جافا» فإن الأمر لن يفرق، أعي بالفعل أن خشونته ماهي إلا مظهر، بمعنى أنها ليست واجهة. ولكنها مصنوعة من أرق أنواع الهلام.

❖ ❖ ❖

الحديث عن عملي ككاتب، قد يكون مجرد لغو. رتابة أيام السجن، جعلتني ألتجئ لحياتي الماضية، على الرغم من أنها حياة تشرد وتقشف وعوز. بعد خروجي من السجن، كتبت لأكسب نقوداً. فكرة أن أكون كاتبا محترفاً تجمد أعضائي. وإذا تفحصت عملي، وتتبعت ما كتبته بصبر، فإنني أدرك الآن، أنه كان محاولة لرد الاعتبار لأشخاص وأشياء ومشاعر تتصف بالفساد والضعة، وأعرف أن تسميتهم بكلمات ، عادة ما تستخدم لكل ماهو نبيل، أمر طفولي إن لم يكن سطحياً. كنت في عجلة من أمري. فاستخدمت أقصر الوسائل. ولم أكن لأفعل ذلك، لو لم تكن هذه الموضوعات وتلك المشاعر التي بداخلي– الخيانة، اللصوصية، الجبن، الخوف – تعني لكم عكس ما أراها عليه. ربما في هذه اللحظة، وفي حمّى الكتابة، أردت أن أمجّد المشاعر والمواقف والموضوعات، التي كان يقدّرها غلام ساحر، أنحني، بشدة، أمام جماله. ولكني اليوم وأنا أقرأ ماكتبته، أجدني وقد نسيت أولئك الغلمان، وكل مابقي منهم هي الخصال التي غنيتها، وما يتوهج في كتبي من لمعان يعادل الفخر والبطولة والجرأة. لا أحاول أن أعتذر عنها هنا، ولا أن أبررها، بل أريد أن يكون لها الحق في حمل شرف الاسم. وقد يكون ذلك مثمراً بالنسبة لي، وبالفعل بدأت أدرك تأثيرها، إن عقلي وقد تعب من تسمية ما يحرك قلبي بألفاظ براقة، وبتنميق مايراه حقيراً، يرفض أي تصنيف. ودون أن يخلط بينها، فإنه يقبلها كلها في عريها المتساوي، ثم يأبى أن يغلفها. وهكذا لم أعد أريد الكتابة، فأنا ميت بالنسبة للحروف. وقد عرفت من صحف الأيام القليلة الماضية، أن العالم خائف، فالناس تتحدث عن الحرب ثانية، ويتصاعد القلق، وبدأت الاستعدادات بالفعل، وحطّ عليّ سلام غريب، واتجهت إلى داخلي. وهناك هيأت لنفسي مكاناً وحشياً بهيجا، أراقب منه غضب الرجال دون أن أخافه.. أتشوق لصوت المدافع، وأبواق الموت، لكي أعزل لنفسي فقاعة من صمت لانهائي، وأُبعد ذاتي عنهم بطبقات متضاعفة سميكة من مغامراتي السابقة ممضوغة مرة ومرة، تنساب فوقي مغزولة، ملفوفة حولي كحرير الشرنقة، وسأعمل على إخفاء عزلتي وفجوري وأعيشهما وحدي، إلا إذا دفعتني رغبة ساذجة في التضحية، أن أخرج منهما.

عزلتي في السجن كانت كاملة، وتبدو لي، وأنا أتحدث عنها الآن، أقل من حقيقتها.

كنت وحيداً. أدع نفسي، في الليل، ليحملها تيار من الهجران والتهتك. كان العالم سيلاً جارفاً، قوىً متسارعة، تتجمع لتحملني إلى البحر، إلى الموت. انتابتني فرحة قاسية لمعرفتي بوحدتي.

وأصبحت أحن إلى صوت. سأحدثكم عنه. أثناء أحلام يقظتي في الزنزانة، وعقلي ينساق وراءها بتكاسل، سمعت فجأة، سجينا في الزنزانة العليا، ينهض، ويبدأ في السير جيئة وذهاباً بخطوات متساوية. كانت أحلام يقظتي جارفة، لكن هذا الصوت – بسبب دقته وإحكامه – ذكّرني بأن هذا الجسد، الذي هو حلم يقظة أيضاً هربت منه أحلامه، في السجن، سجين خطوات واضحة منتظمة مفاجئة. وانتابني الحنين إلى أصدقائي في البؤس، أطفال التعاسة. أحسد الهالة التي تشع منهم، وأستخدمها في غايات أقل طهارة. الموهبة زينة الأشياء، تعطى الأغنية لمن هو أخرس. موهبتي ستكون أغنية الحب التي أكنُّها لمن يقيم عالم السجون ومستعمرات العقاب. لا رغبة في تحويله ليكون جزءاً من حياتكم، أو أني أنظر إليه بتدله أو رثاء: لكني أرى في اللصوص والخونة والقتلة، في الخبثاء والماكرين، جمالاً عميقاً غائراً أنكره عليكم. يبدو لي هؤلاء المجرمون من أمثال سوكلي وبيلورج وويدمان وسيرج، والسادة رجال الشرطة، والمخبرين المهرة، في أبهى زينة، كأنهم يرتدون ملابس الحداد بجرائمهم المحببة، حتى أني أحسد بعضهم للخوف الخرافي الذي يشع منهم، أو للتعذيب الذي وقع عليهم، وأحسدهم كلهم للفجور الذي يحتويهم.

حين ألقي نظرة على الماضي، فلا أرى إلا موكبا من الأعمال الداعية للرثاء، تسردها كتبي وتزينها بصفات أستعيدها بسعادة. كنت ذلك البائس الصغير الذي لم يعرف إلا الجوع والإذلال الجسدي والفقر والخوف والتحقير. ومن مثل هذه المواقف المريرة استللت أسباب المجد. وأقول لنفسي «ذلك ما أنت عليه.. لكني، على الأقل، واع بذلك، وهذا الوعي يدمر الخجل، ويزودني بمشاعر الفخر التي يعرفها القليلون، وأنتم يامن تنظرون إليَّ باحتقار، ألستم نتاج تتابع كوارث مشابهة، لكنكم لاتعون ذلك. وبالتالي لا تملكون ميزة الفخر، أقصد معرفة القوة التي تمكنكم من الصمود في وجه التعاسة – ليست تعاستكم الخاصة– بل تعاسة الجنس البشري.

هل عدة كتب وقصائد بقادرة أن تبرهن لكم أن استخدام هذه التعاسات ضروري لتجميل صورتي؟ لقد كتبت كثيراً حتى تعبت، فمن الصعب أن أُنجز كتابة مايفعله أبطالي بسرعة، بهذا النقص الذي يعتريني.

حين انكمش «جافا» من الخوف، كان مذهولاً. شكرا له، فالخوف شعور نبيل، يعيد للمرء مجد الحركة الطبيعية، بلا أي معنى آخر، سوى الخوف العضوي، ذعر الأحشاء في مواجهة صورة الموت أو الألم. ارتعش «جافا»، ورأيت إسهالاً أصفر يسيل على فخذيه الضخمين، وتفشى الرعب في ملامح وجهه الجميل، وشوهه. كان جنونا من تلك الجاثمة أن تجرؤ على

إزعاج هذه التقاطيع النبيلة، ونسبها المتوافقة الملهمة، التي كانت مصدر المأساة والمسئولة عنها. إن جمال هذه التقاطيع كان باهراً حتى أضحت الجمال ذاته، منذ متى اعتبرت «جافا» سيد جسده ومسؤولا عن خوفه؟ إن المرء يسعد لرؤية خوفه، فكل شيء فيه يصبح علامة عليه: شعره وعضلاته، عيناه وأسنانه، ونعمة الوجه الذي يجمع بين الرجولة والطفولة.

بعد ذلك، أضفى على العار نبلاً، وحمله، في حضوري، كثقل على ظهره، مثل نمر يلتصق بكتفيه، ويجعله أكثر إذعانا مع وقاحة ظاهرة. امتزج سلوكه، منذ ذلك الحين، بذلة رقيقة مبهجة، وارتدت خشونته ورجولته قناعا، كضوء الشمس يمر خلال ورق مظلل. وشعرت وأنا أراقبه في شجاره بأن معركته خاسرة. ربما شعر بأنه الأقل قوة، أو أن الرفيق الآخر قد يلكمه أو يخدش وجهه، فأصبح مسلوباً بالرعب، فضمر حجمه، وأراد أن يروح في النوم ويحلم، أو يعتقله البوليس ويحكم عليه بالموت. كان جبانا، لكني عرفت. أن الخوف والجبن يمكن التعبير عنهما بأكثر التكشيرات سحراً.

قال الآجر متهكما بازدراء: سأطلق سراحك. قبل الإهانة دون أن يرمش له جفن، نهض عن التراب، التقط طاقيته، وغادر والتراب على ركبتيه، كان مازال أنيقاً.

علّمني «مارك أوبرت» أن الحيانة حين تنمو في الجسد الجميل. فإنها تُقرأ بوضوح إذا عرفت علامات الحائن والحيانة، ويمكن تمييزها بالشعر الأشقر والعيون الصافية، والبشرة الذهبية، بالعنق والجذع، بالأذرع والسيقان، وابتسامة مشجعة.

قلت لنفسي: هؤلاء الأبطال وصلوا إلى درجة من الكمال بحيث لم أعد أرغب في رؤيتهم أحياء، حتى تتوج حياتهم بمجد صفيق. فهم إذا حققوا الكمال الذي وضعهم على حافة الموت، فلن يخافوا حكم الرجال. ولاشيء يمكن أن يفسد نجاحهم المدهش، وقد يمنحونني آنذاك ما ينكرونه على بائس مثلي.

عبرت حدودا عديدة، وحيداً دائماً وبمساعدة رفاق طيبين. كانت روحي المعنوية عالية دوما. اخترقت جبال الألب من كل الجهات من سلرفينيا إلى إيطاليا، أولاً بمساعدة رجال الجمارك الذين تخلوا عني بعد ذلك. سرت ضد التيار عبر سيل موحل، حاربتني الرياح والبرد والأشواك ونوفمبر، صعدت قمة كانت وراءها إيطاليا، وحتى أصلها واجهت وحوشا خبأها الليل أو كشفها، كدت أُمسك قرب الأسلاك الشائكة لحصن حيث كان الخفراء يمشون ويتهامسون. كنت رابضا في الظل، وقلبي يدق، آمل قبل أن يطلقوا عليّ الرصاص أن يدللوني

ويحبوني، وأن يكون الليل ممتلئا بحراس مرحين شبقين. غامرت، عشوائياً، بالسير على طريق كان بالمصادفة الطريق الصحيح، أحسست ذلك من وقع باطن قدمي على أرضه الأمينة.

بعد قليل من مكوثي في إيطاليا، غادرتها إلى النمسا، عبرت حقولا من الثلج ليلاً، يؤنسني ظلي الذي يلقيه القمر. سرقت وعرفت السجون في كل بلد تركتها ورائي. لم أكن أعبر أوروبا، بل عالما من الأشياء والظروف، أعبره بحذق أكثر نضارة. كل العجائب التي رأيتها جعلتني قلقا، لكني تماسكت حتى أخترق – دون أن أضر نفسي – سرها المألوف.

أدركت بسرعة، صعوبة السرقة في دول وسط أوروبا دون أن أعرض نفسي للخطر ؛ لأن النظام البوليسي كان شديداً. ويمنعني من الهروب بسرعة، قلة وسائل المواصلات، وصعوبة عبور الحدود التي كانت محروسة بنظام ممتاز، ثم لكوني فرنسيا كنت مدعاة لشك أكثر، بالإضافة أنني لاحظت أن قلة من الفرنسيين لصوص أو شحاذون في البلاد الأجنبية. فقررت العودة إلى فرنسا، وهناك أتابع قدر اللصوصية قاصراً جهدي على باريس وحدها، مع أن فكرة مواصلة الترحال، وارتكاب سرقات أكثر أو أقل أهمية، كانت مغرية أيضاً. اخترت العودة إلى فرنسا لاهتمامي بالعمق، فأنا أعرف البلد تماماً، وأستطيع أن أكرس كل اهتمامي وانتباهي إلى السرقة، وأتعامل معها كحرفة فريدة أكون فارسها الماهر المخلص لها. كنت في الرابعة أو الخامسة والعشرين آنذاك، ومن أجل البحث عن مغامرة أخلاقية ضحيت بالتشتت والزينة معاً. لقد تكشفت لي أسباب خياري هذا، اليوم فقط، ربما لأني أكتب عنه، حيث لم يكن واضحاً لي تماماً.

اعتقدت أنه يجب أن أجول وأعمل من خلال لغة يكون ذهني فيها على راحته. أريد أن أفهم نفسي بلغتي الخاصة. ربما أردت أن أدين نفسي بلغتي. لايمكن أن تقدم لي ألبانيا أو المجر أو هولندا، حتى الهند والبرازيل مادة أغنى مما تقدمه لي فرنسا. فحقيقة اللصوصية، وما يتصل بها من السجن والأحكام والعار من المهنة، تزهّد المرء فيها، وإن كان لابد فهي نشاط يتحقق فقط بمساعدة اللغة، لغتي الخاصة، ولابد أن تواجه بقوانين نابعة من هذه اللغة ذاتها. مهما فعلت في بلد أجنبي، فسأكون مجرد لصّ ذكي، أما في بلدي فسأكون رجلاً فرنسيا، حالة لاتسمح لأي أجنبي أن يكونها. أن أكون لصاً في بلدي، اعتاد أن يستخدم لغة المسروقين – الذين هم نفسي – يعطيني فرصة بأن أكون فريداً.

ربما يرجع نظام البوليس القمعي الكامل في دول أوروبا الوسطى، إلى القلق الذي سببته الاضطرابات السياسية آنذاك. وبسبب شبكة المخبرين الكبيرة، فإن الجريمة (السرقة) تعرف قبل أن تُرتكب، لكن شرطتهم لا تمتلك كياسة وبراعة الشرطة الفرنسية.

وهكذا، دخلت يوغسلافيا من ألبانيا، بصحبة «أنطون» وهو نمساوي، وأبرزت لضباط الجوازات، جواز سفري الذي كان عبارة عن شهادة خدمة عسكرية فرنسية، أضفت إليه أربع

ورقات من جواز سفر أنطون النمساوي، تحتوي على تأشيرة من القنصيلة الصربية. قدمت هذه الوثيقة الغريبة عدة مرات لرجال الشرطة، في الشارع في المطاعم في الفنادق، وبدت لهم طبيعية، أقنعتهم التأشيرات والأختام. وحين اعتقلت بسبب إطلاق النار على أنطون، تفحصها رجال الشرطة اليوغسلاف ثم أعادوها لي.

هل أحب فرنسا؟ كنت مبهوراً آنذاك بجمالها. طلب الملحق العسكري الفرنسي في بلغراد من الشرطة أن تسلمني كمجرم فار، وهو مايخالف القانون الدولي، لكن الشرطة لجأت إلى حل وسط، أن أرحّل إلى حدود أقرب دولة إلى فرنسا: إيطاليا. ومضيت عبر يوغسلافيا من سجن إلى سجن، وهناك قابلت مجرمين يتصفون بالعنف والكآبة والأناقة، ويقسمون الأيمان بلغة همجية، يبدو فيها القسم أجمل شيء في العالم. يحطّون من الدين، ويكثرون من لفظ الأعضاء الجنسية، ثم بعد عدة دقائق ينفجرون في الضحك، فتبدو أسنانهم القوية الجميلة.

كان ملك يوغسلافيا، في ذلك الوقت، غلاماً جميلاً في الثانية عشرة أو الخامسة عشرة، وشعره مفروقا على جنب: «بيتر الثاني»، كانت صورته تزّين طوابع البريد، ومعلقة في كل أقسام البوليس ومكاتب السجون. تصاعد غضب اللصوص والداعرين تجاه هذا الطفل، كانوا يحتجون عليه، والإهانات البذيئة التي كانوا يلقبونه بها، تشبه خناقات الشوارع بين عشاق قساة، كان الحاقدون يدعونه بالعاهر.

حين وصلت سجن «سوساك» على الحدود الإيطالية، كنت قد دخلت عشرة سجون أخرى، قضيت في كل منها عدة ليال، وضعت في زنزانة فيها عشرون سجينا، وقعت عيني، على الفور، على شاب اسمه «ريد. بيرتش»، كان كرواتيا يقضي عقوبة لمدة سنتين بسبب السرقة. ولكي يستفيد من البالطو الذي أحمله تركني أنام بجانبه على السرير السفري الضيق. كان أسمر اللون فتيا، يرتدي «أفرول» ميكانيكي أزرق باهت له جيب واسعة في وسطه يضع فيها يديه. أمضيت ليلتين في ذلك السجن، وكانتا فترة كافية لأستمتع به بشكل جيد.

كان يفصل السجن، عن الطريق السريع، خندق تحت نافذة زنزانتنا وليس حائط كما هي العادة، تركتني الشرطة ورجال الجمارك أعبر الحدود الإيطالية، عند ذلك الطريق الجبلي، في ليلة باردة. اتجهت إلى «تريستي». أثناء وجودي في القنصلية الفرنسية في يوغسلافيا، سرقت بالطو، وقد بعته واشتريت بالنقود حبلاً بطول ثلاثين قدماً، ومنشاراً ورجعت إلى يوغسلافيا. ركبت سيارة إلى «سوسال» فوصلتها ليلاً، صفّرت من الطريق، فظهر «ريد» في النافذة، فرميت له العدة بسهولة شديدة. عدت، في الليلة الثانية، لكنه رفض محاولة الهرب على الرغم من أنها عملية سهلة. انتظرت حتى الفجر على أمل إقناعه، وأخيراً، أخذت الطريق الجبلي ثانية وأنا أرتعش من البرد، حزينا أن هذا الزميل القوي الفتي فضّل يقين السجن على حلاوة المغامرة. عبرت الحدود الإيطالية إلى «تريستي» فالبندقية ثم بالرمو، وهناك قبض عليّ ووضعت في السجن. حين دخلت

الزنزانة، سألني السجناء: كيف حال الأميرة، أجبت بأني لا أعرف.

أثناء السير الصباحي في فناء السجن، سُئلت السؤال ذاته، ولم أكن أعرف شيئاً عن صحة أميرة «بدمونت» التي يخصها السؤال، وعلمت، أخيراً، أنها كانت حاملاً، وإن العفو الذي يمنح للسجناء في مناسبة كهذه يعتمد على نوع المولود. كانت مشاغل ضيوف السجون الإيطالية هي ذاتها مشاغل الحاشية الملكية.

خرجت من السجن برفقة الشرطة إلى الحدود النمساوية، عبرتها قرب «فيلاش» لقد فعل «ريد» الصواب برفضه الهرب، فخلال رحلاتي عبر دول أوروبا الوسطى، كانت ترافقني صورة تشبه صورته، حضور لاينام أو يسير بجانبي فقط، ولكن يساعدني في اتخاذ قرارات تستحق صورته الجسورة التي خلقتها. إن الرجل بصحبة وجه جميل وجسد فتي، يجد الفرصة ليثبت شجاعته.

ليس بسرد الوقائع والأحداث، ولا بالعمل على تشابكها وتداخلها – دون أن أعرف مايحددها في الزمان والمكان – ولابتفسيرها الذي يدمرها ويخلق أشياء جديدة، يمكنني أن أكتشف المفتاح – مفتاح شخصيتي الخاصة.

شرعت بعزم في سرد القليل منها بشكل غامض وغريب، معتزما أن أحذف الوقائع الأولى التى تكوّن نسيج حياتي الواضح، وتشكل العقد في الخيوط المتوهجة. فإذا كانت فرنسا إحساسا ينتقل من فنان إلى آخر – عبر فريق من خلية عصبية على حد القول – فأنا في النهاية القصوى لخيط مسبحة أوله بعيد المنال عن متناول يدي. وكلاليب سنارات القوارب التي أمسكت بالجسد الغارق لتجذبه خارج المجرى، جعلتني أقاسي داخل جسد طفولتي. هل يمكن للناس أن يبحثوا – حقيقة – عن الجثث الغارقة، بالرماح الخاصة بصيد الحتيان؟ طفت في الريف، مبتهجا أن أكتشف في القمح أو تحت شجر التنوب، أجساد رجال غرقى، أقمت لهم أكثر المراسم الجنائزية دهشة. هل يمكنني القول إن ذلك هو الماضي أم إنه كان المستقبل؟ كل شيء قد توقف حتى موعد مماتي في جليد الوجود: رعدتي حين يطلب مني أحدهم، في المهنة القاسية، أن أتعامل معه، في ليلة الكارنفال، عند الشفق، فأكتشف أن رعدته هي رغبته. المشهد من فوق تل رملي لمحاربين عرب يستسلمون لجنرالات فرنسيين. ظهر يدي على سلة جندي والطريقة الماكرة التي نظر إليها، وفجأة رأيت المحيط من فجوة بين منزلين في «بيارتز»، وأنا أهرب من الإصلاحية، كنت أسير بخطوات قصيرة، خائفا، لا من فكرة القبض عليّ، ولكن من أن أصبح ضحية للحرية، «أفرشخ» فخذيّ لعضو كبير لأحد أفراد فرقة عسكرية، يحملني مسافة ثلاثين ياردة بطول الاستحكامات، ليس لاعب الكرة الأنيق، ولاقدمه، ولا حذاءه، لكني الكرة، وأصبح «المرفوس» لحظة، ثم أتوقف عن ذلك، لأصبح الفكرة التي تتردد بين القدم والكرة. اللصوص المجهولون في الزنزانة يدعونني «چان»، حين كنت أسير، في الليل، حافي القدمين، إلا من صندل، عبر حقول الثلج على حدود النمسا، لم أكن أتراجع أو أخاف. وكنت أقول لنفسي، آنذاك، لابد أن

تهزم هذه اللحظة المؤلمة بجمال حياتي، وأرفض أن تكون اللحظة وكل اللحظات الأخرى، مادة مهدرة، بل أستخدم المعاناة الناشئة عنها، لأعرض نفسي على فضاء العقل. بعض الزنوج قدموا لي الطعام على أرصفة الميناء في «بوردو»، شاعر مرمرق رفع يدّي لتلمس جبهته، قتل جندي ألماني في الثلوج الروسية، ويكتب أخوه ليعلمني بذلك، وغلام في «تولوز» يساعدني على تفتيش وسلب غرف الضباط وضباط الشرف في كتيبتي في «بريست»، إنه يموت في السجن، أتحدث عن إنسان – وقت شم الورود، في إحدى الأمسيات، والعصابة المتجهة إلى مستعمرة العقاب تغني، وإن تقع في حب بهلوان يلبس قفازا أبيض، أتحدث عن شخص ميت منذ بدء الزمن، بمعنى أني جامد لأني أرفض أن أعيش لأي غاية أخرى إلا تلك التي وجدتها تحتوي على سوء الحظ الأول: يجب أن تكون حياتي أسطورة، بكلمات أخرى: مقروءة، وقراءتها تعطي ميلادا لعواطف جديدة معينة أسميها: الشعر، وما أنا إلا ذريعة لذلك.

❖❖❖

وهو يتحرك ببطء، كان «ستيلتانو» يعرض نفسه للحب، كما يعرض المرء نفسه للشمس، يقدم للأشعة كل أسطحه، حين قابلته في «أنتيرب» كان وزنه قد ازداد، لم يصبح بدينا، لكن زواياه امتلأت بشكل ما، وجدت في مشيته الليونة المتوحشة ذاتها، أكثر قوة وأقل سرعة، عضلات أضخم والعصبية عينها. رأيته في أقذر شارع في «أنتيرب»، وبدا لي ظهره تحت السماء الرمادية، مخططا بالضوء المتغيّر ومصاريع النوافذ. وكانت المرأة التي تسير معه بملابس من الساتان، تليق به.

دُهش لرؤيتي، وبدا لي أني سعدت بلقائه.

قال: چان.. أنت في أنتيرب.؟

قلت: كيف تسير الأمور؟

صافحته، وقدمني إلى سيلڤيا، لم أكد أتعرف عليه من المفاجأة، لكن حين فتح فمه لينطق، كانت هناك ثانية، فقاعة اللعاب والمخاط الغريب الذي يجعلها ثابتة، ومن أسنانه عرفت ستيلتانو القديم. ودون ذكر أي اسم أو شيء، قلت: لقد احتفظت بها.!

– هل لاحظت ذلك؟

– طبعا. أنت فخور بها.

سألت سيلڤيا: عما تتحدثان؟

قال لها ستيلنانو: نحن نتحدث... اهتمي بشؤونك.

هذا التواطؤ البريّ أقام علاقة سريعة بيننا، وهبط عليه كل سحره السابق: قوة كتفيه، حركة فخذيه، اليد التي تمزقت بفعل حيوان آخر مفترس في غابة، ثم عضوه المدفون في ظلام خطر محتميا من الروائح المميتة، الذي أنكرني طويلاً. كنت تحت رحمته. ودون أن أعرف شيئاً عن نشاطاته، كنت واثقاً بأنه يسيطر على رواد المواخير والأرصفة والبارات، إن لم يكن على المدينة كلها. قمة الأناقة، أن تحقق الانسجام بذوق سقيم. كان قد اختار، بجسارة، حذاءً من جلد التمساح باللونين الأخضر والأصفر، وبدلة بنية، وقميصاً حريرياً أبيض، وربطة عنق وردية، وكوفية متعددة الألوان، وبرنيطة خضراء، وكانت كلها مترابطة بدبابيس وسلاسل ذهبية، وحلقات وأزرار. كان أنيقاً. وكنت أقف أمامه، الشخص البائس نفسه، كما في الماضي، ولم يزعجه ذلك.

قلت: لي هنا ثلاثة أيام.

قال: وكيف تعيش؟

قلت: كالعادة.

ابتسم، قلت: هل تذكر؟

قال لفتاته: أترين هذا الغلام. إنه صديق. بل أكثر من صديق.

يستطيع أن يأتي إلى غرفتنا متى يريد..

أخذاني للغداء في مطعم قرب الميناء، وأخبرني أنه يتاجر في الأفيون، وأن فتاته عاهرة. وحلق خيالي بعيداً لسماعي كلمات مثل أفيون ومدمن وما إليها، وبدا لي ستيلتانو مغامراً جسوراً غنياً. إنه طائر يصطاد فرائسه في دوائر واسعة، ومع أن نظرته تبدو أحياناً قاسية، فلم تكن لديه شراهة الطيور الغامضة، بل على العكس، فعلى الرغم من سطوته، فإنه مازال يبدو وكأنه يلعب. لم أستغرق وقتاً لأعرف أن مظهره هو الناجح فقط. كان يعيش في فندق صغير، وأول ما رأيته هناك، كومة كبيرة من مجلات الأطفال الملونة على حافة المدفأة، كان النص المصاحب للصور الآن بالفرنسية وليس بالإسبانية، الطفولية ذاتها، البطل الأنيق القوي الشجاع العاري دائماً تقريباً، تشتري له سيلفيا، كل صباح، مجلات جديدة يقرأها وهو مستلق في السرير. سنتان كرّتا وهو يقرأ قصصا مبهرجة للأطفال، في الوقت الذي كان جسمه ينضج، وعقله أيضاً. يبيع الأفيون الذي يشتريه من البحارة، ويصرفه على فتاته، يحمل ثروته معه: ملابسه، مجوهراته ومحفظته. اقترح أن أعمل معه، وحملت، لعدة أيام، عبوات صغيرة إلى منازل مريبة وزبائن يعتريهم القلق.

وكما كان الأمر في إسبانيا، وبالسرعة ذاتها، اندمج «ستيلتانو» مع متشردي «أنتيرب»، كان يدعى في البارات إلى المشروبات، ويداعب العاهرات والشواذ. تركت نفسي أحبه، منبهراً بجماله الجديد، بثروته، وبرضائي عن ذكرى صداقتنا، تبعته في كل مكان يذهب إليه، وكنت أغار من أصدقائه، وأغار من سيلفيا، وأعاني كثيراً حين أقابله عند الظهر تقريباً، منتعشا ومعطراً، والدوائر السوداء تحت عينيه. نتجول على الأرصفة معاً، ونتحدث عن الأيام السابقة. كان يتحدث عن مباذله خاصة، فقد كان فشاراً، ولم يحدث أن لمته على خيانته أو جبنه أو مكره بل على العكس، أُعجبت به.

سألني: أما زلت تحب الرجال؟

قلت: هل هذا يضايقك؟

أجاب بابتسامة ممتعة ساخرة: أنا؟ أنت مجنون.. على العكس.

– لماذا على العكس؟

تردد، لم يجب سوى بلفظة: هه..

قلت: على العكس! هل تحبهم أيضاً؟

– أنا؟

– نعم أنت..

– لا. لكني أتساءل أحياناً.. كيف يكون الأمر.

– أيثيرك ذلك؟

– إطلاقاً.. أقول إنه..

وضحك في ارتباك.

قلت: ماذا عن سيلفيا؟

– إنها خبزي وزبدي..

– أذلك كل شيء؟

– نعم .. وذلك يكفي.

إذا أراد أن يزيد سطوته عليّ بإعطائي أملاً مجنوناً، فسيجعلني عبدا له. وشعرت بالفعل، أني

أتخبط في موقف حزين عميق، ماذا تحمل لي هباته الفجائية في مخازنها؟

قلت له: لديّ نقطة ضعف نحوك كما تعلم.. وأحب أن أمارس الجنس معك.. أجاب مبتسما، دون أن ينظر نحوي: سننظر في الأمر.

وأضاف بعد صمت قصير: ماذا تحب أن تفعل؟

قلت: معك أنت.. كل شيء.

قال: سنرى.

ولم يتزحزح أو يقم بحركة تحمله نحوي، مع أن كياني كله يريد أن يذوب فيه، وأردت أن أُعطي جسدي ليونة أغصان الصفصاف حتى يلتف ويتلّوى وينثني حوله كله. كانت المدينة مثيرة للسخط، وأهاجتني رائحة الميناء وضجته، واحتك بنا البحارة الفلمنك، كان ستيلتانو، صاحب العاهة، أقوى منهم، ولأن طيشه كان لذيذاً، فقد احتفظ بجيبه بقليل من الأفيون، مما جعله ثميناً، ومعرضا للخطر.

لكي أصل إلى «أنتيرب»، عبرت ألمانيا النازية ومكثت هناك عدة أشهر، سرت مشياً من «بريسلاو» إلى «برلين»، أحببت أن أسرق، وقوة غريبة منعتني. ألمانيا ترعب أوروبا كلها، أصبحت رمز القسوة بالنسبة لي، كانت بالفعل خارج القانون. وانتابني شعور أني أتجول في معسكر نظمته العصابات. واعتقدت أن عقل البرجوازية شديد التدقيق يخفي كنوزاً من الرياء والكراهية والخسة والقسوة والشهوة. كنت منفعلاً أن أكون حراً وسط أناس جميعهم مدانون. لقد سرقت هناك كما في أي مكان آخر، لكني شعرت بارتباك معين، لأن ماحكم هذا النشاط وما نتج عنه، مارسته أمة كاملة تجاه الآخرين.

قلت لنفسي «إنها أمة من اللصوص، فإذا سرقت هنا، فأنا لا أحقق عملاً متمرداً متفرداً يجعلني أتحقق، فأنا أتبع النظام العادي ولا أدمره، لا أرتكب شراً ولا أزعج أحداً. الفعل الفاحش مستحيل، فأنا أسرق في فراغ.

أشعر بقلق معين بعد السرقة، بدا لي أن الآلهة التي تحكم القوانين ليست ثائرة بل مندهشة فقط. كنت خجلاً. ورغبت بشدة أن أذهب إلى بلد تحترم القوانين والأخلاق العادية، القوانين التي قامت عليها الحياة. واخترت، في برلين، أن أمارس الدعارة لكسب قوتي، أقنعني ذلك لعدة أيام ثم تعبت.

وقدمت لي «أنتيرب» كنوزاً أسطورية، المتاحف الفلمنكية، تجار الجواهر اليهود، أصحاب الدكاكين المتجولين في الليل بتلكؤ، المسافرين على عابرات المحيط. منتعشا بحبي، أردت أن أخوض مغامرات خطرة مع ستيلتانو، وبدا أنه يود المشاركة في اللعبة وأن يدهشني بجرأته.

وصل ذات مساء إلى الفندق، على دراجة نارية من دراجات البوليس يقودها بيد واحدة. قال بابتسامة دون أن يتفضل بالنزول عن الدراجة:

– لقد سرقتها لتوي من شرطي.

وكان يدرك أن إشارته لي بأن أركب ستصيبني بالجنون، نزل عن المقعد وتظاهر بأنه يفحص الموتور، ثم ركب ثانية وأنا وراءه.

قال: سنتخلص منها حالاً.

– أنت مجنون.. يمكن أن نفعل بها... أشياء كثيرة.

منتعشا بالريح والركوب، تخيلت أني أشارك بجسارة في مطاردة خطرة، بعد ساعة، كانت الدراجة قد بيعت إلى بحار يوناني وضعها، على الفور، على ظهر مركب. ورأيت «ستيلتانو» وسط خوف أصيل حقيقي عند بيع الدراجة، النقاش حول السعر والاتفاق عليه، كان قطعة رائعة من البراعة بعد مشهد القوة في سرقتها. (حين أخبرني «بيير ڤيڤر» وهو شرطي تحت الاختبار في الحادية والعشرين وابن لضابط في سلاح الفرسان، بأنه أراد أن يصبح شرطياً ليحصل على دراجة نارية، حدث لي انتصاب، وتخيلت فخذي ستيلتانو على المقعد الجلدي للدراجة المسروقة.)

لم يكن ستيلتانو هاويا أكثر مني، على الرغم من أنه رجل عصابات حقيقي، أو يحاول أن يكون، بمعنى أنه يبتدع مواقف رجل العصابات. لا أعرف «بلطجية» لايبدون كالأطفال، وإلا قل لي ما الجدية في أن يمر المرء أمام محل مجوهرات أو أحد البنوك ثم خلال دقيقة يحدث عدوانا أو سرقة؟ أو أين تجد نقابة مؤسسة– ليس للاهتمام بأعضائها– على تواطؤ بالمساعدة المشتركة بين زملاء ليسوا أصدقاء، إلا في أحلام اليقظة؟ لعبة مجانية، مثل قصة في كتاب حكايات، كان ستيلتانو يلعب. يحب أن يعرف عنه أنه خارج على القانون، يحب الشعور بأنه في خطر، وكأن حاجة جمالية وضعته هناك، كان يحاول تقمص صورة بطل مثالي، ستيلتانو الذي حفرت صورته في سماء المجد. وبهذه الطريقة أطاع القوانين التي تحكم رجال العصابات، وأعطاها شكلها، فبدونها، كان سيصبح صفرا. اعتقدت في البداية محميا بعزلته المبجلة وهدوئه وسكينته، إنه يبدع ذاته بشكل فوضوي، مسترشداً بوقاحته الخالصة وعصبية إشاراته. لكنه كان، في الحقيقة، يبحث عن نموذج، ربما ذلك الذي تقدمه المجلات الفكاهية عن البطل المنتصر.

كانت أحلام يقظته المعتدلة، في توافق تام مع عضلاته وذوقه في العمل. وربما أضحى بطل الرسوم الفكاهية، محفوراً أخيراً في قلبه. مازلت أحترمه، فهو قد لاحظ ظواهر أمور النظام الذي يقود إليها، في داخل نفسه، ودون شاهد، أذعن لقيود جسده وعقله. ولم يكن لطيفا قط مع فتاته.

ودون أن نصبح أصدقاء جسد، فقد اعتدنا أن نتقابل يوميا. أتناول الغداء في غرفته، وحين تذهب سيلفيا للعمل في المساء، نخرج لنتعشى معاً، ثم ندور على البارات كي نصبح سكارى. ويرقص طوال الليل تقريباً، مع فتيات باهرات الجمال. ما إن نصل إلى أحد البارات حتى يتغير الجو، أولاً على مائدته ثم ينتقل بالتدريج إلى الآخرين. يصبح الجو ضاغطا ومجنونا، ويدخل في عراك كل ليلة تقريبا. كان متوحشاً وعظيما. يده الوحيدة كانت مسلحة بموس كبّاس يفتحه في جيبه. كان التجار من البحارة وحمالو الميناء والقوادون، يحيطوننا بشكل دائرة، أو يشاركوننا الصراع. أرهقتني تلك الحياة، فأنا أحب أن أتجول على الأرصفة في الضباب أو المطر. ذاكرتي عن هذه الليالي تأتيني على شكل ومضات تضرب مخيلتي. كتب صحفي في مناقشته أحد الأفلام «الحب يزدهر وسط الشجار»، هذه الجملة العبثية ذكرتني بالزهور التي تسمى «فم السمكة» التي تزهر وسط الأشواك الصلبة، وبالتالي وسط رقتي المخملية التي جرحها ستيلتانو.

ولأنه لم يحدد لي عملاً ما، فقد كنت أسرق الدراجات وأبيعها في «مايسترفت» في هولندا. حين علم أني أعرف كيف أعبر الحدود، صحبني ذات يوم وذهبنا إلى «أمستردام»، لم تثر المدينة اهتمامه، طلب مني أن أنتظره في مقهى عدة ساعات، ثم اختفى. عرفت أن لافائدة من مناقشته، فعملي يهمه، أما عمله فليس من اختصاصي. عدنا في المساء، أعطاني، في محطة السكة الحديدية، لفة صغيرة، مربوطة ومختومة، في حجم القضيب.

قال: سأرجع بالقطار وأنت تعبر الحدود.

– وماذا عن حرس الحدود؟

– لا تقلق. فأنا أشتغل في السليم.. تعبر الحدود كعادتك على الأقدام.. ولا تفتح اللفة.. فهي لصديق لي.

– وماذا لو قبضوا عليّ؟

– لا تستعبط.. ستكون عاقبتك وخيمة.

كان ذكيا في استغلال المفاتن المتضاربة التي أتذبذب وسطها دون أن أصل إلى توافق مع نفسي، قبلني قبلة لطيفة، وركب القطار. راقبت هذا العقل الهادئ، هذا الحارس للوائح القانون، يسير أمامي، تكمن سلطته في ثقة خطوته، في لامبالاته، في حركة ردفيه المتألقة.

لم أعرف ماذا تحتوي اللفافة، إنها إشارة الثقة والمخاطرة. شكراً لها، فأنا لا أعبر الحدود الآن من أجل حاجاتي الطفيفة، ولكن من أجل الطاعة والإذعان لقوىً مطلقة. حين ابتعدت عيناي عنه، أصبح شغلي الشاغل والوحيد أن أبحث عنه، وكانت اللفافة هي التي تقودني. خلال رحلاتي – سرقاتي واكتشافاتي ومعاركي – كانت الأشياء وكأن الحياة نفخت فيها، وحين أفكر بالليل، أفكر به كحرف لام كبيرة، الأحجار والحصى على طرقاته لها معنى، من خلاله سأجعل نفسي معروفة. فتدهش الأشجار لرؤيتي، خوفي يحمل اسم الذعر، يحرر روح كل شيء، منتظراً رعدتي كي يثار. ويرتجف العالم الميت حولي بخفة، وكان بإمكاني الثرثرة حتى مع المطر ذاته. وبدأت بسرعة، أبذل جهدا لاعتبار هذه العاطفة شيئاً خاصا تماماً، أفضله على من كان ذريعة له: الخوف، وحجة هذا الخوف السرقة أو الهروب من الشرطة. وإذا كان الليل قد حباني، فإن القلق ذاته يجيء طويلاً ليزعج نهاري، وهكذا تحركت في عالم غامض، فقد المعنى بأن يكون عمليا. كنت في خطر. ولم أعد أنظر إلى الأشياء من وجهة نظر هدفها المعتاد، بل من وجهة نظر القلق الذي تقدمه لي. قلق صديق لأن سببه ستيلتانو، كانت لفافته بين صدري وقميصي إشارة الخطر، تجعل من كل شيء لغزا، وتحل هذا اللغز في الوقت ذاته– شكراً للابتسامة، ترتسم على شفتي وتكشف أسناني، تساعدني على المغامرة، لأعبر الطريق بحرية. هل ما أحمله مجوهرات مسروقة؟ كم من المشكلات قد تسببها هذه اللفافة، مع الشرطة وكلابها الضارية وبرقياتها السرية؟ لابد أن أدمر كل قوات العدو، فستيلتانو في انتظاري. قلت لنفسي «إنه ابن عاهرة جميل. ينأى بنفسه عن المخاطرة، لأنه يملك يدا واحدة، لكن ذلك ليس بعذر.

حين وصلت «أنتيرب»، مضيت على الفور إلى فندقه، لم أحلق أو أغتسل، لأني أردت أن أظهر بعلامات نصري، بلحيتي وقذارتي، بذراعين أرهقهما التعب، أليس ذلك ما يرمز له تغطية المنتصر بإكاليل الزهور وسلاسل الذهب؟ لكني حملت نصري عاريا. وفي غرفته وأمامه تظاهرت وأنا أناوله اللفافة كأن الأمر طبيعي: هاهي.

ابتسم ابتسامة ظافرة. أعتقد أنه لم يكن واعياً أن سطوته عليّ هي التي دبرت كل شيء.

– هل قابلتك أية عقبات؟

– إطلاقاً. كان الأمر سهلاً.

ابتسم ثانية وأضاف: ذلك جميل.

لم أجرؤ أن أخبره بأنه كان بإمكانه القيام بالرحلة دون أدني خطر، لأني أدركت أن «ستيلتانو» من صنعي، وهدم هذه الصورة يعتمد عليّ. وفهمت، آنذاك، لماذا يحتاج الله إلى ملائكة يسميهم رسلاً كي يقوموا ببعثات خاصة هو ذاته غير قادر على القيام بها.

سألته: ماذا بها؟

أجاب: مخدرات طبعاً.

اذن، لقد هرّبت مخدرات، لم أحتقره لأنه عرضني لخطر القبض عليّ بدلاً منه، وقلت لنفسي: أمر طبيعي، فهو المفتاح وأنا الحلقة. (في سنة ١٩٤٧، قرأت في صحيفة مسائية إنه قد أعتقل بسبب هجوم مسلح في الظلام. يقول المقال «كان المعاق الجميل شاحباً» حين قرأت ذلك، لم أتاثر).

زاد امتناني له، لأنه كشف لي نفسه بهذه الطريقة. لو كشف لي نفسه بعدد من الأفعال الجريئة التي لم يشركني فيها، لأصبحنا كلانا سببا ونتيجة، ولفقد ستيلتانو سيطرته عليّ. كنت أشك، بشكل غامض، أنه يستطيع القيام بعمل يورطه، العناية التي كان يوليها لجسده هي الدليل. عدد مرات استحمامه، عطوره، نومه طوال فترة الصباح، الشكل الخاص الذي اتخذه جسمه، نعومته. وحين أدركت أنه لابد أن يعمل من خلالي، التصقت به، واثقاً بأني أستمد قوة من قواه الأولية المشوشة التي شكلته. في هذا الوقت من السنة (الخريف)، وبسبب المطر، واللون القاتم للمباني، وتبلد البحارة، وشخصية المدينة الخاصة الملونة بالحزن، وأيضاً بسبب ضيقي بفقري، قادتني كآبة شديدة، لأكتشف بداخلي، الأشياء التي أشعر بالقلق في حضورها. خلال الاحتلال الألماني، رأيت في شريط الأنباء، تغطية لمئة أو مئة وخمسين جنازة لضحايا قذف «أنتيرب» بالقنابل. النعوش مغطاة بزهور التيوليب والدهلية، معروضة وسط أنقاض المدينة، وحولها يتجمع جمهرة من القساوسة، وأولاد الكورس في أرديتهم المزينة، يطلبون الرحمة للموتى.

هذا المشهد، الذي كان الأخير، يجعلني أعتقد حتى الآن، أن «أنتيرب» كشفت لي مساحات من الظلال. فكرت «إنهم يحتفلون بطقس هذه المدينة، روحها التي جمعتها قدر استطاعتي ذلك الوقت – روح الموت». إن مظهر الأشياء، في حد ذاته، يسبب لي القلق، القلق الذي تولد أولاً من الخوف. ولقد اختفى القلق.. وشعرت أني أُدرك الأشياء بصفاء أعمى. حتى أتفه هذه الأشياء فقد معناه العادي، ووصلت إلى درجة أتساءل فيها إذا كنت، فعلاً، أشرب من كوب أو ألبس حذاء. وحين اكتشفت المعنى الخاص لكل شيء، بارحتني فكرة الجماعة. ورويداً رويداً فقد «ستيلتانو» سطوته الخرافية عليّ. لقد ظنّ أني حالم، بينما كنت واعياً بشدة لكن أثناء حديثي، كنت في مكان آخر. ونتيجة للعلاقة المفترضة بين الأشياء المتصارعة كما تبدو، فقد اتخذ حديثي اتجاها مرحا.

قال: بالتأكيد أنت جننت.

رددت كلمة «جُننت» وأنا أفتح عيني على سعتيهما. أذكر وقد امتلكت هذا الكشف عن إدراك مطلق كما اعتبرته، في حالة هذا الانفصال الثري الذي أتكلم عنه، أني قد تركت دبوس

ملابس في قميصي، لم أنتبه له، غرابة وطرافة هذا الشيء الصغير، ظهرتا أمامي دون دهشة، ولاحظت الأحداث في سلوكها الذاتي. ويستطيع القارئ أن يتخيل خطر مثل هذا الموقف في الحياة التي أعيشها، حيث لابد أن أكون واعيا تماماً في كل لحظة، وإلا فهناك خطر القبض عليّ أية دقيقة لو تغاضيت ثانية واحدة عن المعنى العادي للأشياء.

أصبحت ألبس بأناقة، بمساعدة «ستيلتانو» ونصائحه. أناقة خاصة بي، مترفعا عن الموضات الصارخة للرعاع، متبعا تخيلا معينا لملابسي. وهكذا في اللحظة التي توقفت فيها أن أكون شحاذا، زال عنه العار في العالم الفعلي، فإن هذا العالم تهرّب مني. ميزت جوهر الأشياء وليس صفاتها. باختصار، إن مزاجي خلصني من الكائنات التي ربطت نفسي بها بحميمية. شعرت بالضياع وبأني تافه تماماً.

قواد صغير في بار، مُقْعٍ على فخذيه، يلعب بدمية، بدا لي هذا اللعب غريبا في هذا المكان حتى أني ابتسمت بسرور للقواد ودميته، لقد فهمتهما. وأيضاً، الباص الممتلئ بالناس الجادين المستعجلين، ويتوقف عند إشارة صغيرة من أصابع طفل، شعرة خشنة تبرز مهددة من أنف «ستيلتانو»، أتناول مقصا، دون أن أرتعش، لأقصها.

بعد ذلك، حين أثارني غلام جميل، استخدمت الطريقة ذاتها في الفصل بين الأمور، عندما سمحت لنفسي أن تثار، وعندما رفضت أن أعطي العاطفة الحق في أن تتحكم بي، وتفحصت كلا الأمرين بالوضوح ذاته، وعيت ما الذي يعنيه حبي، وعلى أساس هذا الوعي أقمت علاقاتي مع العالم، وكان هذا مولد الذكاء.

وخاب أمل «ستيلتانو»، فلم أعد أخدمه. وإذا ضربني أو زجرني فقد علمني معنى الإهانات والصفعات. ولم تعد «أنتيرب» في نظري الشخصية الحزينة بشعرها البحري القذر، لقد انجلى بصري ومن الممكن أن يحدث لي أي شيء، حتى ارتكاب جريمة، واستمرت هذه المرحلة ستة أشهر، كنت خلالها عفيفا.

كان «أرماند» في رحلة خارج بلچيكا، وعلى الرغم من أني سمعت أنه كان يدعى بأسماء مختلفة، إلا أني سأحتفظ بهذا الاسم، ألم أستخدم أنا بدوري خمسة أو ستة عشر اسما بما فيها چان جاليان.. الاسم الذي أستخدمه حالياً؟ كان عائداً من فرنسا حيث كان يهرب الأفيون كما علمت. وجهٌ لا أحتاج إلا إلى ثوان يظهر فيها أمامي حتى أعبر عن حالته المزاجية بكلمة واحدة. إذا تباطأ بدلاً من الإسراع فهو يوحي بالشفافية أو الصراحة، أما إذا انثنت الشفة،

أو علته ابتسامة أو حملقة فإن التفسير يتعقد، وتتداخل العلامات ويصبح الوجه مستغلقا غير مقروء. أبذل جهدا لأرى الصلابة في وجه «ستيلتانو»، فعلامتها إشارة سخرية عند ركن العين أو زاوية الفم، لست أدري أيهما. كان وجه «أرماند» زائفاً، ماكرا، خبيثاً، مراوغا، قاسيا. وقد كان من السهل أن أكتشف هذه الأشياء بعد معرفة الرجل،، لكني أدرك أن الانطباع الذي كونته، في ذلك الوقت. ربما نتيجة، فقط، للاتحاد العجيب لهذه الصفات على وجه واحد: الرياء، الحقارة ، الغباء، القسوة، والوحشية، كلها مختصرة في تعبير واحد. ومالم يكن ذلك واضحا على وجهه، فالذي يمكن قراءته (في الزمان وليس في المكان) يعتمد على مزاجي الخاص، أو ما يتفاعل داخل نفسه فيظهر على ملامحه. كان شرساً. وجماله غير متناسق. ولكن ظهور ما ألمحت إليه، على ملامحه يعطيه مظهرا عابسا لكنه متألق. قوته الجسدية كانت مهولة، كان في حوالي الخامسة والأربعين آنذاك، ولأنه عاش طويلاً بصحبة قوته، فهو ينظر إليها بخفة. كان ذكيا بحيث يستغل معظمها، ويوضّح هذه القوة بشكل أكبر، ويعرض صفاتها المقيتة، شكل الجمجمة ومؤخر العنق. كان وجهه عريضاً، وأعتقد أن طبيعته كذلك، فلا يبدو أن أنفه قد تفلطح بلكمة. فكه قوي وصلب. جمجمته مستديرة تماما، وحليقة دائماً تقريباً، الجلد في مؤخرة العنق ذو ثلاث ثنيات مخططة بسطور دقيقة من القذارة. كان طويلاً، وبنيته قوية، يتحرك بحزم وبطء في معظم الأحيان. يضحك قليلاً وبدون انطلاق. كان صوته عميقاً أجوف جهوريا، لايمكن أن نسميه غليظاً، مع أن جرسه مكتوم. حين يتكلم بسرعة، أو وهو يسير بسرعة، يتحقق، من التناقض بين ذبذبة سيره، والنغمة العميقة لصوته، تأثير موسيقي مبدع. هذا التناقض ينتج، أيضاً، بعض تغيير في النبرة لطيف. أرماند يلفظ بالكاد بوضوح، المقاطع لا تتصادم، فحديثه يتدفق بحرية وسلاسة والكلمات تتصل برزانة متناسبة. صوته يجعلك تدرك أنه كان محبوبا في شبابه، خاصة من الرجال. فالشباب الذين كان يُعجب بهم الرجال سواء لفتوتهم أو لجمالهم، يمكن معرفتهم بضرب من التأكد السفه، فهم أكثر ثقة بأنفسهم، وأكثر قابلية للملاطفة. صوت أرماند لمس عقلي وأفقدني نفسي.

كان، من النادر، أن يسير مسرعا، ولكن إذا حدث مرة من أجل اللحاق بموعد، فهو يسير بيني وبين ستيلتانو، مرتفع الرأس، يميل قليلاً إلى الأمام، على الرغم من بنيته الهائلة، وهيكله الفارع المرتاح، وتبدأ سرعة صوته تتزايد مع عمق نبرته، لنسمع صوتا جسوراً رائعاً، وحين يكون هناك قليل من ضباب، يخرج من هذا الرياضي الثقيل صوت سماوي، يعتقد المرء أنه ينتمي إلى مراهق متسرع، رشيق، فرح، متألق، واثق من جماله وقوته وتفرده، ومن جمال وغرابة صوته.

كنت أتخيل أعضاءه الداخلية مكونة من نسيج صلب، محاطة بطبقة من الظلال المبرقشة بشكل جميل، كامنة وسط أحشاء دافئة رحيمة، وإنه يغزل إرادته ليستعرض ويستخدم ويقدم نفاقا ظاهريا، ووقاحة وغباءً، وقسوة وحقارة، وبالتالي يحقق لنفسه أكبر نجاح داعر يستطيعه.

رأيته في غرفة «سيلڤيا». حين دخلت أخبره «ستيلتانو» على الفور أني فرنسي وأنه قابلني في إسبانيا. كان أرماند واقفا، لم يقدم لي يده، لكنه نظر نحوي. بقيت بجوار النافذة دون أن أبدي اهتماما بهما. حين قررا الذهاب إلى البار، قال لي ستيلتانو: هل تأتي ياجان؟ وقبل أن تتاح لي فرصة للإجابة، سأله «أرماند»:

– هل اعتدت أن تأخذه معك؟

ضحك «ستيلتانو» وقال: إذا كان الأمر يضايقك.. يمكننا أن نتركه.

– لا. دعه يأتي.

تبعتهما، بعد أن تناولا مشروبا، انفصلا، ولم يصافحني أرماند. ولم يقل لي ستيلتانو كلمة واحدة عنه. بعد عدة أيام قابلته قرب أرصفة الميناء. أمرني أن أتبعه. ودون كلام تقريباً أخذني إلى غرفته، وبالاستخفاف الواضح نفسه استخدمني لمتعته.

مهيمنا عليّ بقوته وعمره، بذلت في أدائي عناية قصوى. مسحوقا بتلك الكتلة من اللحم، المجردة من الروحانية، جربت رعونة مقابلة الوحش الكامل غير المبالي بسعادتي. واكتشفت حلاوة الشعر الكثيف على الجذع والبطن والأفخاذ، والقوة التي يمكن أن تصدر عنها،. ونتيجة للعرفان أو الخوف طبعت قبلة على ذراعه المشعر.

قال: ما الذي جرى لك؟ هل أنت مجنون أو شيء من ذلك.

قلت: أنا لم أفعل مايؤذيك.

بقيت إلى جانبه لأكون في خدمة ملذاته الليلية. حين يذهب إلى الفراش، كان ينتزع حزامه الجلدي من عروات بنطلونه ويجعله يطرقع، كمن يجلد ضحية غير مرئية، جسدا من لحم شفاف، وينزف الهواء. لو أخافني، آنذاك، فبسبب ضعفه لأن يكون «أرماند» الذي أراه، ثقيلاً ودنيئاً. طرقعة الصوت تصاحبه وتساعده، غضبه ويأسه لكونه ليس هو، تجعله يرتعد مثل حصان قهره الظلام، فيرتعد أكثر وأكثر. لم يحتمل أن أعيش عاطلاً كسولاً، نصحني أن أطوف حول محطة السكة الحديدية أو حديقة الحيوان، والتقط الزبائن. ولأنه يعرف الرعب الذي يشيعه بداخلي، فلم يراقبني. كنت أُحضر له كل النقود التي أكسبها. كان هو نفسه يعمل في البارات. يقوم بعمليات مختلفة مع البحارة وعمال الأرصفة الذين يحترمونه. ومثل كل القوادين المحليين وبلطجية ذلك الوقت، كان يلبس حذاءً خفيفاً، وكانت خطواته أثقل وأكثر مرونة. وغالبا ما يرتدي بنطلونا بحريا أزرق من الصوف، لم يغلق تماما قط، ويظل مثلث مفتوحا أمامه، وأحيانا يرتدي جيبا خفيفا مطويا على بطنه، لا أحد له مثل مشيته المتموجة، أعتقد أنه ينزلق بتلك الطريقة كي يستعيد ذكرى الجسد الذي كان له في سن بلطجته في العشرين، قوادا وبحاراً.

كان مخلصا لهذه الذكرى كما يخلص المرء لموضة أزياء شبابه. وهو من أكثر الأشخاص الذين يمتلكون شهوانية مستفزة، يرغب في التعبير عنها باللغة والإيماءة. أحيانا يضع يده داخل جيبه ويدلل عضوه وهو يشرب واقفا على البار. ويتباهى بأنه يستطيع رفع رجل ثقيل على رأس عضوه. ودون أن أعرف طبيعة هذا الاستحواذ بين عضوه وقوته، فقد أعجبت به.

في الشارع، كان يسحبني إليه كما لو أنه يريد احتضاني، ثم بدفعة قاسية من الذراع نفسها يرميني جانباً. ولأني لا أعرف شيئاً عن حياته، سوى أنه فلمنكي وطاف العالم، فقد حاولت أن أميز إحدى علامات مستعمرة العقاب التي لابد أنه هرب منها، حاملاً معه تلك الجمجمة حليقة الشعر، وتلك العضلات الممتلئة، ونفاقه وعنفه ووحشيته.

مقابلة «أرماند» كانت كارثة، فعلى الرغم من مقابلتي لستيلتانو في أغلب الأوقات، فقد بدا أنه يبتعد عني في المكان والزمان. مضى وقت طويل منذ التصقت بشدة بهذا الصغير الذي تحولت خشونته وسخريته فجأة. إلى لطف لذيذ. لم يحدث قط، طوال الوقت الذي عشته مع «أرماند»، أن سخر «ستيلتانو» منا، حصافته سببت لي الألم، وجاء يستعيد الأيام الخوالي.

على خلاف «ستيلتانو»، لم يكن «أرماند» جباناً. فهو لا يقبل المبارزات الفردية فقط، بل كان يسعى للأعمال الخطرة الممتزجة بالقوة، يتكتم الأمر ويدقق في التفاصيل بنجاح.

بعد أسبوع من لقائنا، أخبرني بأنه سيتغيب فترة وعليّ أن أنتظره، وطلب مني أن أعتنى بمتعلقاته، حقيبة تحتوي على بعض الملابس والملاءات، وغادر. ولعدة أيام شعرت بأني أخف، لم أعد أحمل ثقل الخوف، وخرجت مع «ستيلتانو» عدة مرات.

لو لم يبصق في يديه ليدير الرافعة، لما لاحظت هذا الولد الذي كان في مثل سني، هذه الحركة العادية لغلام عامل، جعلتني أدوخ، حتى ظننت أني سأقع، وهو مالم يحدث لي منذ فترة طويلة.

استيقظ قلبي وذاب، أثّر فيّ الولد بسرعة ووحشية ودقة: حركاته، شعره، تموج أردافه، انحناءة ظهره، الأرجوحة الدوارة التي يعمل عليها، حركة الخيل على الأرجوحة، الموسيقى، الأرض، ومدينة أنتيرب التي تضم كل ذلك، والأرض التي تدور بحذر، والعالم الذي يحمي حملاً ثمينا كهذا، وأنا أقف هناك خائفاً أن أمتلك العالم، وعارفا أني امتلكته.

لم أر البصقة في يديه، لاحظت تغضن الخدين، وطرف لسانه بين أسنانه. ورأيته يمسح راحة يده الخشنة السمراء، حين انحنى ليمسك يد الرافعة، لاحظت حزامه الجلدي السميك «المطقطق»، مثل هذا الحزام لايمكن أن يكون زينة كتلك التي تمسك بنطلون فتى يلبس على الموضة. كان حزاما بمادته وسمكه يؤدي وظيفة مختلفة، كان يقبض على أكثر علامات

الذكورة وضوحا، وبدونه لن تكون شيئاً، لن تحتوي أو تحرس كنزها الرجولي، ولكنها ستنهار عند قدمي ذكر مقيّد. كان الولد يرتدي قميصا رياضياً، تظهر بشرة الغلام بينه وبين البنطلون، ولأن الحزام خارج العراوي، فعند كل حركة يرتفع قليلاً، بينما ينزلق السروال إلى أسفل. حدقت في الحزام مسحوراً. عند الحركة السادسة لردفي الفتى، أصبح الحزام يحيط بظهر ووسط الفتى العاريين، تمسك به النهايتان المربوطتان عند ازرار البنطلون.

قال ستيلتانو: مشهد جميل.

كان لايقصد الأرجوحة الدوارة، لكن روحها الحارسة، وقد رآني أحدق في الغلام.

قال: اذهب وقل له بأنه يعجبك.. اذهب.

– لا تمزح.

– أتكلم جادا.

كان يبتسم، وحيث إن مظهري وعمري لايسمحان لي بأن أقترب من الفتى وإبداء ملاحظة ساخرة المفترض أن يقولها رجال متميزون بمظهرهم، وأردت أن أبتعد، شدني «ستيلتانو» من كمي:

– تعال.

تخلصت منه قائلاً: دعني.

– أرى إنه أعجبك..

– وماذا في ذلك؟

– وماذا في ذلك! ادعه لشراب.

ابتسم ثانية وقال: هل أنت خائف من «أرماند»؟

– أنت مجنون.

– هل تريدني أن أذهب إليه؟

في تلك اللحظة، اعتدل الفتى بوجه محمر ولامع، كان طلقة محتقنة. اقترب منا وهو يسوّي حزامه. كنا على الرصيف، وهو يقف على خشبة الأرجوحة السفلية، وبما أننا ننظر إليه، فقد ابتسم وقال:

– عمل مجهد.

قال ستيلتانو: لابد أنك تشعر بالعطش؟

والتفت نحوي وقال: اعزمنا على شراب.

ومضى «روبرت» معنا إلى مقهى. الفرح الناتج عن الحادثة وسهولتها، جعل رأسي يدور. لم أعد أجلس بجانب روبرت أو حتى ستيلتانو، كنت أبعثر نفسي في أركان العالم، أسجل مئات التفاصيل التي تنفجر إلى نجوم مضيئة لا أعرفها. ولكن حين صحبت «لوسين» لأول مرة، شعرت بإحساس الغياب ذاته. كنت أصغي لربة بيت تساوم لتشتري زهرة جيرانيوم: كانت تقول: أحب أن أمتلك نباتا في بيتي.. نباتا جميلاً.

هذه الحاجة إلى الامتلاك. التي جعلتها ترغب أن يكون لديها نباتها الخاص، تختاره بجذره وتربته من بين أعداد لامتناهية من النباتات، لم تدهشني. ملاحظة المرأة أوضحت لي معنى الإحساس بالملكية.

قلت لنفسي «ستشتري لنباتها وعاءً من خزف. سترويه، وتعرضه للشمس وتصونه».

بعض الذباب كان يحوم حوله، هششته بيدي، هذا النبات سيكون ملكي، أي نبتة أخرجت مثل هذه الزهرة؟ سأصونها بكل ما أملك.

كان في الليل، يلتف ببطانية، وينام تحت القماش الذي يغطي الأرجوحة. دعوته ليشاركني غرفتي فجاء، لينام عندي. وحين تأخر في الليلة التالية، خرجت أبحث عنه، رأيته، دون أن يشعر، في بار قرب أحواض السفن يتحدث إلى رجل يبدو عليه أنه يحب الغلمان، لم أفاتحه بالأمر، لكني أخبرت «ستيلتانو»، في الصباح التالي، وقبل أن يذهب إلى عمله، جاء «ستيلتانو» لرؤيتنا. مازال مثقلاً بتواضعه الذي لايصدق، وجد الأمر مربكا ليقول ما يود قوله. وأخيراً نطق:

– سنعمل معا. ستغوي الزبائن وتصطادهم، ثم تقودهم إلى دورة مياه أو إلى غرفة.. ثم نأتي أنا وچان.. وندعي أننا شقيقاك ونجعل الرجل يدفع. كدت أقول: وماذا عن «أرماند».. وماذا يمكن أن يفعل.. لكني أبقيت فمي مغلقا.

كان روبرت يجلس في السرير، والأغطية فوق ساقيه. كنت حريصا ألا أحتك به حتى لا أحرجه. لمّح «ستيلتانو» عن الأخطار المتوقعة، لكني أدركت أنه هو نفسه يعتبر هذه الأخطار بعيدة الاحتمال، وغامضة كما لو كانت ملفوفة بضباب كثيف. أخيراً، قال «روبرت» إنه سيفعل. أثّر عليه سحر «ستيلتانو»، وشعرت بالخجل، لقد أحببت روبرت، ولم أكن بقادر على أن أجعله يوافق، ولكن ما كان قاسيا، على نفسي خاصة، هو تكرار «ستيلتانو» للتفاصيل ذاتها التي اتبعها

معي في علاقتنا الحميمة في إسبانيا، والتي لايعرفها سوانا.

حين انصرف ستيلتانو، انزلق «روبرت» تحت الأغطية وضمني التماسا للدفء.

قال لي: إنه غلامك.. أليس كذلك؟

– لماذا تسأل؟

– أي واحد يستطيع أن يرى أنه غلامك.. احتضنته، وأردت أن أقبله، لكنه ابتعد قائلاً:

– أنت مجنون.. لن نفعل ذلك ببعضنا..

– ولم لا؟

– لا أعرف.. لكننا في العمر نفسه.. لن تكون هناك متعة. في الصباح التالي، استيقظ متأخراً: تناولنا الفطور مع ستيلتانو وسيلفيا، ثم ذهب ليصفي حسابه، ويخبر صاحب العمل بتركه الشغل على الأرجوحة. وقضينا الليلة كلها نشرب.

خلال الأسبوع الذي غابه «أرماند» لم نسمع عنه شيئاً. فكرت في مغادرة «أنتيرب» بل بلجيكا كلها حاملا أشياءه معي، لكن سطوته مارست عملها عن بعد، فامتنعت، ليس خوفاً ولكن بسبب جاذبية عنف هذا الرجل الناضج، الناضج في الشر، اللص القادر وحده أن يجرّني بل يحملني إلى العالم المخيف الذي انبثق منه. لم أنتقل من غرفته، لكن قلقي كان يتزايد كل يوم. وعدني «ستيلتانو» ألا يخبره بحبي لروبرت، لكني لم أكن واثقا من الولد نفسه، ومن خبثه في أن يفتن عني. وعمل الغلام مع صاحب اليد المقطوعة بسهولة. دون ذرة من خجل، كان لعوبا هزليا بل صفيقا قليلاً. حين تحدثا عن الأشياء التي يمكن نشلها، لاحظت إنه انتبه بشدة، وعندما أنهى ستيلتانو كلامه، أشار روبرت بإبهامه والوسطى علامة إدخال يده في جيب سترة خفي لينشل جوهرة وهمية. كانت الحركة تعبر عن خفة الأصابع، يمثلها الولد بحركات لولبية بطيئة في الهواء، مرة حين تغادر جيب الضحية، وأخرى حين تدخل جيبه.

خدمنا «ستيلتانو» بالطريقة التي يخدم فيها المرء قسيسا، أوضابطا في سلاح المدفعية. نركع أمامه ليربط كل منا فردة حذاء، وتتعقد الأمور حين نأتي إلى القفاز المفرد، كان روبرت يحظى دائماً، تقريباً، بإقفال زره.

كنت عادة، أصعد مع روبرت والرجل الذي علقناه، إلى غرفتنا. نسرقه أثناء نومه، ونلقي بالنقود إلى «ستيلتانو» الذي يقف تحت النافذة. يتهمنا الزبون في الصباح، نتركه يفتشنا ونحن نعرف إنه لايستطيع تقديم شكوى ضدنا.

كان روبرت، في البداية، يحاول تبرير سرقاته، نصّاب مبتدئ يعاقب قملة بسرقتها. كان

يقول: هؤلاء الناس خطرون. محاولاته إلباس الخطأ للزبائن الذين يسرقهم، كان مُملا.

قال له «ستيلتانو» بصراحة قاسية:

– إذا واصلت وعظك هذا فستتحول إلى قسيس. هناك سبب واحد لما نفعله.. وهو النقود.

ذلك الضرب من اللغة، جعل روبرت يسترخي. ولأن «ستيلتانو» يدعمه، فقد انطلق. أصبح حديثه فكها يسلي «ستيلتانو» الذي كان يخرج معه فقط، وازداد تعكر مزاجي. كنت غيورا من صديقيّ. بالإضافة إلى أن روبرت كان يحب الفتيات، ويبتسم لكل واحدة، وكن يعجبن به، ونتيجة لذلك شعرت إنه بعيد عني وليس ضدي. ثم لأنه أكثر جمالاً مني، مما يسهل عليه جذب الرجال، فقد أعطاه «ستيلتانو» ملابسي، فارتداها، مبتسما، دون حرج. كان كل مالديّ بنطلون وسترة وبعض القمصان الممزقة. وضعت خططا تافهه للانتقام، وبمقارنته مع أرماند، فقد بدا أضعف، وتفهت نظرته الحلوة، وأصبح كلامه مملاً، وأملت أن أسمع شيئاً عن «أرماند».

لا أستطيع القول، تماماً، بأن مواقف «أرماند» غير المتواضعة كانت سببا في قراري أن أكتب كتبا داعرة، لكني، بالتأكيد كنت مندهشا من الإجابة الوقحة المهينة التي ردَّ بها على «ستيلتانو» الذي سأله بهدوء شديد مع لامبالاة طفيفة: لماذا أصبح عاطفيا لهذه الدرجة؟

قال: بسبب «بيضاني». النساء تسرن بحلمات أثداء نافرة.. أليس كذلك؟ إنهن يستعرضنها.. أليس كذلك؟ إذن لي الحق أن أعرض مالديّ لكي يراهما الناس.. بل وأقدمهما في طبق.. لديّ اثنتان كبيرتان.. ومن حقي أن أرسلهما حتى لأمير ويلز أو «بولا نيجري»..

كان ستيلتانو قادرا على التهكم، لا الغناء.. إن تراكم سوء خصاله جعل حقدي سميكا. جبنه وضعفه وكسله، كل ذلك ارتفع ليسمم أنفاسي. والصفات التي كانت تميزه ذات يوم، أصبحت اليوم أسباب احتقاره.

بدا الاثنان وكأنهما لايعيان غيرتي وغضبي، وإن ذلك يدمر علاقتنا. ذات يوم، كنت مع سيلفيا في الشارع، فأمسكت بذراعي والتصقت بي، ردفها وصدرها يلامسان جسدي مما جعلني أشعر برغبة في القيء، الرجلان اللذان أحببتهما، بصداقتهما المشتركة الواضحة، يعزلان نفسيهما عني، ويرفضان السماح لي بحق الدخول في مودتهما الرحبة، بينما امرأة أحدهما تحط من قدري برغبتها في إراحه الفقير، وجرؤت على القول، في حضور «ستيلتانو» – لتسبب له الألم بلاشك– إنها تعجب بي. وانفجر هو وروبرت بالضحك.

– نحن خارجان. يمكنك أن تسير معها.

ورأيت نفسي، مدفوعا بضحكهما، أتعثر في موجات الضوء التي كان «ستيلتانو» سيدها. وعدت بذاكرتي إلى إسبانيا، بهلاهيلي وليالي وسط الفقراء غنيا ببعض الذكريات السعيدة، لكن بلا أمل: فكل ما أستطيع فعله هو عض التراب ولعق الحذاء – حذائي المعفّر من تجوالي المرهق. وخطرت ببالي فكرة القمل الذي آن وقت فقس حشراته، فتوقفت عن حلق شعري، وقررت قتل «ستيلتانو» و«روبرت»، فإذا فشلت في أن أكون بلطجيا في المجد، فلأكن واحدا في الحزن والابتلاء. اخترت مستعمرة العقاب أو ميتة مشينة. كانت ذكرى «أرماند» والأمل في عودته، تصبّرني، لكنه لم يظهر. كنت وحدي في غرفة «ستيلتانو». سرقت مسدسه من جيب سترة معلقة في الدولاب. كنا في بلچيكا. البوليس الفرنسي وحده، في نظري، هو الذي يملك تألقا خرافيا، مع أن كل الشرطة ماهي إلا أداة اعتقال. ما أرتكبه خارج فرنسا ليس خطيئة، بل خطأ. ماذا يمكنني أن أجد في مستعمرات العقاب وسجون بلچيكا؟ الملل فقط، ربما بسبب حرماني من الحرية. اقترحت على «ستيلتانو» وروبرت أن نقوم بعملية في «موبوج». قلت لنفسي «إذا قتلتهما هناك، فسيعتقلني البوليس الفرنسي وأُنفى إلى جزيرة الشيطان». ورفضا أن يتبعاني.

❖ ❖ ❖

الحياة التي أتحدث عنها هنا، كانت بين سنة ١٩٣٢ – ١٩٤٠، وتلك هي أمور الحب التي كانت تشغلني آنذاك، وهأنا أتحدث عنها علّها تخدم أهداف هذا الكتاب.

❖ ❖ ❖

عضضت «لوسين» حتى انبثق منه الدم. كنت آمل أن أجعله يصرخ. لكن بلادته هزمتني، كنت أعرف مقدرتي على مواصلة تمزيق لحمه، وفقدان نفسي، في عمل لايمكن إصلاحه، بينما المفترض أن أحتفظ بعقلي وأدرك أبعاد السقطة. قلت لنفسي «علّ الأعراض تظهر عليّ، أظافر طويلة، وشعر منكوش وأسنان حادة ولعاب يسيل. لعلّه يحتفظ ببلادته، فعلامات الألم العظيم ستضطرني أن أبعد فكيّ وأستسمحه».

حين أعضه تنغرز أسناني في لحمه، وينطبق فكّاي بإحكام حتى يرتعشا ويرتعد جسدي كله. يجتاحني الغضب، لكني أحب رقة هذا الصياد الصغير، حين يلتصق بي، يثني ساقيه برفق حول ساقيّ لتندمج السيقان في قماش منامتينا الناعم، ثم يختار، بعناية فائقة، المكان الذي يسند عليه خدّه بدلال، وقبل أن يروح في النوم، أحس ارتعاش جفونه ورموشه على بشرة عنقي الحساسة، وإذا شعر بدغدغة في منخريه، فإن كسله ونعاسه يمنعانه من رفع يده ليحك أنفه،

فيدعكه في ذقني، ويعطيني ضربات صغيرة لطيفة برأسه، مثل عجل صغير يرضع أمه. آنذاك يكون سريع التأثر، فنظرة قاسية أو كلمة نابية تجرحه، أو تقطع تناغما رقيقا جداً، لدنا وناعما. أحيانا تحتاج قلبي موجة من الرقة، لا أتوقعها، تنتقل إلى ذراعي اللتين تحتضنانه، بشدة أكثر، فيضغط بشفتيه على الجزء الذي يلامسه من وجهي أو جسدي دون أن يحرك رأسه. موجة الحنان هذه، تقابل دوما بتلك الاستجابة – كنقرة الدجاجة – تزهر على بشرتي بحلاوة وبساطة وجمال ذلك الغلام.

وبهذه الإشارة، أعرف طاعته لأوامر قلبي، واستسلام جسده لعقلي. فأهمس بصوت مخنوق بثقل رأسه «حين تكون في حضني، وملتصقا بي، أحميك» فيقول «وأنا أيضاً» ويعطيني ضربة خفيفة من رأسه.

– ماذا تعني بـ«وأنا أيضاً» ؟

– أشعر بأني أحميك.

– لماذا؟ هل أبدو لك ضعيفا؟

يتنهد برفق: نعم.. أنا أحميك.

يقبّل عينيّ المغمضتين، ويترك السرير، وأسمعه يغلق الباب. وتتخذ الصور أشكالاً مختلفة تحت جفوني، في المياه الصافية أرى عالما من حشرات رشيقة رمادية تتحرك في قاع ينابيع موحلة، وتنطلق في المياه الرائقة المظللة لعيني المغطى قاعهما بالطين.

ويدهشني أن تذيب حرارتي، بسهولة، جسما ضخما كهذا. يؤرجح كتفيه وهو يسير في الشارع، فتلين صلابته، وتصبح ناعمة بعد أن كانت حادة الأطراف متشظية، وتلمع عيناه في الثلج المتفتت. تلك الآلة المخترقة الرافسة الناطحة تستلقي، وتتمدد وتنفك، وتثبت، لدهشتي إنها مجرد رقة متكاتفة، ودماثة متوترة، ملتفة عدة مرات، معقودة ومتضخمة، وأعلم، كيف أن تلك الدماثة، أو الطاعة المستسلمة، في استجابتها لرقتي، ستتحول إلى عنف وخسة، إذا تعذر أن يكون اللطف هو ذاته، أو توقف حناني، أو هجرت الغلام، او انتزعت إمكانية أن يحتل الضعف ذلك الجسد الرائع. أعرف ما قد يحكم الطفرات الفجائية. يستيقظ الغضب في الكائن الحي. فتتعقد رقته، وتلتف حول نفسها عدة مرات، وتنقبض لتكون «زنبلكا» مرعبا.

قال: إذا تركتني سأصبح أسوأ المتشردين.

أحيانا، ينتابني الخوف أن يتوقف خضوعه لحبي، فأتمسك بالحرص لأستفيد بسرعة بما يقدمه لي من سعادة.

في المساء، حين يضمني «لوسين» بشدة بين ذراعيه، ويغطي وجهي بالقبلات، فإن الحزن يغطيني، ويلف جسدي بالسواد كشارة الحداد، وتتجه عيناي إلى داخلي «هل أترك هذا الطفل ينتزع نفسه مني؟ ويسقط عن شجرتي، لينسحق على الأرض؟».

قلت: حبي، دائماً، حزين..

قال: صحيح.. فمجرد أن أقبلك تصبح حزينا. لاحظت ذلك.

– أيضايقك هذا؟

– لا. فأنا سعيد نيابة عنك.

قلت لنفسي: «قد ينتهي حبي، وينسل مني، كما يسحب الحليب أو الشربة السم من الجسد». أمسكت بيده، وتلكأت أطراف أصابعي تتحسس أصابعه. ثم قطعت الاتصال. مازلت أحبه. وغلف الحزن ذاته جسدي.

رأيته لأول مرة، يسير عبر المدينة، حافي القدمين، متجها إلى السينما. كان يرتدي زيا لطيفا مناسبا. بنطلونا أزرق، وجرسي بحار مخططا بالأبيض والأزرق، بأكمام قصيرة مثنية حتى الكتف. وأجرؤ على القول إنه كان يرتدي الحفاء في قدميه. كنت أشعر كأنه يلبس اكسسوارا للحفاء مصنوعاً لإضفاء كمال الجمال عليه. وسط الحشد المغرور في المدينة، كنت أعجب بسطوة جماله البسيط وأناقته وشبابه وقوته ولطفه، والسلطة التي يمنحها له كل ذلك، وفي وسط هذه الوفرة من السعادة، بدا فريدا، وابتسم.

أوراق نبات «الأروكاريا» حمراء بنية سميكة ومزخرفة، زيتية قليلاً. إنها تزين قبور ومقابر الصيادين الذين ماتوا منذ زمن، وساروا لقرون عديدة على هذا الساحل الذي مازال متوحشا وجميلاً. وتتلون عضلات الرجال كالبرونز، فتصبح سمراء، وهم يجرّون مراكبهم وشباكهم. يرتدون ملابس مناسبة لذلك الوقت، نسيت تفاصيلها وتغيرت قليلاً: قميصاً قصيراً جداً، وكوفية متعددة الألوان حول رؤوسهم السمراء مجعدة الشعر، ويسيرون حفاة. لقد ماتوا، وذكرني بهم النبات الذي ينمو، أيضاً، في الحدائق العامة. أصبحوا أناس الظلال، واستمرت زينة النبات ووشوشته الشيقة. أرفض موتهم. لا أملك أية وسيلة أجمل، لبعث بحار شاب منذ سنه ١٧٣٠ وأجعله يعيش بحيوية سوى الجلوس في الشمس على الصخور، أو في المساء في ظلال أشجار الصنوبر، أستدعي صورته لتخدم مسرتي. لم تكن صحبة الصغير كافية دائماً لتلهيني عنهم.

ذات مساء، نفضت الأوراق الجافة التي علقت في شعري وسترتي، وزررت سروالي وسألت بوب: هل تعرف ولدا اسمه لوسين؟

– أعرفه.. لماذا؟

– لاشيء.. إنه يثير اهتمامي.

لم يرمش للغلام جفن. نفض بانتعاش إبر الصنوبر، وتخللت أصابعه شعره بحذق ليتحسس أية أعشاب هناك، واندفع من الظل بخفة، ليرى في ضوء الشمس إذا كان هناك بعض المني تناثر على سرواله العسكري

سألته: أي نوع من الأولاد هو؟

– هو! عاهر صغير.. اعتاد أن يتسكع مع رجال من الجستابو. ومرة ثانية، عدت وسط دوامة إعصار يثير الروح. عنصران فاتنان يتميز بهما الجستابو الفرنسي: الخيانة واللصوصية، فإذا أضفت إليهما اللواطة، أصبح الأمر جوهرة متلألئة لايمكن الاعتراض عليها، فهي تمتلك الفضائل الثلاث التي أقمتها كلاهوت قادر على تكوين مثل هذا الجسد الرائع – جسد لوسين. ماذا يمكن القول ضده؟ إنه شيء خارج العالم. إنه يخون– الخيانة هنا تعني كسر قوانين الحب– ومتورط في السلب، ويعزل نفسه عن العالم باللواطة. وهو بهذا يقيم لنفسه وحدة لا يمكن تدميرها. سأعرف الكثير عن ذلك من «جافا»، وسأتحدث عنه فيما بعد.

سألت: هل أنت متأكد مما تقول؟

نظر إليّ «بوب» وهز رأسه، ودفع إلى الخلف خصلات شعره السوداء، كان يسير بجانبي في الظل: بالطبع أنا متأكد.

بقيت صامتا، أراقب نفسي بحزم. كلمة «جستابو» جعلت الأمواج تنتشر داخلي. «لوسين» يسير معهم. يتواصلون مع قدميه الجميلتين، عضلاته، جسده، ليونته، رشاقته، عنقه، رأسه المتوج بشعر لامع. ملأني العجب لأن هذا القصر من اللحم كان مجلسا للشر الكامل الذي يكوّن ذلك التوازن الدقيق للأطراف والجذع، من النور والظل، ويهبط القصر، ببطء، وسط الأمواج، يسبح حتى وسط البحر الذي يضرب الشاطئ حيث نمشي، ويتحول القصر إلى سائل، ثم يصبح بحرا. كم كنت متشبعا بالسلام والرقة في حضور مثل هذه العزلة الثمينة في مثل هذه الحالة. ورغبت أن أسقط نائما دون نوم، وأطبق ذراعيّ على الأمواج. وأُدخل ظل العالم وسمائه، والطريق والشجر من خلال عيني ليستقر كل شيء داخلي.

– ماذا عنك؟ ألم تفكر في الانضمام حتى تستطيع وضع يدك على الأشياء.

أدار رأسه قليلا تجاهي، وتعاقب على وجهه الضوء والظلام، وظل جامداً.

– أنت مجنون. أين كنت سأصبح؟ في السجن كبقيتهم.

في السجن أو ميْتا مثل رؤساء العصابات: لافون وبوني وكلافي بانون ولابوسير. وما انتزعت من قصاصات صحف تحمل صورهم، واحتفظت بها، إلا رغبة في أن استمد منها طعاما للنقاش في مدح الخيانة التي كنت أمنحها دوما هالة مشعة. «موريس بيلورچ»، صاحب الوجه الوسيم النير، منافق مثلهم، كذب عليّ، وخان كل أصدقائه مبتسما. أحببته. وحين علمت أنه قتل «اسكوديرو»، صدمت لحظات ؛ لأن الدراما اقتربت مني مرة ثانية إلى درجة كادت تمسني، دخلت حياتي، وأثارتني، وأعطتني شأنا جديداً، وما زلت أبجله بعد ثماني سنوات من إعدامه بقطع رأسه. وفي الفترة. بين الجريمة والإعدام، أصبح أعظم مني. وكنت أفكر بحياته القاسية وجسده الذي يتعفن وأقول «مسكين ذلك الولد الذي أحببته. وأصبح وجوده بالنسبة لي، ليس مثلاً ولكن عوناً في تسهيل طريقي إلى السماء لأنضم إليه – ولا أقول لأعاود الانضمام إليه – أمامي وجوه منتفخة ومحملة بالخوف والجبن (عدا لابوسيير)، تكاتفت ضدهم نوعية ورق الطباعة السيء، ثم التقاط صورهم في لحظة قاسية. نظراتهم مثل أناس وقعوا في مصيدة، مصيدة داخلية نصبوها لأنفسهم. يبدو «ويدمان» في الصورة الجميلة جداً، مجروحا ومضمدا، وقد تسبب في ذلك الشرطي الذي اعتقله، يبدو كحيوان وقع في مصيدة، ولكنها مصيدة رجل، فحقيقته الإجرامية لم تنقلب ضده لتشوه ملامحه. ما رأيته وما أراه أحيانا حين أنظر إلى صورة «لافون» وأصدقائه هي الطريقة التي انقلبوا بها بأنفسهم على ذواتهم. كنت أقول لنفسي «خائن أصيل. خائن من أجل حب الخيانة، وليس له نظرة زائفة».

كل رجل من أولئك الرجال كانت له فترات من المجد، تألقوا فيها. عرفت «لابوسيير» ورأيته يخرج مع صديقاته من الفتيات في عربات فخمة، واثقا في نفسه، مخفيا حقيقته، يعمل بهدوء في نشاطه التجسسي، يكسب جيداً، ولا يؤرقه شيء.

قلت لنفسي «إن وخز الضمير والمشاعر تسببان قلقا يمكن أن تراه على الوجوه. أما «لوسين» فبراءته بكر على وجهه.

كان «بوب» يأمل، حين وصفه لي كجرذ، أن يبعده عني. لكنه زادني التصاقا به. تخيلته، بإعجاب، وهو يقتل ويعذب الناس، كنت مخطئاً، فهو لم يخن قط.

حين سألت «لوسين» إذا كان على استعداد للسير معي في حياتي، بما فيها من مخاطر متوقعة، نظر في عيني، ولم أر قط نظرة بريئة كهذه. إنها ربيع يفيض على مرعى نديّ، ترى فيه زهرة «أذن الفار» وذلك النبات العشبي الذي يسمونه الحشيش المرتعش».

قال: أفعل.

قلت: هل أستطيع الاعتماد عليك وعلى صداقتك؟

النظرة نفهسا، والإجابة ذاتها.

ثم أضاف: ماعدا أني لا أريد أن أسرق.

– لماذا؟

– أفضل العمل.

قلت: ألم تقل إني إذا تركتك فستصبح لصا؟

– لأني سأكون خجلاً من نفسي.

بعد أيام قليلة، قلت له: نحن مفلسان تقريباً.

كان يسير خافضا رأسه. قال: لو نجد شيئا ننشله. كنت حريصا أن أتعامل معه برفق، حتى لا أكسر الآلية الهشة التي جعلته ينطق بتلك الملاحظة. وحرصت ألا أقول شيئاً يعبر عن نصر وحشي. فتحدثت عن شيء آخر.

وفي اليوم التالي لزيارتنا «جيه اتش»، أصبح أكثر دقة. «جيه. اتش» كان يعيش في شقة أثثها في أربعة أيام، حين دخل الألمان باريس. ارتدى مع ثلاثة من أصدقائه زي جنود الاحتلال – سرقته عاهرات من جنود مترنحين من التعب والخمر والجنس– واقتحموا عددا من القصور التي فرّ أصحابها من باريس، ونقلوا عدة حمولات، بعربة لوري، من الأثاث والسجاد إلى أحد الكراجات. سجاد، يبعث الخدر في القدمين، ويخلق صمتا شبيها بالراحة التي تقدمها دقات قلب الأم. وحتى النجف علقه في بيته.

اقتسم الغنائم مع أصدقائه، لكن اثنين منهم قتلا في إيطاليا، وهما يحاربان مع منظمة فاشية فرنسية، والثالث حكم عليه، منذ فترة وجيزة، بالأشغال الشاقة مدى الحياة، هذه الأحداث، أكدت حقوق الملكية «لجيه . إتش» وأثبتتها. كان يسير على سجاجيده، ويضطجع ويتدلى في كراسيه ذات الاذرع بسلطة لم يمتلكها بعد. وسواء كان متأكدا – أو غير متأكد – من أن فعلته لن تكتشف، فقد كان يقول لي:

– دعهم يأتون ويخرجونني.. وسترى.

كان يستمد سلطته من ثقته بأن من حقه أن يحتل هذا العفش المسروق، وهذه الأسلاب الثمينة التي يعجب بها «لوسين».

حين علمت بهذه الوفيات. أصبحت أدخل منزل «جيه إتس» بثقة أكبر وبتساؤل أقل. لم يعد يبدو كل شيء وكأنه ملك لشخص آخر، أوخاضع لعقل آخر. إنه ملك لصاحبه الحالي.

حيت تركنا الشقة، قال لي«لوسين» على السلم: من الممتع أن نعمل مع هذا الرجل.

– أي عمل؟

– عمله.

– وما هو عمله؟

– أنت تعرف جيداً.. السرقة.

❖❖❖

ربما يعيش «أرماند» في رفاهية مشابهة. أو ربما قتل. كان في فرنسا عندما احتلها الألمان، ومن الطبيعي، بالنسبة له أن يسجل ليعمل مع الجستابو. علمت تلك الحقيقة من مفتش بوليس حين اعتقلت. ذلك هو مكانه الطبيعي، حيث يمكنني أن أتبعه، إن تأثيره كان يقودني إلى هناك.

(بسبب فقدي لجزء كبير من هذه اليوميات، لم أعد أستطيع تذكر الكلمات التي أستعيد من خلالها مغامرة البرت مع ديه، وقد شهدتها على الرغم من أني لم أشترك فيها. ليس لديّ قلب لأخوض في القصة مرة ثانية، لكن كنوع من الاحترام للمصير المأساوي لحبهما، يجعل من واجبي أن أذكرها، كان ألبرت في العشرين من عمره، جاء من «الهافر» وقابل «ديه» في سجن «سانتيه». حين خرجا عاشا معا. وحيث إن الألمان كانوا في فرنسا فقد التحق «ديه» بالجستابو، وذات يوم أطلق النار على أحد الضباط، الألمان في بار، لأنه كان يسخر من صديقه. واستطاع، خلال الفوضى التي عمت المكان، أن يعطي السلاح إلى البرت قائلاً: ادفن المسدس.

وقبل أن يقطع خمسين ياردة، كان هناك حاجز ألماني يمنعه من الفرار، وتخيل بسرعة كبيرة بلاشك، التعذيب الذي ينتظره.

قال لألبرت: اعطني المسدس. ورفض البرت،

– قلت: أعطني المسدس.. أريد أن أقتل نفسي.

كان الوقت قد فات، وأصبح الألمان بقربهما.

– لا أريدهم أن يلقوا القبض عليّ.. اقتلني

وأطلق البرت رصاصة على رأس «ديه» ثم انتحر.

حين كتبت الجزء الضائع من هذه اليوميات، كنت ممسوسا ولفترة طويلة بجمال البرت الذي كان يرتدي دوما قبعة بشريط أسود موشاة بالزهور. وقد اعتاد «ديه» أن يختال في مشيته حول مونمارتر بحذائه الطويل. كانا يتشاجران دائماً – «ديه» كان في الأربعين آنذاك– حتى تلك الميتة التي لم أشهدها. الشكل الذي كتبت به تلك الحادثة أول مرة، كان يخدم بعض الأمور الأخلاقية التي لم أعد أذكرها، وليس لي رغبة في إعادة كتابتها.)

أعرف الهدوء غير العادي الذي يشعر به المرء لحظة إنجاز سرقة ما، والخوف الذي يصاحبها. جسدي خائف. وأنا أمام واجهة محل الجواهر، ومادمت لست في الداخل، لا أفكر في السرقة. لكن بمجرد أن أصبح في الداخل، أكون على ثقة بأني سأخرج بجوهرة أو بخاتم أو إسورة. هذه الثقة يعبر عنها برعدة طويلة تتركني بلا حركة، تنساب من مؤخرة العنق حتى أسفل الكعبين، وتغيض من عيني لتجفف جفني، وتنقل خلاياي، واحدة إلى الأخرى موجة، في حركة متموجة هي الهدوء عينه. فأغدو حيا بالفكر من كعبّي إلى العنق، أرافق الموجة المولودة من الخوف، وبدونها لن يكون ذلك الهدوء الذي يسبح فيه جسدي، ويسيطر عليه. وأكون حريصا ألا أهرب. حين أغادر المكان، يصعب عليّ الجري أو حتى السير مسرعا. نوع من الليونة يمنعني، عضلاتي ثقيلة ومشدودة، وحذر شديد يوجهها. لا يمكن أن أتخيل «لوسين» في موقف كهذا، هل يتردد؟ وماذا سيحدث له خلال السرقة؟ حين أكسر القفل، وبمجرد أن أدفع الباب، فإنه يلقي بداخلي كتلة من الظلام، أوبدقة أكثر، بخارا كثيفا جدا عليّ أن أتشربه. أدخل، وأباشر العمل لمدة نصف ساعة، إذا كنت وحدي، في عالم مخالف للعالم المعتاد. قلبي يدق بصوت عال، ويدي لا ترتعش مطلقا، والخوف لايفارقني ثانية واحدة. لا أفكر بصاحب المكان خاصة، لكن كل إشاراتي تستحضره كأنني أراه. أنغمس بفكرة الملكية وأنا أستلبها. أعيد تجسيد المالك الغائب، إنه يحيا، لايواجهني، لكنه يحيطني كعنصر ينتشر في الهواء، أتنفسه، يدخلني وينفخ رئتي. تبدأ العملية دون خوف كثير، لكنه يبدأ في التصاعد في اللحظة التي أقرر فيها المغادرة، يولد القرار حين لايبقى هناك أماكن سرية، وحين أصبح كالمالك في معرفته بمكانه. لايحدث هذا، بالضرورة، بعد أن أجد الكنز الذي أبحث عنه، «جاي» مثلاً، بعد سلبه المكان، يجلس ويأكل في المطبخ أو في غرفة الجلوس، بعض اللصوص يذهبون إلى الحمام./ لن أدع «لوسين» يجتاز هذه الطقوس، فطبيعته ليست دينية. حين أجد ما أريد، لابد أن أغادر. آنذاك يغزو الخوف جسدي، أود أن أسرع بكل شيء، ولا أسرع أنا نفسي. لا أمشي بسرعة أكبر، ولكني أتصرف بطريقة تعجّل الإمور بشكل سحري. البعد عن هنا والذهاب بعيداً. والحركات التي أقوم بها للإسراع، هي الأثقل والأبطأ. البطء يستجلب الخوف، كل جسدي الآن ينبض وليس قلبي فقط، أصبح عرقا نابضاً، العرق الكبير للمكان المسروق. كنت أفضل، أحياناً، أن أنام هناك لمدة ساعة وراء أحد الأبواب، حتى أهدأ بدل أن أخرج إلى الشارع وأنطلق. وعلى الرغم من معرفتي بأن أحدا لايتبعني، فإني أسير بطريقة متعرجة ليست مستقيمة، وأعبر شوارع معينة،

وأعاود السير على آثاري كأني أريد أن أمحوها.. التجربة، بعد سرقة سريعة، تكون أكثر إثارة. أمشي بسرعة أكبر، أعجل، والخطوط المتقاطعة تقصر، كما لو أن السرعة ذاتها التي حققت بها السرقة هي التي تحملني. لن أشجع «لوسين» أن يتعرض لذلك، فمظهره لايوحي بأنه سارق، هناك تردد أو تباطؤ خفيف في حركاته، يشبه تراجع المقاطع الأخيرة لكلام في زاويتي فم رطب لشاب أمريكي. كان «لوسين» متواضعاً.

هددّته يوما بأني سأهجره.

قلت له: أحذرك مرة واحدة. في يوم ما سأنفجر. لقد طفح كيلي من نزواتك. وخرجت دون أن أقبله. ورفضت أن أراه لثلاثة أيام. لم يشكْ قط. تساءلت «كيف فكرت في التخلص منه؟» وانتابني وخز الضمير، إضافة إلى هموم الفكر التي تثقل عقلي وتكدر حياتي المملوءة بالقلق. أملت لو ألقى بنفسه على عنقي، وانتظرت معجزة، لكن لابد من عاصفة تجعل السماء صافية. في مساء اليوم الثالث، دخلت غرفته:

– ألم تأكل؟

– ليست لديّ أية نقود.

– ولماذا لم تطلب مني؟

– ظننت أنك لن تعطيني.

كان يتكلم ببساطة، ثم بقي صامتا. لم يبذل جهدا ليتمسك بالحياة. لامبالاته ببؤسه أزعجتني.

وفكرت «سيموت كي يصالحني، لكن افتقاده للخيال يمنعه من الوصول للطريقة الصحيحة».

بغتة، بدا وكأنه محاصر في مغارة تحت الأرض، تحبس صوته، ذلك الصوت الناعم الحذر. كان مشلولا، وروحه تحوم في جسد ساكن. ما أذاب غضبي، أخيراً، تذكري شيئاً ما قاله ذات يوم عن كتفه المخلوعة «إنها ليست غلطتي»، تلفظ بهذا العذر بلهجة متواضعة، حتى كدت أشعر باحمرار وجهه في الظلام.

قلت لنفسي «لا أستطيع ترك الغلام المسكين وحيداً. قد يتذكر حديثه هذا وسيدرك أني قاسي القلب».

وحين كان بين ذراعي، بعد دقيقتين، أمسكت شعره لأرفع وجهه الذي دفنه في عنقي، فوجدته يبكي. خلال هذه الأيام الثلاثة، عرف الحزن الصرف، وشعرت بالسلام مع روحي لأني

حققت السلام إلى الفتى. كنت فخوراً لأكون السبب في دموع فرحه ومعاناته، وبفضل طيبتي، أضحى جوهرة، جعلتها دموعه وألمه تنصقل حتى تلألأت. وزيّن يأسِهِ كلا من نفسه وعودته للحياة. وأصبح ثمينا. دموعه ونهنهاته على عنقي أكدت قوتي، كنت رجله. وما إن مسح وجهه، وتمدد بجانبي على السرير، حتى بدأ اللعب في حلمة أذني. يثنيها، ويفردها، ويلفها، قال: لقد تجعدت.

يشد حلمة الأذن قرب الخد، ثم في اتجاه جبهتي، التي يجعدها بأصابعه القاسية- كانت أصابعه تدعك جلدي بعزم شديد، فحركاته ليست آلية، فهو يولي اهتماما كبيراً لما يعمل- إنه يحاول حركات مختلفة، لم تقنعه إحداها. تركت نفسي لمداعبة هذا الطفل. ساعدته اللعبة على إزالة حزنه. كان يتسلى بابتداع تجعدات وتجاويف وضربات بشكل احتفالي جليل. لم يكن يضحك. وتحت ضغط أصابعه الخلاقة شعرت بمحبته، التي جعلت من هذا اللعب نعمة، وعرفت الحب الذي يمكن للمادة أن تستشعره للشخص الذي يشكلها بمثل هذا الفرح.

- ماذا تفعل بخدي؟

كان سؤالي بعيداً.. فأين أنا؟‹ وما الذي يجري هنا، في غرفة فندق على سرير نحاسي؟ أين أنا؟ عقلي يسترخي، ولا أبالي بما يفعله. بعد قليل ستتحطم تلك الطائرة المزمجرة على الأرض. وسأبقى هنا، وجهي على عنقه، لن يتحرك وسألتصق بالحب كما يلتصق المرء بالجليد أو الوحل أو الخوف.

كان لوسين يدعك ويقرص جلدي، وذقني وخدي، وحاجبيّ، فتحت عينيّ على اتساعهما، ونظرت إليه دون ابتسام، فلم أقو على ذلك، وقلت له بحزن دون أن أغير نبرتي: ماذا تفعل بخدي؟

أجاب ببساطة، كما يتحدث المرء عنِ شيء طبيعي إلى شخص آخر عليه أن يفهم أولا يفهم شيئاً غامضاً وسهلاً كهذا: أعمل فيه عقدا.

كان صوته أجوف نوعا ما، حين رفع حاجبي ليدلكه، سحبت رأسي إلى الخلف بخفة، مد يده ليجذبه إليه، سحبته لمسافة أبعد، فمد ذراعيه وناشدني بحزن كطفل رضيع: جان.. لو سمحت.. دعني أفعل.

- أنت تؤلمني.

- «شوية صغيرة» فقط.. جان العزيز الصغير.. حاجبك.. فهمت ما الذي يربط النحّات بصلصاله، والرسّام بألوانه، وكل عامل بالمادة التي يعمل بها، وفهمت اذعان واستسلام المادة لحركات الشخص الذي يبعث فيها الحياة. أعرف الحب الذي تبعثه ألأصابع في الثنيات

والفجوات والانتفاخات، هل أمنعه؟ قد يمنع عني الحياة. إلا إذا نمت رقته الهادئة وتواضعه الخجول تحت شمس حبي ليتحول إلى نمر أو أسد. هل يتبعني إذا كان يحبني؟ ماذا سيصبح بدوني؟ كبرياؤه سيجعله يرفض العودة إلى عائلته. سيكتسب عادات الكسل والرفاهية في صحبتي. هل سيتسكع حول البارات؟ سيصبح حقيراً وقاسياً نتيجة للرغبة في الانتقام، أو التحدي، أو كراهية كل الرجال. بائس واحد وسط الكثيرين في العالم، مسألة لا تهمني، لكني أقاسي عند التفكير في هذا الطفل وهو يتخذ طريق العار. حبي يعلو مجدا على حافة هاويته، وعند لحظة النهاية، كل مساء، يضيء تمثالا مجيدا للشمس الغاربة. ماذا سيصبح؟ وينتشر الحزن فوقي، يغطيني، وأراه بأصابعه المخدرة المزرقة الكسولة الحساسة المتجمدة يحاول فتح جيبي بنطلونه القذرتين الصلبتين، ليدخل يديه فيهما. أراه واقفا ينقر بأصابع قدمه على الرصيف في البرد الجاف، أمام مقاه لايجرؤ على دخولها، ربما رقصة جديدة ساخرة تولد من إيقاع قدمه التي تؤلمه، برفع ياقة سترته، وعلى الرغم من الرياح التي تسفع شفتيه، سيبتسم لكبار السن علهم يلتقطونه. وينتشر الحزن فوقي، لكن عبيراً آخر يبعث السعادة في جسدي وقلبي، بأني أنقذته من الشرور التي أقضي بها عليه، بالتفكير نفسه الذي جعلني أفكر في هجره. لن يكرهني، وارتفعت إلى منخريّ نفثات باعثة على الغثيان من رائحة إسبانيا التي عرفتها.

❖ ❖ ❖

هل يمكن أن أفعل له أفضل من كتابة بضع صفحات عنه في مواقف حقيرة كالتي كنت فيها؟ إحساس شرير طفولي، وربما حس من كبرياء الافتداء جعلني أعتقد أنني عبرت كل هذه الحقارات لكي يمكنه، هو، أن يتجنبها. وحتى تكون التجربة أكثر تأثيراً، سأجعل «لوسين» يعيش لحظة في جلدي البائس. في روايتي «معجزة الوردة» أخذت على عاتقي عار الفضيحة في موقف لشاب بصق على خديه وعينيه زملاء له، عند الحديث عنه قلت «أنا»، وهذه هي الحركة الارتدادية.

كانت السماء تمطر. «لوسين» وبعض المتسكعين الحقراء، كانوا يتجولون عند حاجز حجري في منطقة قرب الميناء، حيث سمح للشحاذين بالتجمع. كل منهم قد أقام ناراً صغيرة من فروع الشجر، يسخّن عليها الأرز والبقول التي أُعطيت لهم عند الثكنات ورجعوا بها في علب من الصفيح. كان عائداً ببقايا طعام من الجنود، لو كان معهم لكان أجملهم، هذا الطعام، وهذه اليخني مجهولة الاسم التي امتزجت بشفقتهم وازدرائهم، تتحول إلى حجر وهي تنزل من زوره. كان قلبه منقبضا، والدموع التي حبسها صلّبت جفونه. أطفأ المطر كل النيران، واستمر الدخان. ودافع الشحاذون عن طعامهم قدر استطاعتهم، فغطوا العلب بأطراف ستراتهم، أو بمخالٍ

ملقاة على أكتافهم. وحيث إن المنطقة في المستوى المنخفض لحائط يدعم جادة تصله بـ«الرامبلاة»، فإن المتسكعين المستندين على الحاجز يمكنهم التطلع إلى «محكمة المعجزات» التي يقيمها الشحاذون طوال الوقت، ليشهد المرء مناظرات خسيسة، ونزاعات طفيفة، وصفقات قبيحة، كل فصل فيها، محاكاة تهكمية، فللفقراء تصرفات غريبة، وما يفعلونه هناك هو انعكاس مشوّه لمغامرات سامية تحدث في أماكن غنية لأشخاص يستحقون المشاهدة والسماع. والشحاذون الذين يتعاركون ويهينون بعضهم، يخففون من عنف حركاتهم وصرخاتهم، حتى لا تلحقهم لعنة التجمّل بخصل نبيلة مدخرة لعالمكم. كذلك فالشحاذون الآخرون الذين يشاهدون تلك المعارك، ينظرون بلا قصد، فحركاتهم، هم أيضاً، لابد أن تكون مجرد انعكاس، فهم يرفضون الابتسام، أو إبداء كلمة إعجاب، للملحة الطريفة، والصوت العالي، والإهانة المضحكة، والفصاحة التي تندفع فجأة، أو للضربة الماهرة، بل على العكس، فهم في أعماق قلوبهم، وبصمت، يستنكرون كل ذلك وكأنه يتعارض مع رغباتهم، ويرفضه تواضعهم. فلا تجد، مثلاً، شحاذا يقول لآخر في لهجة مشفقة «لاتقلق أيها المسكين فستجتاز أزمتك». فهؤلاء السادة عندهم حساسية. وحتى يتجنبوا أي صدع يتسرب منه الحزن، ومن أجل أمنهم، فهم يتقيدون مبالاة تحد أقصى أطراف المجاملة. لغتهم تحتفظ بقيود كلاسيكية. ولأنهم يعرفون بأنهم مشوهون وظلال بائسة أو أصداء، فهم يناضلون بورع لامتلاك حصانة الحركات والمشاعر التعسة. فهم لايتكلمون بصوت منخفض بل بنغمة متوسطة بين الارتفاع والانخفاض. المشهد الذي أرغب أن أصفه حدث أثناء المطر. وحتى عندما يسقط المطر، عند الظهر في شمس يوليه، فإنه ينهمر عليهم بلطف ويجعلهم يرتعشون. أحياناً، يظهر أحد الجنود، يقول بعض الكلمات بالإسبانية، فيندفع إلى الأمام ببؤس، خمسة أو ستة من الشحاذين الأكبر عمرا والأكثر تواضعا، يختار الجندي اثنين منهم، يصطحبهما إلى المغسل، حيث يعصران وينشران الغسيل.

«لوسين» لم يستجب قط لهذا الأمر. كان ينظر من داخل مأوى الحزن، إلى البحر يبتل على البعد، عيناه تحملقان، كأنه على ثقة بعدم خروجه من هذا الحلم. القذارة جعلت ملامحه حادة، والعرق ترك وجهه ناعما ومزيتا، صالحا للقطة كاميرا. نادرا ما كان يحلق ذقنه، وإن فعل فبشكل سيئ بعد أن يصبّن ذقنه بيده. لم يكن – ولا أنا آنذاك – قد قطع الصلات التي تكبله كسجين إلى عالمكم، بينما فرصته الوحيدة في العزلة، فظل على اتصال بكم من خلال شبابه وجماله وحبه للأناقة، وجوعه، وحاجته للمجد الأرضي. من المؤلم أن أحط من قدره. سأكون مفرط السعادة لو استطعت أن أسميه: محتالا، وغداً، نذلاً، فاسقا، داعرا، سافلا، ابن حواري، أسماء ساحرة، وظيفتها أن تستفز ما تسمونه بسخرية، عالماً جميلاً. لكن هذا الكلمات تغني وترنم، وهي أيضاً تستثير فيكم أحلى وألذ المسرات، فأنتم تضعون في مقابلها، وتحت أنوفكم، كلمات رقيقة، لطيف وعزيز ومحبوب، تغمغمون بها إلى أحبائكم.

قد يشعر «لوسين» باليأس، فأقاسي أنا بالتالي. تمزق قناع التواضع، وبدت الأجزاء المخزية،

أعرف – وخدّاي يتوهجان – حاجتي لإخفاء نفسي أو الموت، لكني أعتقد، أنني بمواجهة وتحمل هذا القلق المؤلم. فسأعرف – نتيجة لقلة حيائي – جمالاً غريبا. (استخدمت هذه الكلمة عشوائيا، لأني افترضت اكتشاف كلمة أفضل لاتخدش العاطفة أو الحب، وتسمح بضحكة حذرة عقيمة.)

«لوسين» يقاسي، بسرية، لأنه ينحدر. أحيانا، حين ينظر إلى يديه القذرتين، تدفعه نوبة غضب إلى نافورة، يغسل، بحماس، جذعه وقدميه ويديه، ويحك وجهه، ويمشط شعره بمشط بلا أسنان. وتكون، محاولته هذه، للعودة إلى عالمكم، عقيمة. فبعد أيام قليلة، ستأكل القذارة شجاعته، وستجعله الرياح يرتعش أكثر، ويضعفه الجوع – ليس الضعف النبيل لهزال المرض– ويظل جسده جميلاً، لايستطيع أن يزدريه، فتلك إهانة، وينعزل عن عالمكم برائحته المرعبة.

لقد قلت مايكفي عما يحدث حين يستند السياح الفرنسيون على الحاجز. وحين تحط سفينتهم في برشلونة، ينزلون الشاطئ لعدة ساعات، الأجانب في هذا البلد يرتدون حللا جميلة، أثرياء، يدركون حقهم الأصيل في البحث عن صور الفقر المتناثرة، وربما تكون هذه الزيارة، هي الهدف السري غير المعلن لرحلتهم البحرية، ودون اعتبار لمشاعر الشحاذين، يديرون من فوق رؤوسهم، حوارا مسموعا بمصطلحات مضبوطة صارمة، وفنية تقريباً.

– «هناك توافق تام بين نغمية السماء والظلال الخضراء الدقيقة للخرق البالية.»

– «كأنه شيء للرسام جويا».

– «من الممتع مشاهدة المجموعة التي على اليسار. هناك شيء من جوستاف دوريه فيها.. تبدوالتكوينات....»

– «إنهم أكثر سعادة منا».

– «هناك شيء أكثر دناءة فيهم من سكان الأكواخ أولئك. أتذكر الدار البيضاء؟ لايمكن الإنكار بأن الملابس المراكشية تضفي على الشحاذ البسيط عظمة لايملكها الأوروبي».

– «نحن نراهم وهم يتجمدون من البرد.. لابد من رؤيتهم والطقس معتدل»

– «بالعكس.. أصالة الأوضاع..»

يلاحظ المتجولون، داخل صوفهم الدافئ، هؤلاء المحتبين وذقونهم على ركبهم، لا يحميهم شيء من الريح والمطر. لم أشعر قط بكره أو حسد للأغنياء الذين يبتعدون عنا باشمئزاز. الحصافة تتطلب كبت المشاعر، وإبداء الاستسلام والخضوع. الأغنياء يطيعون فقط، قانون الثروة. حين يراهم «لوسين» يقتربون، ينتابه القلق، فهي المرة الأولى التي يرى فيها أناساً جاءوا لتفحص

سلوكه وانحرافاته وغراباته. وشيء ما، كنسه في الحال، دائخا، إلى أعماق اللامسمى، أخذت السقطة أنفاسه، وجعلت قلبه يقفز. وبين أياديهم المغطاة بالقفازات، رأى الومضة الخبيثة لعدسات كاميراتهم القاسية. قليل من الشحاذين كانوا يفهمون الفرنسية، لكنه هو فقط، استطاع التمييز بين ظلال توليفة الغطرسة وعمل الخير الفاشستي. أزاح كل منهم بسأم أغطيته وهلاهيله ورفع رأسه قليلاً.

– هل تريد أن تكسب..؟

وقف «لوسين» مثل الآخرين، إرتكز على كوعه، ثم أقعى، حسب اللقطات التي يريدها السيّاح، ثم ابتسم لشحاذ كبير كما أُمر، بل سمح لهم أن ينكشوا شعره القذر ويسدلوه على جبينه المبتل. استغرقت الأوضاع وقتا طويلاً، فقد كان الجو رماديا. اشتكى السياح من الضوء لكنهم امتدحوا نوعية أفلامهم. لابد أن الشحاذين قد شعروا بغرور ساذج لتأديتهم هذه الخدمة التي بدونها ستبدو إسبانيا أقل جمالاً، لكن «لوسين» شعر بالخجل يغطيه ويغرقه، فهؤلاء ينتمون إلى مكان شهير. هل كنت أدرك، وأنا في «مرسيليا» حين كنت في الخامسة أو السادسة عشرة، وسط أولاد آخرين ننتظر السادة الذين سيختارونا، إنهم كانوا يستخدمونني لتأليف مجموعة من خمسة عشر إلى عشرين بلطجيا، يأتي الناس ليتفرجوا عليهم من جميع أنحاء العالم، فهم العنصر الأساسي، القابل للزيادة، في تلك المدينة العزيزة على الشواذ أعرف القليلين ممن كانوا في عمري آنذاك، وحين ألتقي بأحدهم يقول لي «أوه.. أذكرك أنت من شارع «بوتيري».. أو «أنت من ميدان «بيلزنس».

ينظم الشحاذون أنفسهم، بخضوع مفرط، في أقذر البقاع، مستهترين بأقل دواعي الحذر لحماية ذواتهم. جلس «لوسين» على درجة مشبعة بالرطوبة، وقدماه في مياه قذرة. لم يبذل أي جهد للعودة إلى عالمكم، كان في حالة يأس، صورته التي تدعو للرثاء، كأنه مقصود بها التعبير عن رحلة مليونير خبير.

قال رجل «لقد صورتك خمس مرات» وناول «لوسين» خمس بيزتيات، فشكره بالإسبانية. أبدى الشحاذون فرحا وعرفانا متحفظا. قليل منهم يذهبون لتناول الخمر، والآخرون يواصلون جلساتهم، ويبدون كالنسوّم، لكنهم في الواقع، يخفون حقيقة هي ملكهم وملاذهم: إملاق في حالة نقية. هذا مشهد وسط مشاهد عدة، أحببت من خلاله أن أُنقّي الفكرة عن «لوسين» بحيث تنبثق صورته كاملة تستحق الحظ الحسن الذي كسبته له.

ما أعرفه عنه: الرقة، العذوبة، وسرعة التأثر، مفضلاً ذلك على نقاط قوته وضعفه (نقطة الضعف هي درعه كما يقول المثل)، فضعفه يجعله يقع في مواقف يكون فيها أمامي تعسا حتى يريد أن يقتل نفسه، ولكي أحبه أكثر من نفسي يجب أن أشعر بضعفه وهشاشته حتى لا أقع في

غواية هجراته ضد إرادتي. مغامراتي كانت تخدمه، ولقد عشتها، وتحملت بقسوة العذاب نفسه في الصورة التي اخترتها له، وجسدي وعقلي هما اللذان يعانيان منها، وكقاعدة، سأشكل صورة له عليه أن يقلدها.

لقد قدمت وصفا هزيلا لكيفية أن يأخذ المرء على نفسه تحمّل آلام الآخرين، وأشرت لآلية ذلك باضطراب، لكني أشعر أن الوقت قد فات لبذل الجهد لإلقاء الضوء عليها، فأنا تعب جداً.

أردت أن يشع «لوسين» بالسعادة، لا أن يعيشها، لذا رغبت أن أضعه في صورة أعددتها ورسمتها مسبقا على ضوء مغامراتي. وهكذا عودّته بالتدريج أن يسمعني أتحدث عنها، ليعرف أني منغمس فيها، وأن يتحدث عنها بنفسه دون أن يحمر خجلاً، دون أن يرثي لي ويأسف ؛ لأن عليه أن يعلم أني قد قررت أن ينتفع بها. وتطلب ذلك أن يعرف عن دعارتي وأن يعترف بها، وأن يعرف تفاصيل سرقاتي الصغيرة ويقبلها ويقاسي منها. وأن يعرف خلفيتي، ولواطيتي، وجبني، وخيالي الخاص الذي يتمنى أن تكون لي أم سارقة بوجه شاحب ماكر، حركاتي لطلب الصدقة، صوتي الذي اعتدت أن أجعله أجش أو مكتوما، طريقتي المبتكرة، التي ابتدعتها بنفسي لاصطياد الشواذ، البرقع الذي أحمله معي، خجلي في حضور الغلمان الجملاء، المشهد الذي رفض فيه أحدهم رقتي وفضّل أحد أبناء الحواري لصفاقته، والمشهد الذي أمسك فيه القنصل الفرنسي أنفه حين رآني وطلب إلقائي بالخارج، وتلك الرحلات اللامتناهية عبر أوروبا مع الهلاهيل والجوع والازدراء والتعب والفضيحة.

حين هجرني «ستلتانو» قرب «سان فرناندو»، كان حزني أكبر، وإحساسي بالفقر أعمق (حين يتحدث العرب عن الفقير يقولون مسكين، كنت مسكينا)، لم تكن ذكراه هي التي أحملها معي، بل فكرة عن مخلوق خرافي، حجة وأصل كل الرغبات، مرعب ولطيف، بعيد وقريب لدرجة أن يحتويني، ولأنه أصبح الآن شيئاً أحلم به، وعلى الرغم من قسوته ووحشيته، فإن له ضعف غيمة سديمية غازيّة بأبعادها الضخمة ولمعانها بأسمائها وسمواتها أيضاً.

دُست «ستيلتانو» تحت قدمي وهو مستلق، مسحوقا بالشمس والتعب، وكان الغبار الذي أثرته هو مادته غير المحسوسة، بينما تحاول عيناي اللتان تحرقانني أن تشكل أكثر التفاصيل قيمة لصورة له مستحيلة وأكثر إنسانية.

كي أحقق الشعر هنا، بمعنى أن أنقل إلى القارئ عاطفة كنت أجهلها آنذاك – ومازلت – فإن كلماتي تجد قابلية في وصف البذخ الشهواني والأبهة وطقوس أولئك الذين مضوا، وليس للأسف المزاج العقلي المفترض لعصرنا، بل لجمال الذين ماتوا أو يموتون. وقد أملت بالتعبير عنه أن أتخلص من القوة التي مارستها الأشياء والأعضاء والمواد والمعادن والنزوات التي كانت ولفترة

طويلة هدفا للعبادة- الجواهر، السلطة، الدم، المنى، الزهور، الأعلام القرمزية، العيون، الأظافر، الذهب، التيجان، القلائد، السلاح، الدموع، الخريف، الريح، الكائنات الخرافية، البحارة، المطر، شارات الحداد - وأن أتحرر من العالم الذي تعبر عنه (ليس العالم الذي يسمونه بل الذي يستفزونه وأنا في حمأته)، وظلّت محاولاتي عقيمة، فأنا دائم الرجوع إليها، فهي تتوالد وتشدني نحوها، وكانت غلطتها أني شققت طريقي إلى خدعة الأنساب، وعصر النهضة، والعصور الوسطى، والكارولينيين، والمورفينيين، والبيزنطيين، والعصور الرومانية، والملاحم والغزوات، لأصل إلى الخرافة حيث كل خلق ممكن.

اعتدت أن أتساءل عن المخبوء وراء قناع لعابه، ما المعنى السري في زلاقة وبياض بصاقه الذي لم يكن مرضاً، بل على العكس، قويا بدرجة مرعبة، قادراً على تحريك أعضاء النشاط الحيوية.

أحيانا أحاول أن أعيد إلى الذاكرة مشهد عضوه، فأتخيله حيا أسود، منفصلاً عنه، واقفاً صلبا معتدلاً مثل العلقة منتفخا وممتلئا بالدماء.

(في قراءاتي العشوائية، أمر أحياناً بمصطلحات تتحدى المألوف والمقدس، فتثيرني، وبتلقائية تامة، أستخدمها في تأمل أحبائي، وبإضفاء هذه الأسماء عليهم يتخذون أبعادا هائلة، وقد تبتلعني مغامرة أصيلة، محكومة بقوى بدائية. ربما الحب، وهو الأقدر على تكويني، يجعلني متوافقا مع هذه القوى التي تستدعي الكلمات العنيفة التي استخدمت لتسميتها: العبادات، الطقوس، الثواب والعقاب، الابتهال، الملكية والسحر. بمفردات كهذه، وبالكون الهلامي الذي تقدمه وأحتويه، كنت مشتتا ومقضيا عليّ) في هذه الفوضى وفي هذا التفكك، تحولت من قرية إلى قرية، أتسول في الطريق.

على طول الشاطئ الأسباني، أقام حرس السواحل، سقائف صغيرة تطل على البحر، بين الواحدة والأخرى ميلان أو ثلاثة. ذات ليلة دخل شخص ما سقيفة كنت أنام فيها. حين تسير بائسا في المطر والريح، فإن أية حفرة أو مأوى ضئيل يصبح مقبولاً للسكنى. أحيانا كنت أزينه بشكل فني مريح يتناسب معه: حجرة ملقن في مسرح، مصلى في كنيسة، كهف، محجر مهجور، سيارة شحن.. وهكذا. وقد أزين البيت الذي اخترته، بخيالي، محتفظا بمعماره. كنت ممسوسا بفكرة البيت بينما كل شيء يتنكر لي. كنت أتمنى أن أنتمي للأضلاع الحجرية والأعمدة والتماثيل التي تزين واجهات المباني، للشرفات والحجارة، ولقوة البرجوازية الثقيلة التي تمثلها هذه الأشياء. وأقول لنفسي «يجب أن تحبها وتتعلق بها، وتنتمي اليها حتى تنتمي إليك، ويصبح النظام الذي تدعمه نظامك» لكن، للأسف، لا أعني لها شيئاً بعد. كل شيء يضعني بعيداً عنها، ويمنع هذا الحب. ينقصني الإحساس بالمسرات الأرضية، والآن وأنا غني ومتعب، أطلب من «لوسين» أن يأخذ مكاني.

انثنيت لاثنين، والتففت بسترتي لأبعد رطوبة المحيط، نسيت جسدي وتعبه بتخيل تفاصيل جعلت هذا الكوخ المبني من البوص، مسكنا مريحا، بني بسرعة من أجلي، حتى تنسجم روحي، تماماً، مع الموقع – البحر والسماء والصخور والأرض الجرداء وهشاشة البناء. اصطدم رجل بي. فلعن، أنا لا أخاف في الليل بل على العكس. كان أحد حراس الساحل في حوالي الثلاثين، مسلحا ببندقية، يترقب الصيادين والبحارة الذين يقومون بعمليات تهريب بين مراكش وإسبانيا. أراد أن يطردني، لكن حين أدار ضوء بطاريته على وجهي، ورأى أنني صغير السن طلب مني البقاء معه. شاركته عشاءه – خبز وزيتون وسمك رنجة – وشربت بعض النبيذ. تحدثنا فترة، ثم بدأ يلاطفني، لا أذكر إذا كان حسن الطلعة، أخبرني أنه من الأندلس. كنا نستطيع رؤية البحر من باب السقيفة، سمعنا مجاديف تضرب الماء وأصواتا تتكلم، لكن لم نستطع رؤية أي قارب. كان يدرك أن عليه أن يغادر، لكن مداعباتي أصبحت أكثر حذقا، فلم يستطع أن يشد نفسه بعيداً عني. لابد أن المهربين رسوا بسلام.

بالاستسلام لنزوات الحارس، كنت أطبع أمراً مسيطراً، هو استحالة ألا تخدم الشرطة بالذات. لم أعد، للحظات، ذلك المتشرد الجائع المهلهل الذي تطرده الكلاب والأطفال بعيداً، ولا اللص الجسور الذي يهزأ بالشرطة، بل العشيق المحبوب الذي يسترضي الفاتح تحت سماء مملوءة بالنجوم. وحين أدركت أن سلامة المهربين ترجع إليّ، شعرت بمسئولية، ليس عنهم فقط، بل عن كل الخارجين على القانون، فهناك من يراقبني ولايمكن أن أتراجع. ومبلأني الفخر. وبما أنني استطعت أن أمنعه بتصنع الحب، فلأمنعه لفترة أطول بأن أحبه بكل قوتي، منحته أحلى ليالي حبي، لاليكون سعيداً، ولكن كي أعلو على نفسي وأحرره من خزيه الخاص.

الخيانة والسرقة واللواطة هي الموضوعات الأساسية لهذا الكتاب، هناك صلة بينها – غير واضحة دوما، على الأقل بالنسبة لي– تقر بنوع من التبادل والتنقل في ذوقي بينها.

حين أشبعته بالسرور، سألني إذا كنت قد سمعت شيئاً. سر الليل، سر البحر حيث يجول لصوص خوافي، جعل القلق يركبني. الإحساس الخاص جداً، والعشوائي تماماً والذي وصفته بالشعري، أيقظ في روحي القلق، الذي بدأ ينزاح بالتدريج. في هذا الموقف، فإن غمغمة صوت في الليل، أو ضرب المجاديف الخفية في البحر يثيرني. بقيت منتبها لأقبض على هذه اللحظات التائهة، التي بدت وكأني أبحث عنها، كما تبحث الروح الضائعة عن جسد، كي أشعر بها وأسجلها بوعي. وما إن وجدتها حتى توقفت: استنفد الشاعر العالم، وإذا أقام عالما آخر فهو مجرد انعكاس خاص به. حين بدأت أكتب في سجن «سانتيه» لم يكن ذلك من أجل أن أعيد إحياء عواطفي أو لأتواصل معها، لكني أملت في التعبير عنها بشكل هي تتخذه، أن أقيم نظاما (أخلاقيا) لم يكن معروفا (حتى لي أيضاً).

قلت: نعم.

سألني أين أظن أنهم قد رسوا؟ وبدت نظرته كأنها تحاول اختراق الظلام، كان يحمل بندقيته بيده جاهزا لإطلاق النار. أوشكت أن أشير إلى الاتجاه الصحيح، لم أفعل، لأني أدين بولائي للمهربين. سرت أتبعه كما لو كنت كلبه، مشينا خطوات وسط الصخور، ثم رجعنا إلى الكوخ لنواصل ممارسة الحب.

واصلت السفر عن طريق الساحل. تارة بالليل وتارة بالنهار. عبّرت عن رؤى مجنونة، واضطرني التعب والخزي والفقر أن ألجأ إلى عالم كل حادثة فيه لها معنى لا أقدر على تحديده، لكنه ليس المعنى الذي يوحي به إليكم. قد أسمع في المساء غناء الفلاحين وهم يجمعون البرتقال، وقد أدخل الكنائس، في النهار، لأستريح. ولأن النظام الأخلاقي موجود في التصور المسيحي، رغبت أن أتآلف مع فكرة الله: فأشارك في قداس الصباح في حالة الخطيئة القاتلة، كان القسيس وهو أسباني يتناول القربان من وعاء الخبز، وتساءلت: ما المرقة التي يغمسونه بها؟ كانت أصابع القسيس شاحبة. ولكي يأخذ قطعة من خبز القربان، كان يقوم بحركة مرنة كأنه يحرك سائلاً ثقيلاً في فازة ذهبية. وكما عرفت، بعد ذلك، كانت شرائح من عجين أبيض صلب، ودهشت. ورفضت أن أقبل إلاهاً للنور نابعا من شروح رجال الدين، بقليل من الشر وتفاصيل كريهة، مستمدة من مخيلة طفولية لطقوس رومانية دينية. وقلت لنفسي «من هذا الغثيان أُنشئ البناء الفخم للقوانين التي تمسك بي».

انتابني الخوف، في ظل الكنيسة، وأنا أواجه القسيس في ردائه الكهنوتي، وبما أن النبلاء الإسبان، الراكعين بجانبي لم يتأذوا من هلاهيلي، وهم يتناولون القربان ذاته على أطراف ألسنتهم، عارفين بأن قوته تعلن عن نفسها داخل الروح وليس في مكان آخر، وكي أكشف خداعه وأتواطأ معه، لعنته وأنا أمضغه. في أوقات أخرى، كنت أزكي نفسي، ليس لله، بل للغثيان الذي تثيره داخلي الخدمات الدينية، ولظلال العذارى ومقدمي النذور متأنقين لحفلة ليلة العيد، ولترانيم الموتى أو مطفئي الشموع البسطاء.

إنني أذكر هذا الانطباع الغريب، لأنه يتشابه جزئيا مع انطباع سأعرفه في ظروف شديدة الاختلاف عن مثل هذه الظروف. فالجيش، وأقسام البوليس وضيوفها، والسجون، والشقق المسروقة، روح الغابة، وروح النهر (التهديد واللوم والاشتراك في جريمة تحت وقعهما في الليل) وكل حادثة شاهدتها، كل ذلك يخلق بداخلي الإحساس نفسه من الغثيان والخوف، مما يقودني إلى الاعتقاد أن فكرة الله شيء مخبوء في أعماقي.

تاركاً الجنوب، توجهت إلى فرنسا على قدمي. ماعرفته في مدن سيڤيل، وتريانا، واليكانته ومرقه وقرطبة، كان يتلخص في الملاجئ، وطبق الأرز الذي تقدمه، ومع ذلك، فتحت طلاء الذهب المبهرج والسخيف لهذه المدن، استطعت أن أرى القوى الضارية التي انتفضت واشتدت فجأة، لتقوض كل شيء بعد سنوات قليلة.

وعلى الرغم من انغماسي الشديد في بؤسي، فقد كنت واعيا بحضور الجسد، ولمسة الغضب (قطعت قصيدة من صحيفة شيوعية، كتبت لنقد محاربي الفرقة الزرقاء الفاشيين النازيين، وقد كتبت بنفسي ضدهم، إلا أن هذه القصيدة تهدهدهم، اقتبس منها:

كلنا متدينون طيبون

وكلنا، أيضاً، قتلة ممتازون

إلى الجحيم بالجهورية

فلنتحدث عن ضربات جيدة

فلنتكلم عن زهرة الخروع

❖❖❖

إنها تمطر ثلجا في كاستيل،

إلى صفير الرياح

سنمنح كلنا الصلبان الحديدية

وسنلبس الأخضر

وسننال الصلبان الحديدية

وشفاه كل الفتيات

إنها تمطر ثلجا في كاستيل

هذه القصيدة، التي كتبها شويعر عادي بالإسبانية، تختصر إسبانيا آنذاك، الفرقة الزرقاء مجموعة من القتلة أرسلوا إلى روسيا لمساعدة هتلر، لون السماء يساعد الشيطان.)

لم توقفني شرطة المدن ولاحرس الدولة، فما رأوه يسير لم يعد إنسانا، ولكنه نتاج غريب لسوء الحظ، شيء لاتنطبق عليه القوانين. لقد تخطيت حدود عدم اللياقة. مثلاً، بدأت أرحب في قصري ودون أن يدهش أحد- بأمير عظيم من البلاط الإسباني، ناديته بابن العم وخاطبته بلغة بليغة. واستخدمت هذه الحيلة المجازية لأعطيك فكرة واضحة عن العزلة التي وصلت إليها،

ومنحتني سلطة استقلالية فرضها عليّ موقف معين، كنت قريب الملوك والأمراء من خلال علاقة سرية مجهولة للعالم، كتلك التي تسمح للرعاة أن يثرثروا بألفة مع الملوك. هذا القصر الذي أتحدث عنه (لأنه ليس له اسم آخر). هو جماع معمار الرقة الهشة التي نسجتها كبريائي من عزلتي.

حمَل جوبيتر «جانيميد» وضاجعه، كنت أستطيع الانغماس في كل أنواع الفجور، فلديّ الأناقة والمظهر البسيط لليائس. وتوجد شجاعتي في تدمير كل الأسباب العادية للمعيشة، واكتشاف غيرها، ويتم الاكتشاف ببطء.

بعد ذلك اكتشفت فضائل النظام – ليست القواعد الرسمية الموجودة في الإصلاحية – فلكي أصبح قملة، كما كان يسمى الأطفال الصغار، كان يجب أن أقمع نفسي. وقد نفذت أعمالاً كثيرة. تلقائياً مثل معظم البلطجية الصغار، تحقق لي أن أكون قملة. عرفت المآسي والمتع الساذجة، فلم تقدم لي الحياة سوى الأفكار التافهة التي يمكن لأي شخص أن يتلفظ بها. أشبعت إصلاحية «متراي» ملذاتي الحسية إلى نهايتها، لكنها كانت تجرح إحساسي دوما. قاسيت الكثير هناك، شعرت بالخزي القاسي نتيجة لحلق رأسي وارتدائي ملابس لايمكن الحديث عنها، واحتجازي في ذلك المكان القبيح. وعرفت احتقار قمل آخر، كان أقوى مني وأكثر مكرا. ولكي أتحمل تعاستي، حققت دون قصد، حين أنسحب إلى أعماق نفسي، نظاما صارما، كانت آليته تتم بالشكل التالي: عند كل تهمة تلصق بي، غير عادلة بالطبع، كنت أجيب من أعماق قلبي بنعم. وما إن أنطق بالكلمة أو الجملة التي تدل على الإدانة، إلا وأشعر بحاجة داخلي لأن أصبح بالفعل ما اتهمت به. كنت في السادسة عشرة. لم أترك في قلبي مكانا يتسع لأن تلجأ إليه مشاعر براءتي، رضيت أن أكون الجبان والخائن واللص والشاذ الذي يرونه فيّ. وكان الاتهام يتم دون دليل، ولكي أكون مذنبا فلابد أن أكون قد ارتكبت هذه الافعال التي يقوم بها الخونة واللصوص والجبناء، واكتشفت داخل نفسي، بقليل من الصبر، أسبابا كافية لأن أسمى بتلك الصفات، وأذهلني أن أعرف أني مكوّن من مجموعة من القذارات. أصبحت ذليلا، ورويدا رويدا اعتدت هذه الحالة، وقبلتها بصدر رحب. وتحول الاحتقار الذي كنت فيه، إلى كراهية، لقد نجحت، لكن كم من العذاب قاسيت.

بعد سنتين كنت قويا. ساعدني، تمرين من هذا النوع– مشابه للتمارين الروحية– أن أرفع الفقر عاليا كفضيلة. أما النصر، فقد كسبته على نفسي فقط. حتى حين أقابل استهزاء الرجال والأطفال، فنفسي هي التي يجب أن أهزمها، حيث أجعلها تتوافق مع الموقف لا أن يتوافق

الآخرون معها. وأصبحت سلطتي على نفسي كبيرة، ومن السخف أن أحاول بسطها على العالم. فلا «ستيلتانو» ولا أصدقائي الآخرون كانوا ذوي نفع لي، فخلال علاقتي بهم، كنت مشغولاً جداً بموقفي كعاشق كامل. تجوالي في أوروبا اكسبني نوعا من الاتزان لولاه لرفضت الاهتمامات اليومية في سبيل نوع من التأمل.

قبل حدوث ما سأرويه، قمت ببعض الأعمال التي لم أتفحصها بالدقة التي تتطلبها حياتي العقلية. ذات مساء في «أنتيرب»، قرب أحواض السفن، استطعت ربط رجل ذهب معي، كان ستيلتانو قد ذهب ليرقص مع روبرت. كنت وحيداً وحزينا وغيورا. دخلت بارا وطلبت مشروبا، وفكرت لحظة في البحث عن الصديقين، لكن فكرة البحث ذاتها تثبت أنهما ضائعان. فالبارات المليئة بالدخان والضوضاء، حيث يرقصان ويشربان، كانت الصورة الأرضية لمنطقة أخلاقية لذلك الصباح الذي عزلا نفسيهما فيه عني وعن باقي العالم. حين دخلت الغرفة، رأيت «ستليتانو» على وشك المغادرة وهو يمد يده بالقفاز، وروبرت، مبتسما، يقفل الزرار دون أن يلمسها. لم أعد ذراع «ستيلتانو» اليمنى.

في البار، طلب مني رجل ضخم كبريتا، وقدم لي شرابا. حين غادرنا أرادني أن أذهب معه إلى البيت. رفضت. تردد، ثم قرر أن يتم الأمر في أحواض السفن. لاحظت ساعته الذهبية وخاتم الزواج ومحفظته، أدركت أنه لن يصرخ طلبا للنجدة، لكنه بدا قويا، لن أستطيع تنفيذ الأمر إلا بالحيلة. لم يكن في ذهني أية فكرة، فكرت فجأة في استخدام الحبل الذي أعطانيه «ستيلتانو». حين وصلنا ركنا منعزلا، طلب مني الرجل أن أفعل به.

قلت: وهو كذلك، أنزل بنطلونك.

وجعلته ينزل بنطلونه حتى قدميه بحيث يتعثر به إن حاول الفرار،

قلت: افتح.

وبكلتا يديه فعل ما أمرته، وبسرعة ربطتهما خلف ظهره بالحبل.

قال: ماذا تفعل؟

– ألم تحزر أيها العلق الكبير..

استخدمت اللغة ذاتها والنغمة عينها التي سمعت «ستيلتانو» يستخدمها حين قُبض علينا مرة ونحن نسرق دراجة.

حين نستريح، كانت نظرة ستيلتانو ترق بنوع من اللطف. تتناول يده الوحيدة، بعطف معين، قائمة الطعام المزيتة عن طاولة المطعم. الأشياء تنجذب إليه إذا كان لايزدريها، مجرد لمسه

للشيء يجعله يدرك جوهره، فيستخدمه بعظمة، وحين يبتسم إليه يصبح عروسه.

تسحرني الابتسامة على وجه الصغير أكثر من التكشيرة. أتأملها، أحيانا، لفترة طويلة، تفتنني، تصبح شيئاً منفصلا عن الوجه، تحيا بروح خاصة، نوعا من حيوان ثمين، حياته قوية لكنها هشة. إنها حيوان محبوب وخرافي، لو أستطيع أن أنتزعها وأبعدها عن الوجه الذي ترتسم عليه، وأحملها في جيبي، فإن سخريتها الماكرة ستساعدني على تحقيق الخوارق. احيانا أحاول أن أزين نفسي بها – لأتحصن ضدها – لكن عبثا، فهذه الابتسامة هي اللص الحقيقي.

قال الرجل: اسمع.. فُكني وسأعطيك..

– اخرس.. إني أعرف عملي..

الخوف من أن يُقبض عليّ، أو أن يقطع الرجل الحبل، جعلاني أتقن عقدة الحبل جيدا. فتشت جيوبه، وتعرفت أصابعي، بفرحة شديدة، على العملة الورقية وأوراقه الشخصية، كان يرتعد من الخوف ولم يجرؤ على الحركة.

قال: هيا.. دعني..

– اخرس.

لايوجد سبب لمثل هذه اللحظات أن تنتهي. فتحت رحمتي إحدى ضحاياي، وأردت أن أجعله يدفع كثيراً لكونه كذلك. كان المكان مظلما وغير آمن. فقد يقوم أحد ضباط الجمارك بجولة ويكشفنا.

قطعت ساعته التي كانت معلقة بسلسلة في ملابسه.

غمغم: إنها تذكار.

– ولأنها كذلك آخذها.. فأنا أحب التذكارات. لطمته على وجهه، فأنَّ في صمت. وبسرعة «ستيلتانو» ذاتها، فتحت مطواتي وأريته النصل.

وددت لو سردت بدقة أكبر ماذا عنت لي هذه اللحظة. القسوة التي دفعت إليها نفسي، أعطتني قوة مذهلة، لا لجسدي فقط، بل ولعقلي أيضاً. شعرت بأني قادر على أن أكون رحب الصدر نحوه وأطلقه، وقادر أيضا على قتله. وهو نفسه يدرك الآن قوتي، وعلى الرغم من الظلام عرفت أنه ذليل، ومستعد تماما أن يخدم نشوتي. أطلقته.

– لاتصرخ وإلا قتلتك.

(رينيه، الذي سأتحدث عنه فيما بعد، أخبرني أن شاذا في «نيس» اعتاد أن يفعل الشيء نفسه، هذه الحكاية التي رواها لي قربتني منه)

سرت خطوات في الظلام. تمتم بصوت لطيف، مرتعشا بسبب رفضي التعامل معه: اسمع.. دعني على الأقل.. أداعبه لك..

حين قابلت «ستيلتانو»، كان معي عدة آلاف من الفرنكات البلچيكية وساعة ذهبية. فكرت في البداية، أن أخبره بمغامرتي كي أغيظه وروبرت أيضا. ثم بالتدريج وخطواتي تبطئ أصبحت أقل زهوا، وقررت أن أكون الأمين الوحيد على هذه المغامرة. وأخفيت غنيمتي. كانت المرة الأولى التي أرى فيها نظرة الذي أسرقه. كانت قبيحة وكنت السبب في هذا القبح. الشيء الوحيد الذي شعرت به، سعادة قاسية جعلت وجهي لامعا ومتألقا. كنت آنذاك في الثالثة والعشرين، ومن تلك اللحظة شعرت بأني قادر على التقدم في القسوة. امتلاكي للنقود والساعة أزالا ماتبقى من تذوقي للفقر البائس- دون تدمير ذوقي للتعاسة - ومع ذلك ربحت من نظامي الحازم في التسول - لأحافظ على قسوة ولامبالاة الإحساس بآلام الآخرين- وارتكبت اعتداءات أخرى نجحت. وتخليت عن الحالة المتقلبة لوجه اللص المخزي. لأول مرة أسعى وراء الإنسان وأحاربه وجها لوجه بلا قناع. وشعرت أني أصبحت نابضا بالحياة، بارد القلب، صلبا، قذراً، باتراً، قاطعا ولامعا كحد السيف. ولم يلاحظ أحد هذا التحول سواء ستيلتانو أو روبرت. عاشا في شراكة وصداقة يبحثان عن النساء، أو يهملانهن حين يكونان معا. موقفي من «ستيلتانو» لم يتغير. أظهرت اللامبالاة ذاتها تجاهه، والصفاقة عينها لروبرت. شخصية «ستيلتانو» بأعماقها الأكثر قيمة في نفسي، ظلت تراقب وتدير الأمور، تحميني كدرع البطل، أو إنني كنت أستخدم صوت صديقي وكلماته بالطريقة التي يلمس بها المرء الأثر المقدس الذي يحتاج سحره بإلحاح؟ كان ستيلتانو هو الذي يحارب مكاني. كان مستعدا لتناول الشراب مع الشواذ، يتباهى في حضورهم، ثم يفلسهم، كنت ممسوسا به. وآلمني أن أعرف ذلك، ولو دفعتني كبريائي للتخلص من عونه لكنت انتكست. لم يكن واعيا بالهدف الخفي الذي كنت أخدمه بسببه، كان كما يسمونه في الوطن: الكيان الذي يحارب مكان الجندي ويضحي من أجله. ارتعدت وأنا أنزل السلالم من الغرفة حيث جعلت الزبون يناولني نقوده، لأن «ستيلتانو» كان يبتعد عني بسرعة كبيرة، حين عددت ربحي لم يكن يقصد تقديمه إليه، فقد كنت وحيداً.

وانتابني القلق ثانية. كنت محكوما بعالم الذكور. حين أراهم يندمجون مع الظل، تقدم لي كل مجموعة من الغلمان، لغزا لن يقودني حله إلى طريق الصواب. غلمان صامتون هادئون، لهم نشاط كرات كهربية تنجذب نحو شمس من الحيوية، نحو الحب، وتساءلت افرض إنى هاجمت أحدهم؟ ماذا تكون النتيجة ؟ تفسخ وتحطم مفاجئ؟ لابد أنهم واعون بذلك بشكل غامض، ولذا لايبقون في المكان طويلا.

أرهقني الجهد الذي ساعدني، لتوه، على مواجهة الرجال، وأسلمني إلى قوى الظلام، أصبحت صافي الذهن. غزاني خوف مستعاد. قررت ترك مثل هذا النشاط الخطر. في المساء، ما إن التقت إليّ رجل بالكاد، وأنا أسير، إلا و«ستيلتانو» يقحم نفسه بدهاء، فينفخ عضلاتي، ويوسع خطواتي، ويثقل إيماءاتي، يلونني تقريبا. كان يقوم بعمله. شعرت وأنا أسير بخطواتي على الرصيف، بصوت حذائه المصنوع من جلد التمساح «يئن» تحت وطأة جسمه الثقيل في مملكة الفقراء. ممسوسا بذلك، عرفت أني قادر على كل أنواع القسوة. كنت أكثر بصيرة، فبدلا من الخوف، زانني تحولي بصفات رجولية، وشعرت أني أصبحت عنيفا رشيقا. وذات مساء، واجهت، بغضب، شاذا متكبرا، وجعلت ضرباتي كأني أقرع طبلا مرئيا. تمتمت من بين أسناني: أنت أيها القملة القذرة.

بينما كنت حزينا داخل نفسي، لأني أهنت وجرحت أحد أولئك الذين كانوا التعبير البائس عن كنزي المفضل: اللواطة.

لم أكن واعيا بتنوع النظام الاجتماعي الذي طردني بسبب مولدي ومزاجي، وكنت أعجب من ترابطه التام الذي رفضني، وأندهش من صرح ضخم كهذا تحدث تفاصيله ضدي. فلاشيء في العالم كان خارج الصدد: النجوم على كتف جنرال، المقتطفات من سوق الجملة، حصاد الزيتون، نظام هيئة القضاء، تبادل القمح، روضة الزهور.. لاشيء. هذا النظام، الخائف المخيف، متداخل التفاصيل، له معنى: نفيي. ولذا فقد عملت ضدة ببراعة، في الظل. والآن أجرؤ على لمسه، وأجرؤ بالجهر بذلك، بإهانة أولئك الذين يعبرون عنه. وعرفت مكاني فيه حين عرفت بحقي أن أفعل ما فعلت. وبدا لي طبيعيا أن يدعوني الجرسونات في المقاهي بالسيد.

وكنت، بقليل من الصبر والحظ، أستطيع أن أوسّع الثغرة، لكني تأخرت بسبب عادتي المتأصلة في العيش ورأسي محني، ولأن أخلاقياتي مناقضة لتلك التي تحكم العالم. باختصار، كنت خائفا أن أفقد فائدة عملي ومجهودي المؤلم في الاتجاه المضاد لكم.

تصرّف «ستيلتانو» تجاه عشيقته بالطريقة الوحشية ذاتها، التي أحسده عليها، مع أنه يتسامح مع سخرية «روبرت» اللطيفة. كان آنذاك، يبتسم ببهجة كاشفا عن أسنانه البيضاء. إذا ابتسم لي، فهي الابتسامة ذاتها، وربما لأني لا آخذها بدهشة، فلم أكن أستطيع أن أقرأ فيها الطزاجة نفسها، والتواطؤ عينه. كان يتقافز مثل الحيوانات عند قدمي «ستيلتانو»، يجدل أكاليله عليه، كان الأكتع هو العمود، والآخر النبات المتسلق. وأزعجني، إنه برغم حب أحدهما للآخر، فلم يمارسا الحب معا، وبدا لي «ستيلتانو» صعب المنال أكثر وأكثر، اكتشفت، لا أذكر كيف، أنه لم يسرق الدراجة النارية من الشرطي، وحتى لم يسرق نهائيا. لقد اتفق مع الشرطي على أخذ الدراجة وبيعها، واقتسام النقود، وكل ما كان عليه عمله، مجرد ركوبها وبيعها: اكتشاف كهذا كان لابد أن ينفرّني منه، لكنه جعلني أُعزه أكثر. كنت أحب بلطجيا مزيفا له تعاون وثيق مع شرطي.

إنهما خائن وأفّاك. مصنوعان من الوحل والضباب، كان «ستيلتانو» معبودا مازلت على استعداد للتضحية بنفسي من أجله، كنت ممسوسا به بكل معنى الكلمة.

كنت أليفا مع ماضي «ستيلتانو» في الفرقة الأجنبية، عرفت عنه تفصيلات تافهة كان يذكرها بين حين وآخر، وعرفت أيضا كيف كان يقضي وقته بين انفصالنا ثم التقائنا، ففي خلال السنوات الخمس أو الأربع كان يجوب فرنسا يبيع «دنتلا» رخيصة بسعر غال جدا. كان يبتسم وهو يحكي لي القصة التالية: زيف له أحد الأصدقاء «كارتا» يخوله بيع الدانتلا التي تصنعها الصغيرات المصابات بالسل في مصحة كامبو.

– «اخترت كامبو لأنه لاتوجد مصحة هناك، وبذلك لا أُتهم بالاحتيال. كنت أذهب في كل مدينة إلى القسيس، أريه الكارت، ويدي المقطوعة، والدانتلا. وأخبره أنه سيكون لطفا منه إذا كان أطفال كنيسته المرضى يصنعون بعض أغطية المذبح، لايجدي ذلك معه، لكنه يرسلني إلى كل النساء الثريات، فلا يجرؤن على الرفض، وهكذا أحصل على مئة فرنك مقابل قطعة دانتلا صغيرة مصنوعة آليا لاتساوي أكثر من خمسة فرنكات في شارع ميرا».

هذا ما أخبرني به، دون كشكشة، بصوته الذي بلا نغمة. قال إنه جمع كثيرا من النقود، لم أصدقه لأنه لم يكن نشيطا جدا. مايجذبه أكثر من أي شيء، فكرة عربيدة كهذه.

ذات يوم، بينما كان في الخارج، رأيت لديه كمية كبيرة من الميداليات العسكرية في درج. اعترف لي أنه ارتدى زيا فرنسيا زين صدره بهذه الميداليات، وسار عبر الانفاق مظهرا عاهته، يجمع الصدقات.

قال: كنت أكسب مئتين من الفرنكات يوميا، كنت متأكدا من الضحك على هؤلاء الباريسيين.

وأعلمني بتفاصيل أخرى، ليس لديّ وقت للخوض فيها. مازلت أحبه، صفاته (وهي كتلك التي لجافا) جعلتني أفكر في عقاقير معينة، وروائح خاصة، لايمكن أن تسميها مقبولة، لكن لاتستطيع الفرار منها.

عاد «أرماند» في الوقت الذي توقفت فيه عن انتظاره. وجدته يستلقي على السرير يدخن سيجارة.

قال: مرحبا ياغلام

ومد لي يده ليصافحني لأول مرة.

– هل سارت الأمور بشكل جيد.. لاصعوبات..؟

إنهما خائن وأفّاك. مصنوعان من الوحل والضباب، كان «ستيلتانو» معبودا مازلت على استعداد للتضحية بنفسي من أجله، كنت ممسوسا به بكل معنى الكلمة.

كنت أليفا مع ماضي «ستيلتانو» في الفرقة الأجنبية، عرفت عنه تفصيلات تافهة كان يذكرها بين حين وآخر، وعرفت أيضا كيف كان يقضي وقته بين انفصالنا ثم التقائنا، ففي خلال السنوات الخمس أو الأربع كان يجوب فرنسا يبيع «دنتلا» رخيصة بسعر غال جدا. كان يبتسم وهو يحكي لي القصة التالية: زيف له أحد الأصدقاء «كارتا» يخوله بيع الدانتلا التي تصنعها الصغيرات المصابات بالسل في مصحة كامبو.

– «اخترت كامبو لأنه لاتوجد مصحة هناك، وبذلك لا أتهم بالاحتيال. كنت أذهب في كل مدينة إلى القسيس، أريه الكارت، ويدي المقطوعة، والدانتلا. وأخبره أنه سيكون لطفا منه إذا كان أطفال كنيسته المرضى يصنعون بعض أغطية المذبح، لايجدي ذلك معه، لكنه يرسلني إلى كل النساء الثريات، فلا يجرؤن على الرفض، وهكذا أحصل على مئة فرنك مقابل قطعة دانتلا صغيرة مصنوعة آليا لاتساوي أكثر من خمسة فرنكات في شارع ميرا».

هذا ما أخبرني به، دون كشكشة، بصوته الذي بلا نغمة. قال إنه جمع كثيرا من النقود، لم أصدقه لأنه لم يكن نشيطا جدا. مايجذبه أكثر من أي شيء، فكرة عربيدة كهذه.

ذات يوم، بينما كان في الخارج، رأيت لديه كمية كبيرة من الميداليات العسكرية في درج. اعترف لي أنه ارتدى زيا فرنسيا .زين صدره بهذه الميداليات، وسار عبر الانفاق مظهرا عاهته، يجمع الصدقات.

قال: كنت أكسب مئتين من الفرنكات يوميا، كنت متأكدا من الضحك على هؤلاء الباريسيين.

وأعلمني بتفاصيل أخرى، ليس لديّ وقت للخوض فيها. مازلت أحبه، صفاته (وهي كتلك التي لجافا) جعلتني أفكر في عقاقير معينة، وروائح خاصة، لايمكن أن تسميها مقبولة، لكن لاتستطيع الفرار منها.

عاد «أرماند» في الوقت الذي توقفت فيه عن انتظاره. وجدته يستلقي على السرير يدخن سيجارة.

قال: مرحبا ياغلام

ومد لي يده ليصافحني لأول مرة.

– هل سارت الأمور بشكل جيد.. لاصعوبات..؟

الشواذ. خرست. ثم قلت: من أخبرك بذلك؟

– لا تدع ذلك يقلقك.

لقد عرف أيضا إني ربطت واحدا منهم. قال: عمل جيد.. لم أكن لأصدقه. أخبرني أن الرجال في الميناء يعرفون طريقتي. كل ضحية تمرر السر وتذكرني لعمّال الميناء (كلهم كانوا منغمسين في علاقات مع الشواذ)، حين يصطادونها لقضاء ليلة. لقد أصبحت معروفا وأخيف الآخرين. جاء «أرماند» ليحدثني عن سمعتي، ويوضح أن في ذلك خطرا عليّ. لقد سمع عن ذلك بمجرد عودته، وإذا لم يكن «ستيلتانو» أو روبرت على وعي بذلك، فسيعرفان قريبا.

– مافعلته هو الصواب يافتى.. لقد أعجبني.

– لم يكن الأمر صعبا.. فهم يكونون خائفين.

– صواب تماما.. لم أكن لأصدق.. هيا نتناول الشراب.

حين عدنا لم يطلب مني شيء. وذهبنا للنوم. في الأيام التالية رأينا «ستيلتانو» ثانية، وأُعجب «أرماند» بروبرت، وأراد أن يمتلكه بمجرد أن وقعت عيناه عليه، لكن الولد تهرب منه بخبث. وقال له ذات يوم ضاحكا:

– لقد حصلت على چان.. ألا يكفيك ذلك.؟

– إنه ليس الشيء نفسه.

منذ عرف بجسارتي الليلية، عاملني «أرماند» كصديق. كان يتحدث لي وينصحني. واختفى ازدراؤه، واستبدله بنوع من العناية اللطيفة الواعية. ونصحني كيف ألبس، وفي الأمسيات حين ننتهي من تدخين سجائرنا كان يقول «تصبح على خير» ويذهب للنوم. كان يحزنني، وأنا أستلقي بجانبه، وأحبه، ألا أستطيع تقديم الدليل على حبي بابتداع ملاطفات رائعة. شكل الصداقة التي منحها لي، قيدني بصرامة شديدة، ومع أنني كنت واعيا بالزيف في مغامراتي وبالخوف الذي في جسارتي، إلا أني أجبرت نفسي أن أكون الرجل الذي أراد «أرماند» أن يراه فيّ. وقلت لنفسي: إن الحركات التي ترفض الأفعال البطولية العادية، يجب أن تتوافق معها. لم يسمح لي أرماند بخدمة مسراته، الاحترام وحده هو الذي منعه من استخدام جسدي كما فعل سابقا، مع أن هذا الاستخدام كان سيمنحني القوة والشجاعة.

كان «ستيلتانو» وروبرت يعيشان على مكاسب «سيلڤيا». روبرت، الذي نسي تعاملنا معا في التحايل على الشواذ، تظاهر بأنه يحتقر العمل الذي أقوم به.

قال: أتسمي ذلك عملا؟ تسعى وراء العجائز الذين لايستطيعون الوقوف معتدلين لولا

الشواذ. خرست. ثم قلت: من أخبرك بذلك؟

– لا تدع ذلك يقلقك.

لقد عرف أيضا إنى ربطت واحدا منهم. قال: عمل جيد.. لم أكن لأصدقه. أخبرني أن الرجال في الميناء يعرفون طريقتي. كل ضحية تمرر السر وتذكرني لعمّال الميناء (كلهم كانوا منغمسين في علاقات مع الشواذ)، حين يصطادونها لقضاء ليلة. لقد أصبحت معروفا وأخيف الآخرين. جاء «أرماند» ليحدثني عن سمعتي، ويوضح أن في ذلك خطرا عليّ. لقد سمع عن ذلك بمجرد عودته، وإذا لم يكن «ستيلتانو» أو روبرت على وعي بذلك، فسيعرفان قريبا.

– مافعلته هو الصواب يافتى.. لقد أعجبني.

– لم يكن الأمر صعبا.. فهم يكونون خائفين.

– صواب تماما.. لم أكن لأصدق.. هيا نتناول الشراب.

حين عدنا لم يطلب مني شيء. وذهبنا للنوم. في الأيام التالية رأينا «ستيلتانو» ثانية، وأُعجب «أرماند» بروبرت، وأراد أن يمتلكه بمجرد أن وقعت عيناه عليه، لكن الولد تهرب منه بخبث. وقال له ذات يوم ضاحكا:

– لقد حصلت على چان.. ألا يكفيك ذلك.؟

– إنه ليس الشيء نفسه.

منذ عرف بجسارتي الليلية، عاملني «أرماند» كصديق. كان يتحدث لي وينصحني. واختفى ازدراؤه، واستبدله بنوع من العناية اللطيفة الواعية. ونصحني كيف ألبس، وفي الأمسيات حين ننتهى من تدخين سجائرنا كان يقول «تصبح على خير» ويذهب للنوم. كان يحزنني، وأنا أستلقي بجانبه، وأحبه، ألا أستطيع تقديم الدليل على حبي بابتداع ملاطفات رائعة. شكل الصداقة التي منحها لي، قيدني بصرامة شديدة، ومع أنني كنت واعيا بالزيف في مغامراتي وبالخوف الذي في جسارتي، إلا أني أجبرت نفسي أن أكون الرجل الذي أراد «أرماند» أن يراه فيّ. وقلت لنفسي: إن الحركات التي ترفض الأفعال البطولية العادية، يجب أن تتوافق معها. لم يسمح لي أرماند بخدمة مسراته، الاحترام وحده هو الذي منعه من استخدام جسدي كما فعل سابقا، مع أن هذا الاستخدام كان سيمنحني القوة والشجاعة.

كان «ستيلتانو» وروبرت يعيشان على مكاسب «سيلڤيا». روبرت، الذي نسي تعاملنا معا في التحايل على الشواذ، تظاهر بأنه يحتقر العمل الذي أقوم به.

قال: أتسمي ذلك عملا؟ تسعى وراء العجائز الذين لايستطيعون الوقوف معتدلين لولا

عصيهم وياقاتهم المنشاة.

قال أرماند: إنه يفعل الصواب في التقاط ضحاياه.

لم أدرك أن إجابة «أرماند» ستدفعه على الفور للحديث عن أجرأ ثورة على الأخلاق. وقبل أن يملك «روبرت» فرصة كي يجيب، أضاف بصوت أكثر لطفا «وماذا عني؟ ماذا تظنون؟»، والتفت إلى «ستيلتانو»: حين يكون هناك ضرورة، ليس عواجيز الرجال.. بل عواجيز النساء.. أتفهمني؟ العمل يكون جيداً حين تنفذه جيدا. والتقط أضعفهن، فكل ما تريده هو النقود. وحين تدرك أننا لسنا في عصر الفروسية فستتعلم الكثير. وأشار إليّ قائلاً: إنه أفضل منكما وهو على صواب.

لم يكن صوته يرتعش، وكانت عاطفتي جياشة، وكنت، وسط كل هذا، خائفا أن تفلت منه بعض الأسرار التي تسبب كارثة. قوة الكلمة الأخيرة «على صواب» زادت ثقتي بنفسي. وداخلي، كان ينساب بحشد من الأفكار (يصب في بحر من الندم) يلومني لاستسلامي إلى مظاهر الشرف. ولم يناقش «أرماند» المسألة ثانية، ولم يجرؤ «ستيلتانو» أو «روبرت» على مناقشتها. لكنها تركت بذورها في نفسي. وبدا لي أمرا مضحكا أن يكون هناك «رمز شرف» خاص بالبلطجية، وأصبح أرماند بالتدريج القوة في مملكة الأخلاق. لم أعد أنظر إليه ككتلة واحدة، بل كمجموعة من التجارب المؤلمة. ومع ذلك بقي جسمه كتلة ضخمة، وأحببته لأنه بسط حمايته عليّ. أن أجد سلطة كهذه في رجل بعيد عن الخوف– أو هكذا أردت أن أعتقد جعلني أفكر بوضوح جديد غريب. وفي وقت متأخر كثيرا، بلاشك، قررت أن أطور واستغل المشاعر الكثيرة الغامضة والممزوجة بالخجل والبهجة، وأكتشف أن ذاتي تسكنها تناقضات مختلطة، لكن في ذلك الوقت، أحسست أن الأمر يرجع لنا لنعلن المبادئ التي ستخدمنا. ونتيجة للتفكير، ولموقف «أرماند»، انفصلت إرادتي عن ضباب الأخلاقيات، واستطعت أن أستعملها على طريقتي في مواجهة الشرطة.

كان لقائي مع «برناردیني» في مرسيليا، وحين عرفته جيدا أسميته «برنارد». بالنسبة لي، فإن الشرطة الفرنسية تملك قوة أسطورية هائلة. كنت في الحادية والعشرين، وكان برنارد في الثلاثين. أود لو وصفته بدقة، لكن ذاكرتي لاتحتفظ إلا بالانطباع الجسدي والقوة الأخلاقية، وهما ما أثرا عليّ آنذاك. كنت في بار في شارع «توبانو» وأشار لي شاب عربي عليه: إنه قوّاد درجة أولى.. دائما بصحبة فتيات جميلات. بدت لي الفتاة التي معه جميلة جدا. لم أكن لألتفت إليه لو لم أعرف أنه شرطي. الشرطة في البلاد الأوروبية تبعث فيّ الخوف، كما تفعل مع أي لص آخر، أما الشرطة الفرنسية فتدفعني إلى الوقوع في الرعب، ربما بسبب شعور المواطنة، وبالذنب القاطع الذي لارجوع فيه، أكثر منه بسبب الخطر الذي أكون فيه مصادفة. عالم الشرطة، مثل العالم التحتي، وهو عالم لن أدخله. وضوح فكري (ووعيي) منعاني من الانجرار إلى

ذلك العالم المبهم المتحرك بلاشكل، الذي يخلّق نفسه باطراد، بسيط وخرافي، تكون الدراجة النارية بخواصها القوية، هي الممثل له هنا. ذلك مايعنيه لي البوليس الفرنسي، ربما بسبب لغته التي اكتشفت فيها أغوارا عميقة (لم تعد مؤسسة اجتماعية، بل قوة مقدسة تؤثر مباشرة على روحي، وتزعجني. الشرطة الألمانية، وفي زمن هتلر فقط نجحت أن تكون «عسكر وحرامية» في الوقت ذاته. هذا التركيب المهيمن للمتضادات، هذه الكتلة من الحقيقة، كانت مخيفة، ومحملة بجاذبية ستظل تقلقنا لفترة طويلة.)

كان «برنارد»، بالنسبة لي، كائنا مرئيا مختصرا لمؤسسة مسيطرة، مزعجا كمراسيم الجنازة وزينتها، وباثا للخشية كالهالة الملكية. ولأني أعرف أن في ذلك الجلد واللحم تكمن آلة لم أحلم قط أن تكون لي، نظرت إليه برعدة. كان شعره الأسود لامعا ومفرودا «كرودلف فالنتينو»، بفرق مستقيم أبيض على الجانب الأيسر. كان قويا، ووجهه صلبا كالجرانيت، وأملت أن تكون روحه قاسية ووحشية.

ورويدا رويدا بدأت أفهم جماله. بل ظننت أني صانعه بدقة على غرار فكرة البوليس التي يحددها عن الآخرين.

– البوليس السري.. إنه في المباحث

ورتبت أن أتبعه بمهارة، وأراقبه عن بعد خلال الأيام التالية. ونفذت خطة ذكية لمتابعته كظله.. ودون أن يشك في شيء، فقد انتمى لحياتي. وحين تركت «مرسيليا» احتفظت سرا بذكرى مؤلمة ورقيقة عنه.

بعد سنتين، اعتقلت في محطة «سان شارل» كان مفتش البوليس قاسيا معي، على أمل أن أعترف. فتح الباب، ولدهشتي دخل «برنارد»، خفت أن يضيف لطماته إلى لطمات زملائه، لكنه أوقفهم، ماكنت أظنه يذكر وجهي وقد رآه عدة مرات منذ سنتين. لم يكن التعاطف أو الرأفة هي التي جعلته ينقذني، فهو شرطي كالآخرين، ولا أستطيع تفسير تصرفه، لكنه حماني. حين أُطلق سراحي، بعد يومين، رتبت أن أراه، وشكرته.

– لقد كنت كريما جدا.

– انس. فلا فائدة من ضرب فتى بهذه الطريقة السخيفة.

– هل تتناول مشروبا معي؟

قبل. وفي اليوم التالي رأيته ثانية، وكان هو الذي دعاني. كنا الزبونين الوحيدين في البار. قلت له وقلبي يدق بشدة:

– عرفتك منذ فترة طويلة.

– منذ متى؟

واعترفت له، والتوتر في حلقي، والخوف من أن يغضب، بحبي له. وأخبرته عن حيلي في تتبعه. ابتسم: إذن كنت لك حبا عابرا.. والآن؟

– مازال القليل منه.

اتسعت ابتسامته. لقد شعر بالإطراء. (اعترف لي «جافا»، أن حب الرجال وإعجابهم، يشعره بفخر أكبر من حب النساء) كنت واقفا بجانبه، أخبره عن حبي له، وقمت بدور المهرج، خوفا من أن تذكره خطورة هذا الاعتراف بخطورة وظيفته. بابتسامة ولهجة شهوانية قليلاً:

– ماذا تتوقع؟ أنا أحب الرجال أصحاب الطلعة الجميلة.. نظر نحوي بتسامح، رجولته تحميه وتمنع القسوة.

– ماذا لو استجوبتك بقسوة ذلك اليوم؟

– كنت سأشعر بالاستياء

وأحجمت عن قول المزيد. فلو واصلت حديثي بتلك اللهجة لما اكتفيت بالقول إنه حب عابر، ولاعترفت بحب عميق كان سيجرح تواضع شرطي المباحث.

قال بضحكة: ستتغلب على حبك.

– آمل ذلك.

لم يكن واعيا، وأنا أجلس بجانبه في البار، مسحوقا بضخامته وثقته، بإنني كنت مثارا، بالدرجة الأولى، من شارة المفتش التي يحملها. الشيء المعدني، بالنسبة لي، له قوة الولاعة في يد عامل، أو إبزيم حزام جيش، أو نصل مطواة، أو فأس، أشياء تتركز فيها قوة الذكر. لو كنت معه في ركن مظلم، لكنت أكثر جرأة، كنت لمست ثيابه، وانزلقت بيدي تحت الطية حيث يرتدي الشرطي السري شارته عادة، ولمستها لأرتعش كأني فتحت له أزرار بنطلونه. فحيويته مركزة في تلك الشارة كما هي في عضوه، ولو استثير الأخير عند لمسة أصابعي، لسحب من الشارة تلك القوة التي تنفخ العضو وتعطيه أبعادا هائلة.

– هل أراك ثانية.

– بالطبع.. تعال وألق التحية.

خفت أن يزعجه تلهفي، فأحجمت عن رؤيته عدة أيام. وأصحبنا أخيراً مغرمين ببعضنا. قدمني إلى زوجته، وكنت سعيدا.

ذات مساء، كنا نسير على ضفاف «چولييه»، العزلة التي أحاطتنا فجأة، قرب قلعة سانت جين، والميناء المهجور بشكل جنوني (أكثر ما يمكن أن يكسر قلبي، أن أكون معه في ذلك المكان) جعلتني جسورا بدرجة كبيرة، كنت واعيا تماما بخطواته التي أبطأت وأنا ألتصق به. لمست فخذه بيد مرتعشة. ولم أدر كيف استمر، فاستخدمت الوسيلة التي اقترب بها من الشواذ:

سألته: كم الساعة الآن؟

– آه. ساعتي تقول الثانية عشرة ظهرا.

وضحك، لأنه كان منتصبا جداً

أصبحت أراه بصفة متكررة. كنت أسير بجانبه محافظا على خطوتي معه. إذا كان الوقت نهارا، والضوء منتشرا، كنت أسير بحيث يسقط ظله على جسدي، هذه اللعبة البسيطة ملأتني بالفرح.

وواصلت سرقة الشواذ الذين يصطحبونني في الليل. عاهرات شارع «بواتيري» (لم يكن الحي قد هدم بعد) كن يشترين الأشياء التي أسرقها. وإذا تعرضت للشك، كنت على استعداد لإبراز بطاقة الهوية الجديدة المختومة(ختمها برنارد بنفسه في رئاسة الشرطة) وأضعها تحت أعين رجال الشرطة. وعرف «برنارد» عن حياتي ولم يلمني قط، مرة واحدة، في محاولة لتبرير كونه شرطيا، حدثني عن الأخلاق، ومن وجهة النظر الجمالية لعمل ما، لم أستطع أن أصغي إليه. الارادة الطيبة للأخلاقيين تتحطم أمام عدم أمانتي، مع أنهم قد يثبتون لي أن العمل كريه بسبب الضرر الذي يسببه، إلا أنني أنا الذي أقرر. تبعا للأغنية التي يثيرها بداخلي، فأرفض أو أقبل، لا أحد يعيدني إلى طريق الصواب، إلا إذا تعهد شخص بإعادة تهذيبي فنيا، وفي هذا مخاطرة. فمهما كان المعلم مقتنعا بانتصاره، فإن ما يبرهن على جمال القضية هو الأكثر سيطرة.

قلت: أنا لا ألومك على كونك شرطيا..

– لعل ذلك لايضايقك؟

مدركا، إنه من المستحيل أن أشرح له الدوار الذي يدفعني نحوه، فقد شعرت برغبة خبيثة لمضايقته.

– إنها تزعجني قليلاً.

– أتعتقد أن المرء لايحتاج إلى شجاعة كي يلتحق بالبوليس؟ إنها أكثر خطورة مما يعتقده

الناس.

كان يتحدث عن الشجاعة الجسدية والخوف. إضافة إلى بضعة أسئلة سألها لنفسه. باستثناءات قليلة جدا- بيلورج، جافا، سوكلاي، الذين توحي وجوههم بحيوية صلبة، وتخفي مستنقعات موحلة، مثل المناطق الاستوائية المعروفة باسم المفازات المرتجة- فإن أبطال كتبي، والرجال الذين اخترتهم لأحبهم، لهم المظهر الضخم ذاته، وأكثر اللا أخلاقيات صفاءً. كان «برنارد» يشبههم. كان يرتدي حلة جاهزة الصنع، وتبز أناقته رجال مرسيليا الذين كان يسخر منهم. ويلبس حذاءً أصفر فاتحاً بكعب عالٍ قليلاً يضطره أن يحني جسمه كله. وله أجمل فم رأيته لرجل. ولسعادتي وجدت فيه الصورة العكسية لصفات الشرطي التي تظهر في السينما، من صرامة وإخلاص. كان «قوادا» حقيقيا. وعلى الرغم من نواقصه كان ذا قلب كبير، عطوفا وذكيا.

أتخيله يطارد مجرما خطرا، فيمسكه بالطريقة التي يلقي بها لاعب الرجبي نفسه على خصمه الذي يحمل الكرة، يطوق وسطه ويتطوح معه، وهو يضغط برأسه على فخذ اللاعب أو مقدمة بنطاله. واللص يتشبث بكنزه، يحميه، ويناضل لفترة، وحين يدرك الرجلان عجزهما عن تجاهل أن لكل منهما الجسد القوي الصلب الجسور نفسه، والعقلية ذاتها، يتبادلان بسمة ودية. وأضع نهاية لهذه الدراما القصيرة، بأن يستسلم اللص لرجل المباحث.

ماهي الرغبة الغامضة التي كانت تتنابني بشكل جياش في أن يكون لكل واحد من أصدقائي مثيله في البوليس؟ لا أزين هنا البلطجي أو الشرطي بفضائل الفارس التي تعزى إلى الأبطال، فأحدهما ليس ظلا للآخر، لكن الاثنين خارجان عن المجتمع، مرفوضان وملعونان منه. وأريد من دمجهما معا أن يقول الرجل العادي «إن الشرطة لا تتكون من أطفال الكورس».

وحين أطلب أن يكون البلطجي ورجل الشرطة أنيقين، فذلك كي تنتقم الأجساد المثيرة من الازدراء الذي نحمله لها. فالعضلات القوية والوجوه المتناسقة يقصد بها أن تجمّل وتمجد الأعمال الكريهة لأصدقائي. وحين أقابل غلاما بهي الطلعة، أرتعش من فكرة كونه عالي الذكاء، ولذا أتسامح مع فكرة أن العقل الضئيل قد يسكن جسدا سقيما. وحيث إن الاستقامة هي ميدانكم، وليس لديّ شيء منها، فإني ادرك إغراء الحنين إليها، وأحارب ضد مفاتنها. المجرمون والشرطة هم أبرز قوى هذا العالم. وأنتم تلقون قناعا عليهم، فهم الأعضاء الباعثة على الخزي في جسدكم، وتسمونها، كما أفعل، الأطراف النبيلة، والإهانات التي يتبادلها الأعداء تدل على كراهية مصطنعة، بل تبدو وكأنها محملة بالرقة.

قد أقابله، أحيانا، في أحد البارات. وأسير معه في الشارع، فأتخيل أني لص ميكافيللي، يحسن علاقته مع شرطي، يتغانج معه، ويهزأ به بلطف، بينما ينتظر القبض عليه. لم نتبادل أية

ملاحظات سفيهة، أو تهديد صلف أو ساخر، عدا مرة واحدة، حين شد ذراعي فجأة، وقال بحزم: تعال معي. ثم أضاف بصوت لطيف متبوعا بابتسامة:

– لنتناول مشروبا.

اعتاد رجال المباحث على مثل هذا النوع من المشاكسات. وكان «برنارد» يورط نفسه معي، قلت له وأنا أغادره: سأردها لك.

مع أن النكتة قد تكون آلية في هذه الحالة، إلا أنها أزعجتني. شعرت أني توغلت في قلب الشرطة حتى يسخر رجل المباحث معي حول وظيفته. وكشفت لي هذه المزحة عبثية مواقفنا المتبادلة. كان الذم ممنوعا في علاقتنا. كنت صديقه، وتمنيت لو كنت أعز أصدقائه، لم نكن نحب بعضنا بصفتينا الأساسيتين، كشرطي ولص (مع أن هذا ما يربطنا بالفعل)، كنا مثل قطبي تيار كهربي إذا التقيا تنتج الشرارة الفريدة./ لاشك أني أستطيع أن أحب رجلا في سحر «برنارد»، ولكن إذا كان عليّ أن أختار، فأنا أفضل الشرطي على البلطجي. كنت في حضوره أخضع – أساسا– لمظهره الفخم، لحركة عضلاته التي ألمسها تحت ملابسه، لنظرته، باختصار لصفاته الجسدية الخاصة، لكن حين أكون وحدي، وأفكر بحبنا، أشعر أن ما يسيطر عليّ هو قوة الشرطة الليلية كلها.

طلب مني ذات مرة أن أتجسس على بعض أصدقائي، ولو فعلت ذلك لتعمقت أواصر محبتنا، لكن لاحاجة بكم لمعرفة أي شيء عن هذه المسألة الخاصة.

يُقال عادة عن القاضي إنه مترفع. في رمزيات الامبراطورية البيزنطية التي تحذو حذو النظام السماوي، يقال إن الخصيان يمثلون الملائكة، والقضاة، يضفون على «أروابهم» غموضا يرمز إلى الملائكية الخالصة، تحدثت في مكان آخر عن القلق الذي تسببه لي فكرة هذه الكائنات السماوية، ومثلها أيضا، القضاة.

أرديتهم تبعث على الضحك، وتصرفاتهم كوميدية، إذا قدرتهم أحاكمهم وأقلق من ذكائهم. حين وقفت في المحكمة أمام القاضي «ريه» بتهمة السرقة، قلت له:

– هل تسمح لي أن أوضح شيئاً لايسمح بذكره في قاعة المحكمة.. وأول شيء أن أستجوبك؟

(كنت أريد أن أوضح أن هناك بعض الاتهامات قالها مرشدون مأجورون) قال: إطلاقا.. التشريع يقول.. ولا بوجه من الوجوه.

لقد أحس بالخطر من علاقة إنسانية قوية، قد تجرح نزاهته، وانفجرت ضاحكا لأني رأيت

قاضيا ينكمش في ثوبه. يمكنك أن تسخر منهم، ولكن ليس رجال الشرطة، الذين لهم أذرعة للقبض على المجرمين، وأفخاذ تسيطر وتستريح على الدراجات النارية. أحترم رجل الشرطة، فهو قادر على القتل، ليس عن بعد أو عن طريق وكيل، بل بيديه المجردتين. وجرائمهم، على الرغم من أنهم أمروا بها، تنبع من إرادة فردية خاصة تتضمن بالإضافة إلى قرار القتل المسؤولية عن القاتل. الشرطي يتعلم أن يقتل. وأنا أُعجب بهؤلاء الأشرار، الإلآت المبتسمة، المجهزة لأصعب المهام: القتل. ذلك ماتدرب عليه «جافا» في وحدات الصاعقة الالمانية كي يصبح حارسا شخصيا جيدا- كان الحارس الشخصي لچنرال ألماني- تعلم الاستخدام السريع للخنجر، وبعض حركات الجودو، واستخدام الحبل، ويديه المجردتين. الشرطة تخرجت من مدرسة مشابهة، بالضبط كما جاء أبطال «ديكنز» الصغار من مدرسة النشالين. ونتيجة لمعاشرتي لشرطة أحياء الجريمة وبوليس الشوارع، اعتدت على غباء المفتشين، ولم يعد يضايقني، كما لم تعد تضايقني بشاعتهم وضآلة معظمهم، فهم ليسوا من رجال المباحث بعد، وإن كانت لديهم محاولات يائسة للوصول إلى الحشرة الكاملة، هذا الوجود التافه المضحك هو أحد المراحل العديدة التي تقود إلى شكل أكثر اكتمالا لايبلغه إلا القليلون. وتعلقي برجال المباحث، لايعود إلى طبيعة وظيفتهم في المتابعة الخطرة للمجرمين، والتضحية بالنفس، ومواقفهم المعنية التي تزيد شعبيتهم، ولكن إلى مكاتبهم وملفاتهم وسجلاتهم. النشرات الخاصة بالبحث عن الأشخاص المعلقة على الجدران، صور وأوصاف المجرمين المطلوبين، وما تتضمنه السجلات، وما تحت الأختام السرية، مما يخلق جوا من الحقد العنيد والبشاعة الكريهة، وينتابني السرور لمعرفتي إن هؤلاء الأقوياء يتنفسون ذلك الجو، فيعكر صفاء حياتهم، ويقلق عقولهم. هذا النوع من الشرطة- لاحظ أني أعني الأكثر جمالا وأناقة- هم الذين كرست نفسي إليهم. فأياديهم العريضة السميكة، الامتداد لقوة أجسادهم الرشيقة، التي تستخدم في الصراع، تستطيع أن تفسد بقسوة وشر يمس القلب، ملفات كاملة محملة بأسئلة ذكية. ليست الجرائم المدوخة التي تحتويها، هي التي أود أن أعرفها، ولكن تلك الجرائم الخسيسة التي كان أبطالها مكفهرى الوجوه، وينتج عنها مواقف فاتنة بسبب العواطف المختلطة التي تسببها توأمان أحدهما قاتل، ويموت الآخر حين يعدم أخوه، الأطفال الذين يغصون بخبز ساخن ويموتون، وسيلة رائعة في موقف مرعب يؤخر اكتشاف الجريمة، ذهول المجرم، الذي يدور حول مكان الجريمة، تائها، مترددا، حتى يقبض عليه، سقوط الثلج كنعمة تحمي هروب اللص، الرياح التي تضيع الآثار، والاحتمالات المفاجئة التي تتوج إعدام رجل، عداء الأشياء وبراعة هزيمتها، الأسرار التي يحتويها السجن، التي تقتطع من القلب، نفثة نفثة، قطعة قطعة تحت التهديد والخوف. أحسد المفتش برنارد». يستطيع أن يطلع على جريمة أو اغتصاب من السجلات، يفتخر بها، ويمتع نفسه، ويعود إلى البيت. لا أقصد أنه يسلي نفسه كمن يقرأ رواية بوليسية، بل على العكس، إنه يرى الأكثر غرابة، والمواقف الأكثر تعاسة، ويصاحب أشد الاعترافات خزيا، وهي الأخصب، لايسخر منها، فهي الأكثر قدرة على توضيح أعاجيب الكبرياء

ويعزى الذكاء الكبير إلى الشاهد المتعاطف المستنير، لمثل هذه الاعترافات الكثيرة البائسة. وربما ما قادني إلى هذه المغامرات العاطفية التي لا تصدق، هو البحث عن هذا الذكاء. ما الذي لا تحتويه سجلات بوليس «مرسيليا»؟ لم أجرؤ أن أسأل «برنارد» أن يصطحبني معه، أن يجعلني أقرأ تقاريره.

عرفت أنه له علاقة مع بعض رجال العصابات، أولئك الذين يتسكعون جوار الأوبرا وحول البارات في شارع «سانت سابين»، وبما أنه لايثق بي تماما، فلم يقدمني لأحد منهم. وقد منحني فضل مص عضوه أحيانا، فشعرت بامتنان عميق نحوه، لسماحه لي أن أكون عبده، ولم أنزعج من فكرة أن أكون مخطئا لوقوعي في حب شرطي.

كنت في غرفة صديق، أنظر إلى السرير، وكل الأثاث البرجوازي..

قلت: لا أستطيع أن أمارس الحب هنا.. إطلاقا.

هذه الأمكنة تجمدني. فلكي أختارها وأستفيد من خواصها، يجب أن تكون لديّ مشاغل بعيدة عن الحب، فحياتي نشأت محررة من سحرها. أن أحب رجلا ليس معناه أن أدع نفسي تثار بتفاصيل أسميها ليلية، لأنها تخلق بداخلي ظلاما أرتعد عبره- الشعر، العينان، الابتسامة، الإبهام، الفخذ، الجذع.. الخ- ولكن أن أجعل هذه التفاصيل تظلل كل شيء قدر الإمكان، ثم تنمي الظل من الظل، لتجعله كثيفا، وتمتد مملكته ليغمرها الظلام. ليس الجسد أو زينته هو الذي يثيرني فقط، وليست مداعبات الحب وحدها، ولكن تفاقم كل صفة من صفاته الشهوانية وقد تكون هذه الصفات، تقوم بما خلقت من أجله، تبعا للتجربة الفعلية لحاملها، بينما مظهرها يحمل تفاصيل أظن أني واجد فيها بذور تجارب عديدة. وهكذا من كل منطقة ظل، ومن كل غلام، أستمد أكثر الصور إزعاجا لتزداد إثارتي، ومن كل مساحات الظل أقيم عالما ليليا يندفع إليه عشيقي. ومن الواضح، كلما كثرت التفاصيل كان انجذابي أكبر. وبقدر ما أستمد منهم، أمدّهم بمغامرات جسورة تكون دليلاً على قوتهم الشهوانية. كل واحد من عشاقي قصة شريرة في حد ذاته. المغامرات الليلية الخطرة التي سمحت لأبطالي العابسين أن يجرّوني إليها، هي توسّع في الاحتفالات الشهوانية، وتزاوج قد يدوم أحيانا لفترات طويلة.

كان لدى «برنارد» صفات عديدة من هذا النوع، كانت قمتها ترجع، بلاشك، إلى وظيفته المدهشة في البوليس، التي تبرر وتعطي معنى لهذه التفاصيل.

تركت «مرسيليا» بعد عدة أسابيع، كثير من ضحاياي كانوا يشتكون ويهددونني، كنت في خطر.

سألت برنارد: لو طلب منك أن تعتقلني.. هل تفعل؟

لم يتردد إلا لثوان، رفع أحد حاجبيه وقال: سأرتب ألا أفعل ذلك بنفسي.. سأطلب من صديق أن يعتقلك.

وبدلا من أن يثير غضبي، زاد حبي له.

تركته، وذهبت إلى باريس. وغمرني الهدوء. هذا اللقاء القصير مع رجل المباحث، والحب الذي حملته له، والحب الذي منحه لي، والتوليفة الشهوانية لمصيرينا المتضاربين، طهرت نفسي. استرحت، وتخلصت لفترة من الخبث الذي رسّبته الشهوة، وشعرت بأني مغسول، نظيف، مستعد لوثبة أخرى.

بعد خمسة عشر عاما، حين أغويت ابن شرطي، حاولت أن أحوّله إلى بلطجي – كان في العشرين، اسمه «بيير»، كتب لي طالبا أن أشتري له دراجة نارية، سأتحدث عنه فيما بعد.

❖❖❖

أساعد «أرماند» الآن، يعطيني نصف أرباحنا. أرادني أن أستأجر غرفة خاصة بي، وأصر أن أتمتع بنوع من الاستقلال. من أجل الحذر، ولأنه يحيمني، والأخطار تتزايد، فقد استأجر غرفة في فندق آخر في شارع آخر. كنت أذهب إليه عند الظهر، ونخطط لبرنامج المساء، ثم نخرج للغداء. واستمر أيضا، في تجارة الأفيون التي كان «لستيلتانو» يد فيها.

كانت سعادتي ستصبح كاملة، لولا أن حبي «لأرماند» تصاعد إلى درجة كبيرة، وتساءلت عما إذا كان قد لاحظ ذلك. حضوره يجعلني متهورا، وغيابه يقلقني. بعد سرقة الضحية، كنا نمضي ساعة في بار، لكن ماذا بعد ذلك؟ لا أعرف شيئا عن لياليه، وتملكتني الغيرة من كل الشباب المتسكعين حول المرفأ. ووصلت لوعتي إلى ذروتها ذات يوم، حين مازحه «روبرت» قائلاً:

– أتظن أني لا أعرف كل شيء عنكما؟

– ماذا تعرف؟

– لا تقلق.. فلديّ بعض الحقوق عليك.

– أنت أيها العاهر الصغير!

وانفجر «روبرت» ضاحكا: ذلك هو الأمر.. لأني عاهر صغير.. فأنا صديقك.. أترى..

قال ذلك دون تبجح، وبغمزة في التجاهي. ظننت أن «أرماند» سيضربه، أو ستكون إجابته قاسية بحيث تلجم «روبرت» لكنه ابتسم. ولم يبد عليه أنه يستنكر سلوك الولد لألفته معه، أو سلبيته في الرد عليه. لو كنت أنا الذي تصرفت بهذا الشكل لهاج عليّ بضراوة. من ذلك الموقف عرفت كيف تسير الأمور بينهما. لقد كنت الصديق الذي يحترمه «أرماند»، وكنت أفضل أن أكون عشيقه المحبوب.

ذات مساء، كان «أرماند» ينتظرني، مستندا على إطار الباب، في وضع الانكشاري الذي يحرس حديقة عامة، كنت خائفا، فقد تأخرت ساعة عن موعده، وكنت واثقا بأنه سيزجرني أو حتى يضربني. رأيته على السلمة الأخيرة أو قبل الأخيرة، عريانا حتى وسطه، وبنطلونه القطني الأزرق الواسع، يغطي ساقيه ويشكل قاعدة لذراعيه المتقاطعتين. رأسه المتحكم فيهما بالطبع، لكني لم أر سوى ذراعيه، بعضلاتهما البارزة تكونان لفة كثيفة من اللحم. إحداهما مزينة بوشم أنيق عبارة عن جامع بمئذنة وقبة ونخلة محنية بسبب عاصفة رملية، وكوفية بيج طويلة من الموسلين– من ذلك النوع الذي يلفه جنود الفرقة الأجنبية على رؤوسهم لحمايتهم من الغبار – معلقة في رقبته، ساقطة على ذراعيه المضغوطتين بعضلاتهما البارزة على صدره. الذراعان موجودتان بنفسيهما، بمعنى أنهما هناك، شعار شرفه وسلاحه.

في مواجهة الكون أنا ضائع، لكن خصلة النشاط القوي البسيط جعلتني أثق في نفسي. وتوقفت الأفكار المزعجة والقلق. رقتي ألبست هذه القوة عناقيد من الشوفان البري، والخوف– بسبب تأخري– جعلني أرتعد، وربما هوّن انفعالي وكشف معناه لي. تاج هاتين الذراعين الغريبتين المعقودتين، كان السلاح الكافي لمحارب عارٍ، تحملان، أيضا، ذكرى الحملة على أفريقيا، رمز المئذنة والقبة جعلني أضطرب، وذكّرني بهجر «ستيلتانو» لي حين وقع بصري على مشهد «قادس» في البحر.

مررت بجانبه، لم يتحرك. قلت: تأخرت. لم أجرؤ على النظر إلى ذراعيه، كانتا قويتين حتى خفت أن أكون قد أخطأت باهتمامي بعينيه وفمه، لو إنفكتا، فستزول خطورة «أرماند» ووجوده الواقعي.

وأدركت، أني لو حملقت بهذه الكتلة من العضلات، لاحمررت خجلا، فهي تكشف لي حقيقته. لو حمل بيرق الملك فارس عداء، وظهر به وحده، لأثارنا ورفعنا قبعاتنا، لكن لو حمله الملك بنفسه، فسنصعق. حين يحمل الرمز، الرمز الذي يدلّ عليه، فإنه يدمر الشيء والمعنى.

– بذلت جهدي لأحضر في الموعد، لكني تأخرت، إنها ليست غلطتي.

لم يجب، دار على محور قدمه، وهو مازال مستندا على إطار الباب، ككتلة واحدة مثل بوابة معبد، وظلت ذراعاه ملتفتين. كان واقفا تمثالا للامبالاة. ذراعاه توحيان بالليل، بلونهما الكهرماني، وشعرهما، وكتلتهما التي تبعث على الشهوة – ذات مساء، وهو مستلق في السرير، ودون أن يجرؤ على الغضب، مررت قضيبي على ذراعيه المتقاطعين كالأعمى الذي يتحسس وجها ليتعرف عليه– خاصة الوشم الأزرق الذي يظهر النجمة الأولى في السماء، وعند جدار الجامع، جندي يستند على النخلة المائلة، غالبا، كان ينتظرني عند الشفق بالوقفة اللامبالية المهيمنة ذاتها، بدا كأنه يحرس كنزا خفيا، وهو الآن، على الرغم من حبنا، يحرس عذريته التي لم تمس، كما تصورت.

كان أكبر مني، وكان أول من يصل في مواعيدنا في حدائق «ميكنس»، نظرة عينيه غائمة، أو إنه ينظر إلى داخله برؤية صافية؟ كان يقف ويدخن سيجارة. ودون أن يتحرك بوصة واحدة– كان يغمغم مرحبا ولايمد يده لأصافحه أبدا– أقدم له المتعة التي يبتغيها، أسوّى ملابسه وأغادره، كنت أتمنى لو اعتصرني بين ذراعيه. كان وسيما ومع ذلك نسيت اسمه.

تأمل ذراعي «أرماند» ذلك المساء، كان فيما أعتقد الإجابة الوحيدة لكل القلق الميتافيزيقي. اختفى وراءهما وتدمر، وكانتا أكثر حضورا من شخصه.

أما ما حدث، فلا أذكر تماما سوى أنه صفعني مرتين أو ثلاثاً، لم يتسامح لأني جعلته ينتظر، لكنه خاف أن أختفي نهائيا. تظاهرت لعدة أيام، بالتسامح لشجاراته مع «روبرت»، لكني كنت أقاسي بسبب الحب والغيظ والغضب. حدث هذا الآن، لبدّدت هذه اللوعة ببذل الجهد لجمع الحبيبين، أحدهما لقوته والآخر لرقته. وهي محبة ممكنة، قريبة إلى قلبي، ليس في سبيل تحقيق السعادة للرجلين، ولكن لتلك الصفات الأكثر كمالا التي تدل عليها: القوة والجمال. وإذا لم يتحد كلاهما في داخلي، فلعل عاطفتي ذاتها تحقق خارجا عني، ذلك الاتحاد.

كان لدي بعض المدخرات، ودون أن أُعلم أحدا، ركبت القطار وعدت إلى فرنسا. في غابات «مايوج» أدركت أن البلد التي صعب عليّ تركها، والإقليم الذي شعرت بحنين مفاجئ إليه عند عبوري آخر نقطة في الحدود، كان بسبب إشعاع «أرماند» العاطفي، المصنوع من كل العناصر، التي لو قلبتها لشكلت قسوته.

لو لم تقابلني حادثة بهذه الكثافة، فإن أسلوبي الأدبي سيكون سخيفا في مواجهتها. كنت سأحتاج إلى لغة جديدة للسيطرة على هذه التعاسة الطارئة. هذا هو كتابي الأخير. أنتظر السماء أن تنقض عليّ. الطهارة تعني تحويل الألم إلى قيمة خيِّرة، تعني إجبار الشيطان أن يكون إلاهاً،

وأن نُحرز معرفة الشر. لمدة خمس سنوات وأنا أكتب الكتب، فعلت ذلك بسعادة، لكني انتهيت الآن. حصلت، من خلال الكتابة على ما كنت أبحث عنه. مايرشدني كشيء تعلمته، ليس ماعشته ولكن الأسلوب الذي كتبته به، وليس الطرفة بل العمل الفني، ليس حياتي بل تفسيرها. إنه ماتقدمه اللغة لي، لأستحضره وأتحدث عنه وأعزفه. وأعرف ما أريد لأحقق أسطورتي. وأعلم أين أذهب. بالنسبة للفصول اللاحقة (لقد قلت معظمها قد ضاع)، فإني أقدمها هنا بلا ترتيب. (لا أعني بالأسطورة الفكرة المزخرفة- قليلاً أو كثيرا- التي يتصورها الجمهور الذي يعرف اسمي، عني، ولكن تطابق حياتي المستقبلية مع أحقر فكرة نكوّنها أنا والآخرين بعد كل هذا. وتظل أن تحدد إذا ما كان إنجاز أسطورتي يتماثل مع أجرأ حياةٍ إجرامية ممكنة).

في الشارع، أكون خائفا من أن يتعرف عليّ أحد أفراد الشرطة. تعلمت أن أنسحب داخل نفسي، حيث يلجأ جوهري إلى أعمق وأكثر المخابئ سرية- مكان في أعماق الجسد، أنزوي فيه منتبها ومراقبا كل ماحولي في شكل لهب ضئيل - فلا أعود أخاف شيئاً. لقد خلا جسدي من علاماته المميزة، ويبدو فارغا من الصعب التعرف عليه، بعد أن هجرني كل ما يؤكد صورتي، نظراتي، وأصابعي التي تختفي تقلصاتها البسيطة في الهواء الضعيف، حتى يرى رجال الشرطة أن من يسير بجانبهم على الرصيف، مجرد صدفة مفرّغة من صاحبها. ولكن ما إن أسير في شارع هادئ، حتى يعلو اللهب، وينتشر في جميع أطرافي، ويرتفع إلى صورتي ليلونها بشبيهي.

وتراكمت الأعمال المتهورة: ركوب سيارات مسروقة، السير أمام محلات سبق أن سرقتها، التعامل بوضوح بأوراق نقد مزيفة، انتابني شعور أن كل شيء على أهبة الافتضاح في زمن قصير جدا. أعرف أن أعمالي المتهورة خطيرة، وأن الكارثة المحلقة ستنبثق من خطأ صغير جدا. (ما الذي سيمنع تدميري؟ وأنا أتحدث عن كارثة قادمة، أستعيد حلما: كنت أجري على قضبان سكة حديدية، والقاطرة تتبعني سمعتها تبخ على كعبي ، تركت الخط الحديدي، وجريت في الريف، وتبعتني، القاطرة بوحشية، لكنها توقفت أمام سور خشبي هش، عرفت فيه أحد الحواجز التي تحد مرعى كان مملوكا لأولئك الذين قاموا بتربيتي وأنا طفل، حيث كنت أقود الأبقار إلى الرعي هناك. حين أخبرت صديقا بهذا الحلم، قلت له: توقف القطار عند حاجز طفولتي..) وبينما أنتظر سوء الحظ ليحط عليّ كنعمة، انغمست في سبل الحياة العادية، عازما على تحقيق ذاتي في أندر المصائر، جاهلا تماما ما تكون. لا أريده خطا رحيما منحنيا تجاه الغروب، ولكن أريده جمالا مخفيا بسبب الأخطار المحدقة به باستمرار، تسحقه وتشوهه. دعني فقط أتلفظ بالجمال! سأذهب سريعا أو بطيئا، ولكن سأتحدى مالابد من تحديه. سأدمر المظاهر، وستحترق الأغطية وتتلاشى، وسأظهر هناك في راحة كفك هادئا ونقيا كتمثال زجاجي صغير، ستراني ولاشيء حولي.

بجاذبية الوسائل وروعة المواد التي يستخدمها الشاعر ليقترب من البشر، أقيس المسافة التي تفصله عنهم. عمق بؤسي يضطره ليؤدي عمل هذا المتهم. بؤسي كان يأسه، واليأس كان قوة في حد ذاته، وهي التي تضع نهاية له في الوقت نفسه. ولكن إذا كان العمل ذا جمال عظيم، فإنه يتطلب قوة أعماق اليأس، ولكي يقوم الشاعر بهذا الجهد عليه أن يحب البشر، وينجح. ومن حق الآخرين أن يتجنبوا العمل العميق إذا كان صرخة إنسان وحشية، تحاصره نفسه.

ويتطلب الأمر أن أُبعدكم عني بجاذبية الوسائل، لأقيس الحنان الذي أشعره نحوكم. وأحكم إلى أية درجة أحبكم من وراء الحواجز التي نصبتها، بيني وبينكم، في حياتي وعملي. (حيث إن العمل الفني ينبغي أن يكون الدليل الوحيد على طهارتي، طهارة، ليست حقيقية فقط كي تغني العمل، بل أيضا كي أستند على إنجاز مدعّم بالطهارة فعلا، لأنطلق بمجهود أكبر نحو مصير مجهول). وحتى لا تجعلني أنفاسكم أتعفن – فأنا قابل للفساد جدا– رقتي مصنوعة من مادة هشة. وأنفاس البشر قد تزعج سبل البحث عن جنة جديدة. سأعرض صورة نزيهة للشر، حتى لو فقدت حياتي وشرفي ومجدي في سبيل هذا البحث.

الإبداع ليس لعبة طائشة. المبدع يُسلم نفسه إلى مغامرة مخيفة، آخذا على عاتقه إلى النهاية، المخاطر التي تقوم بها مخلوقاته. ولا أتخيل إبداعا لاينبثق عن حب. كيف يمكن لإنسان أن يضع أمام نفسه شيئاً قويا مثله، ثم يحتقره ويكرهه؟ آنذاك سيحمل المبدع وزر خطايا شخصياته. يسوع أصبح إنسانا، وقام بالتكفير عن الخطايا وحرر البشر منها، جلد، وسخر منه، وبصق عليه، وصلب، ذلك هو معنى «قاسى بلحمه»، وإذا تجاهلنا اللاهوتيين، فإن جملة «أخذ على عاتقه خطايا العالم» تعني بالضبط: خوض غمار التجربة بكل قوة وما يترتب عليها من خطايا كاملة، بمعنى أنه يشترك مع الشر. كل مبدع عليه أن يتحمل العبء؟– يبدو التعبير ضعيفا– وأن يعرف شرَّه إلى درجة أن يكون مادته التي تدور في شرايينه، ويختارها أبطاله بحريتهم. ولتكن هذه إحدى الاستخدامات الكثيرة للأسطورة السمحة للخلق والانبعاث. ومع أن المبدع يمنح شخصياته إرادة حرة، وعزما خاصا، إلا أنه يأمل في أعماق قلبه أن يختاروا الخير، كل محب يفعل ذلك، آملا أن يحبه الآخرون من أجل ذاته فقط.

أود أن ألفت الانتباه لحظات، على أقصى السعادة التي تتحقق في قمة اليأس: حين يكون المرء فجأة وحيدا جدا، يواجه دماره المفاجئ، ويشاهد انهيار عمله وذاته بطريقة لايجدي فيها الإصلاح. أبذل مال العالم كله، وهو يستحق أن يبذل– من أجل أن أجرب مثل هذه الحالة اليائسة – الخفية– التي لايعرف أحد أني أعرفها. هتلر وحده، في زنزانة قصره، خلال الدقائق الأخيرة لهزيمة ألمانيا، جرّب، بالتأكيد، تلك اللحظة من الضوء النقي– هشة وصافية بشكل مجسم – الوعي بسقوطه.

إن كبريائي كساها لون عاري القرمزي.

مع أن الطهارة هي هدفي، إلا أني لا أستطيع تعريفها. نقطة البداية هي الكلمة ذاتها، التي تشير إلى أقرب حالات الكمال الأخلاقي، الذي لا أعرف شيئاً عنه، سوى أني بدونه ستغدو حياتي عبثا. ولأني غير قادر على تقديم تعريف للطهارة - وكذلك للجمال- فإني أحاول في كل لحظة أن أبدعها، بحيث يقودني إليها كل شيء أفعله على الرغم من جهلي بها، تقودني في كل لحظة، إرادة نحو الطهارة حتى أغدو واضحا ليقول الناس «إنه قديس» أو بالأحرى «كان قديساً». انقاد اليها بتلمس متواصل، فلا توجد طريقة محددة، أتلمس طريقي بغموض دون دليل آخر يؤكد أن حركاتي ستوصلني إليها. ربما يمكن اكتسابها بنظام رياضي، لكني أخاف أن تكون بذلك يسيرة المأخذ، مهذبة بملامح مألوفة، باختصار: قداسة أو طهارة أكاديمية، ويكون التحقق مجرد تشابه مع الأصل. يبدأ القديس طريقه بالمبادئ الأولية للدين والأخلاق، ويصل إلى هدفه حين يتخلص من هذه المبادئ. القداسة فردية، مثلها مثل الجمال والشعر، تجلياتها أصيلة، ويبدو لي أن قاعدتها الوحيدة هي نكران الذات، وأربط ذلك، أيضاً بالحرية. أريد أن أكون قديسا لأن الكلمة تشير إلى أعلى موقف إنساني، وسأفعل كل شيء كي أنجح. سأستخدم كبريائي، وأضحيى بها هناك.

المأساة لحظة مفرحة. تنقل الابتسامات مشاعر الفرح، بانشراح الوجه والجسد كله. والبطل غير واع لجدية فكرة المأساة. قد يمسك بطرف منها، لكنه لايجب أن يراها. فاللامبالاة أصيلة لديه. هناك شباب رزين في قاعات الرقص العامة، لايبالي بالموسيقى، حتى يبدو أنهم يقودونها أكثر مما يتبعونها. وآخرون ينشرون بفرح، السفلس وسط العاهرات، والذي التقطوه من واحدة منهن. يسيرون بهدوء وابتسامة على شفاههم، بينما تتحلل أجسادهم الرائعة، يدل عليها اشكالهم الشمعية وبيوتهم الحقيرة. إذا كان يذهب إلى الموت- إلا إذا اعتبر هذه النهاية الضرورية سعادة - فهو يذهب بأكثر الطرق لياقة وكمالا لتحقيق الذات. ويذهب بقلب مفعم بالفرح. فلا يستطيع البطل أن يعبس في وجه ميتة بطولية، فهو بطل بسببها. إنها الشرط القاسي الذي تبحث عنه مخلوقات بلا مجد، فهو نفسه المجد.

إنها - هذه الميتة وتراكم التعاسات التي تقود إليها- تتويج لحياة مستهلكة سلفا، وقبل كل شيء، هي صورتنا التي تنظر إليها في مرآة مثالية، تظهرنا متألقين أبدا- حتى يختفي الضوء الذي يحمل اسمنا.

نزف جانب رأسه. تعارك جنديان لتوهما لسبب منسي منذ زمن، وسقط أصغرهما وقد سحقت القبضة الحديدية للآخر جانب رأسه. وشاهد المنتصر الدم يتدفق ليصبح حزمة من زهور الربيع. وينتشر الإزهار بسرعة ليصل الوجه ويغطيه بآلاف الزهور الصغيرة البنفسجية الجميلة كالنبيذ الذي يتقيؤه الجنود. وأخيراً، أصبح جسد الشاب الملقى على التراب ركاما من زهور كبرت، وغدت أقحوانا تذروه الرياح. وبدت ذراع واحدة فقط حية متحركة، وتمكن الظافر أن

يرى حركة خرقاء وداعا لصداقة بلا أمل، ثم اختفت اليد، غطتها كثافة انتشار الزهور، وخفتت الرياح ببطء حزينة، واسودّت السماء بعد أن أضاءت لحظات عيني الجندي الصغير المتوحش. لم يبك. جلس على سرير الزهور الذي أصبحه صديقه، تحركت الريح قليلاً، فأزاح شعره عن عينيه واستراح، ووقع نائماً.

يحكم ابتسامة المأساة نوع من المرح يتعلق بالآلهة. ويهزأ البطل التراچيدي، بخفة، بمصيره، ويحققه بلطف حتى يكون الهدف هذه المرة الإله وليس الإنسان.

حكم على، بالفعل، بتهمة السرقة، وقد يحكم عليّ ثانية، دون دليل، بالشبهة. ويقول القانون آنذاك، إني قادر على القيام بذلك العمل، فأنا في خطر، ليس فقط حين أسرق بل في كل لحظة من حياتي، لأني سبق أن سرقت.

غطت حياتي سحب من قلق مبهم، أثقلتها وأنارتها. وكي أحتفظ بشفافية وصفاء نظرتي، كان لابد لوعيي أن يكون حساسا تجاه كل فعل حتى أستطيع تصحيحه وتغيير معناه. هذا القلق جعلني منتبها طوال الوقت، كغزال فوجئ بأنه محاصر في العراء. قلق مدوخ يسحبني معه، ويجعل رأسي تطن، لأنبطح بمجرد سماعي صدى الحوافر تدق الأرض تحت أوراق الشجر.

سمعت أن عطارد كان عند القدماء إله اللصوص، فكانوا يعرفون لمن يبتهلون. ولأنه ليس لدينا إله مثله. لذا يبدو منطقيا أن نبتهل للشيطان، ولكن لايوجد لص يجرؤ على فعل ذلك بجدية. ولكي تتحالف معه لابد أن تورط نفسك بعمق، فهو المعارض الشديد لله الذي نعرف أنه المنتصر الأخير. القاتل نفسه لايجرؤ على الابتهال إلى الشيطان.

❖ ❖ ❖

كي أهجر «لوسين»، سأرتب سيلا من المصائب حول هذا الهجران، حتى يبدو الأمر وكأنها كنسته في طريقها. سيكون قشة وسط الإعصار. وإذا عرف أني أردت له السوء، وكرهني، فإن كراهيته لن تهمني. ولن يحركني الندم أو نظرة اللوم في عينيه الجميلتين، فسأكون وسط دوامة من الحزن اليائس، سأفقد أشياء أقرب إلى قلبي من «لوسين»، وأقل معزة من وسوستي، وهكذا فأنا على استعداد لقتله حتى أحيط عاري بأبهة عظيمة، لكن للأسف فإن خوفا دينيا يبعدني عن الجريمة، ويقودني إليها. قد تحولني الجريمة إلى قسيس، وتحول الضحية إلى إله. ولكي أدمر فعالية القتل أحتاج فقط إلى تقليصها إلى الحد الأدنى بعمل إجرامي. أستطيع قتل إنسان مقابل عدة ملايين من الفرنكات. بريق الذهب يمكنه أن يقاوم عملية القتل.

هل وعى الملاكم السابق «ليدو» هذا الأمر بشكل غامض؟ لقد قتل شريكه كي ينتقم. وأثار الفوضى في غرفة الرجل الميت لكي يبدو الدافع للجريمة: السرقة. وحين رأى ورقة بخمسة فرنكات على المائدة أخذها. فسّر الأمر لفتاته المندهشة: أحتفظ بها للحظ، وحتى لايقول أحد إني ارتكبت جريمة دون أن أحصل على شيء من ورائها.

سأحصن عقلي بسرعة. حين تفكر بالقتل، إياك أن تجعل رموشك تتهدل، أو تفتح منخاريك على سعتهما بمأساوية، تأمل الفكرة ببال خال، وافتح عينيك على سعتهما حتى تتجعد جبهتك، كأنك في حالة دهشة ساذجة وتساؤل، آنذاك لايظهر على زوايا عينيك ندم أو حزن متوقع، ولا تفغر هاوية فاها تحت قدميك.

ابتسامة ساخرة، ونغمة مرحة أدندن بها من بين أسناني، وقليل من السخرية في حركة الأصابع الممسكة بسيجارة، كافية لتجديد علاقتي مع الوحشة في هذه العزلة الشيطانية. بعد سرقة خاتم «ب. ر» تساءلت:

– ماذا لو عرف بذلك. لقد بعت الخاتم لشخص يعرفه.

في «البوليفار هاوسمان» رأيت المكان الذي اعتقل فيه بعض المجرمين. أثناء الهرب، حاول أحدهم أن يكسر الزجاج ليخرج، لقد ظن أنه بتراكم الدمار حول مكان اعتقاله، يكتسب أهمية تنقص من حقيقة ما قام به من سرقة. كان يحاول احاطة نفسه بأبهة دموية مفزعة مدهشة، بقي هو في وسطها إنسانا مثيرا للشفقة. يعظِّم المجرم فساده، يريد أن يختفي وسط عرض كبير، في مكان هائل يسّره القضاء والقدر، في الوقت الذي يفكك فيه عمله، ويفصصه إلى لحظات قاسية:

– ماذا يهمني من ازدراء الناس إذا كان دمي...

هل مازلت أعجب، دون أن أحمر خجلا، بالمجرمين «الحلوين» حتى لو لم أعلم بطبيعتهم؟ لو كان سوء حظهم يخدم جمال عدة قصائد، لرغبت في مساعدتهم. أن يستفيد فنان من جريمة أمر شنيع. شخص ما يخاطر بحياته ومجده، ليستخدم فقط كزينة لأحد محبي الفنون، حتى لو كان البطل متخيلا فإن مخلوقا حيا هو الذي استوحاه، وأرفض أن أبتهج بمعاناته إذا لم أشاركه فيها، فسأتعرض لازدراء الرجال وحكمهم– لذا فأنا لا أثق بقداسة «فنسنت دي بول»، فلا بد أن يكون على استعداد أن يرتكب جريمة العبد، بدلا من أن يأخذ مكانه وراء القضبان.

من المرجح، أن طابع هذا الكتاب هو فضح الأشخاص الأخيار وليس الأشرار. لكنني لا أحاول أن أكون فضائحيا، وأنا أسرد هذه الملاحظات عن عدد قليل من الشباب، أحب أن يروا

فيها تسجيلا رقيقا لأعلى درجات الزهد. فالتجربة مريرة ولم أكملها بعد. قد يكون منطقها حلم يقظة لايهم إلا قليلاً لو تعاملت معه كمسألة رياضية وبشكل قاس، على النقيض مما لو استخرجت منها مواد مفيدة لإتقان عمل فني، ولتحقيق الكمال الأخلاقي، والاقتراب من تلك الطهارة التي ما تزال عندي أجمل كلمة في اللغة الإنسانية.

محاصرا بالعالم، مثلوما به، ومعارضا له، ساكون جميلا ومشعا مثل الملائكة الذين جرحوني وأعطوني شكلا أكثر حدة وجرحا أشد قسوة. لابد أن تنجز الأعمال إلى تمامها، ومهما كان منطقها فستكون النهاية جميلة، وحين لايتم العمل، يكون عادة قبيحا.

حين أدرت رأسي، انبهرت عيناي بالمثلث الرمادي الذي كونته ساقا القاتل، إحدى قدميه تستريح على الحافة المنخفضة للحائط، بينما الأخرى تقف ساكنة في تراب الفناء، كانت الساقان ترتديان قماشا شعبيا خشنا مقبضا. انبهرت عيناي ثانية، وأنا أتناول الوردة البيضاء التي كنت أمضغ ساقها، وأقذفها بإهمال (في وجه البلطجي)، لتقع، وكأنها بمكر خبيث، في فتحة البنطلون التي تكون زاوية حادة في القماش الرمادي. هذه الحركة البسيطة كانت مخرجا للحارس، ومخرجا للقاتل وللسجناء الآخرين. حين نظر القاتل- الذي أصيب بصدمة خفيفة- لبنطلونه احمرّ خجلا، هل ظن أنها بصقة؟ أو علامة فرح تمنحه لحظة من البقاء تحت أصفى سماء في فرنسا؟ باختصار، تحول وجهه إلى اللون القرمزي، وبحركة خفية انتزع الوردة العبثية ووضعها في جيبه.

لا أرى في الطهارة حالة، ولكن خطوة أخلاقية تقودني نحوها. إنها النقطة المثالية للأخلاق، ولأني لم أعرفها فلا أستطيع التحدث عنها. تبتعد كلما اقتربت. أرغبها وأخافها. قد يبدو هذا المسعى سخيفا ومؤلما لكنه مفرح. إنها فتاة لعوب. تصرخ من الفرح حين تسرق جونلتها.

أرى في التضحية، وليس في العزلة، الفضيلة الكبرى. فهي الفضيلة الخلاقة بامتياز، ففيها عذاب الجحيم. هل يدهش أحدكم حين أزعم أن الجريمة تساعدني في ترسيخ قواي الأخلاقية؟

متى يمكنني أن أقفز في قلب الصورة، وأكون النور الذي يحملها إلى عيونكم؟ متى يمكنني أن أكون في قلب الشعر؟

قد أقع في الضلال حين أحاول مزج القداسة بالعزلة. ولكن، ألست بذلك أتحمل مخاطرة أن أستعيد للقداسة معناها المسيحي الذي أحاول أن أزيحه عنها؟

هذا البحث عن الشفافية قد يكون عبثا. إذا تحقق فقد يريح. وأتوقف عن أن أكون «أنا»، وتتوقفون عن أن تكونوا «أنتم»، وتظل الابتسامة الباقية، ابتسامة رسمية تلقي بظلها فوق كل شيء.

في اليوم الذي وصلت فيه إلى سجن «سانتيه» – في إحدى إقاماتي العديدة هناك – طلبني مأمور السجن، لقد ثرثرت في غرفة الاستقبال عن صديق عرفته، وحكم عليّ بالسجن الانفرادي أسبوعين، بعد ثلاثة أيام مرّ لي أحد المساعدين بعض أعقاب السجائر التي أرسلها لي سجناء الزنزانة التي عُينت لي على الرغم بأني لم أطأها بعد. حين خرجت من الجحر، شكرتهم.

قال لي «جاي»: علمنا أن هناك سجينا جديدا، كُتب اسمه على الباب «جينيه»، لم نعرف من هو، ولم يحضر، فأدركنا أنك في السجن الانفرادي، وهكذا أرسلنا لك أعقاب السجائر. لقد تورطوا في عمل يعاقبون عليه، من أجل شخص يجهلونه. كان «جاي» روح الزنزانة، هذا المراهق مجعد الشعر، أبيض البشرة الشبيهة بالزبدة، كان ضميرها الصلب ومحور قوتها. اعتقله البوليس، وجرى الحوار التالي في حضوري:

– هل أنت الذي قمت بعملية شارع فلاندر؟

– ليس أنا.

– إنه أنت. فقد تعرفت عليك البوابة.

– إنه شخص يشبهني.

– قالت إن اسمه «جاي»

– إنه شخص يشبهني .. واسمه كاسمي

– تعرفت على ملابسك .. ؟

– إنه يشبهني وله الاسم نفسه والملابس ذاتها.

– له شعر كشعرك

– إنه يشبهني وله الاسم نفسه والملابس عينها والشعر ذاته.

– وجدوا بصمات أصابعك.

– وله بصمات أصابعي ..

– إلى متى يستمر ذلك؟

– إلى النهاية.

– أنت الذي قمت بالعملية.

– كلا .. لست أنا.

تلقيت منه رسالة، جاءت فيها الفقرة التالية: (لقد سجنت ثانية في سجن سانتيه).

«عزيزي چان.. أنا مفلس فلن أرسل لك أية هدية. لا أملك أي نقود. أحب أن أبلغك شيئاً آمل أن تسعد لسماعه، للمرة الأولى أشعر بالرغبة في ممارسة العادية السرية وأنا أفكر فيك، وقد فعلت. تستطيع أن تثق، على الأقل، أن لك صديقا يفكر فيك..»

كنت ألومه أحيانا على صداقته للمفتش «ريتشاردو»، وحاولت أن أشرح له أن رجل المباحث أقذر من الجاسوس. كان لايُصغي لي في أغلب الأحيان. كان يسير بخطوات قصيرة، واعيا بنفسه، تطوق عنقه ياقة قميصه الواسعه، المصنوعة من حرير ناعم، وعلى كتفيه سترة جيدة التفصيل، يمشي رافعا رأسه، ينظر أمامه باستقامة وحزم، تراه في شارع «باربيه» المظلم الكئيب، علّ أحد القوادين يراه من وراء ستائر غرفة في فندق.

يقول: أنت على حق.. كلهم أولاد زنا.

بعد لحظة، وقد خلته نسي الأمر، تمتم:

– نعم.. لكن رجال الشرطة ليسوا الشيء نفسه..

– أتعتقد ذلك؟

وعلى الرغم من نقاشي، الذي هدف إلى دمج رجال الشرطة مع الجواسيس، وإثبات أنهم أحقر، إلا أنني شعرت بما شعر به «چاي»، ومع ذلك لم أعترف به ولم أخبره عن مدى انفعالي حين كنت أمر وأنا في «مرسيليا» بمقصف الشرطة في ميدان «بيلزونك»، وهو مملوء بهم، ببزاتهم أو ملابسهم العادية. كان المقصف يفتنني. أحب الشرطة، أحبهم بشكل خفي. كانوا كالثعابين، يلتفون حول بعضهم، ويحتكون بألفة ودون إزعاج، بعيداً عن البؤس والحقارة.

كان يسير بجمود. يشع وجهه بجمال طفولي، هل يدرك أن فمه متهدل بشكل زائد؟ ولأنه أشقر بطبيعته، فقد كان يصبغ شعره بلون أسود. كان يريد أن يعتبره الآخرون «كورسيكيا»، وبعد فترة بدأ يصدق أنه كذلك. وشككت في أنه يحب الماكياج. قال:

– إنهم يلاحقونني.

نشاط اللص هو تتابع من الحركات المتشنجة والمتقدة معا، تنبع من داخل لافح، كل حركة منها مؤلمة وحقيرة. وبعد السرقة فقط، وشكرا للأدب، يغني اللص لحركته. نجاحه يلعلع في جسده ترنيمة يرددها فمه. وفشله ينعش يأسه.

إجابة على ابتسامتي وهزة كتفي، قال «چاي»:

– أبدو صغيرا جدا. لابد أن يبدو المرء رجلا مع الآخرين.

أعجبت بإرادته الحادة الصلبة، قال لي: إن ضحكة واحدة ينفجر بها قد تخونه. شعرت بشفقة عليه تشبه الرثاء الذي يشعره المرء تجاه أسد جعله مدربه يسير على حبل مشدود.

بالنسبة «لأرماند»، الذي تحدثت عنه قليلاً- يمنعني التواضع، وكذلك صعوبة الكشف عمن يكون وماذا يعنيه لي، من إعطاء فكرة دقيقة لقيمة سطوته الأخلاقية- كان عطفه، فيما أعتقد، عنصرا وجدت فيه صفاتي السرية- التي لايمكن الاعتراف بها – مبررها.

أدركت ذلك بعدما تركته، ووقفت الحدود بيني وبينه. بدا لي ذكيا، بمعنى أنه جرؤ بوعي على الافتراق عن القواعد الأخلاقية بسهولة خادعة لمن لايعون لها. لقد فعل ذلك بجهد كبير، وهو على ثقة بأنه سيفقد كنزا لايقدر، وثقة أكبر في قدرته على ابتداع قواعد أخرى أكثر قيمة مما ترك.

ذات مساء، وقد كنا في بار، علمنا أن عصابة دولية استسلمت للبوليس «كالجبناء دون معركة» كما قالت الصحف البلچيكية، وبدأ كل واحد يعلق على هذا السلوك.

قال روبرت: ليس لديهم شجاعة.. ألا توافقني؟

لم يجب «ستيلتانو» ، جبن أن يناقش الخوف والجسارة في حضوري. – أنت لاتجيب. يزعمون أنهم قاموا بأعمال كبيرة، سرقة بنوك وقطارات..

ومع ذلك يستسلمون إلى الشرطة كأولاد صغار طيبين. كان باستطاعتهم الدفاع عن أنفسهم حتى آخر رصاصة..

– أغلق فمك عما تقول.

كان غضب «أرماند» مفاجئا. وكان يرمق «روبرت» بحنق.

– لماذا؟ ألا توافقني؟

– حين كنت في مثل سنك ارتكبت أعمالا أكثر مما ارتكبت ومازلت لا أتكلم عن الرجال، خاصة أولئك الذين قبض عليهم.. كل مابقي لهم الآن هو المحاكمة.. لست كبيرا لتحكم عليهم.

هذه اللهجة الشارحة، جعلت «روبرت» أكثر جرأة، فقال:

– إنهم جبناء.. فلو فعلوا كل ما قالوا أنهم فعلوه..

– أنت أيها العاهر الصغير المقمّل.. بسبب ماقالوا إنهم عملوه فهم جبناء كما تقول.. هل تعرف مايريدون؟ هل تعرف؟ سأخبرك.. في اللحظة التي رأوا فيها إن الموضوع قد انتهى، أرادوا أن يمنحوا أنفسهم نوعا من البذخ لم يتح لهم من قبل: أن يكونوا جبناء. هل فهمت. إنها متعة لهم أن يستطيعوا الاستسلام للشرطة.. فذلك يمنحهم فترة راحة. لم يرمش جفن «لستيلتانو»، ومن طريقة ابتسامته الساخرة، أستطيع القول إنه كان يعرف ماتعنيه إجابة «أرماند» ليس بذلك الشكل البطولي، الواثق، المتغطرس، ولكن بأسلوب أكثر ذيوعا. لم يجب «روبرت»، لم يفهم الشرح قط، ووضعه ذلك، بخفة، خارج دائرة ثلاثتنا.

كنت سأكتشف هذا التبرير بنفسي، في وقت لاحق. يكمن عطف أرماند، في سماحه لي بالشعور أني على راحتي معه. كان يفهم كل شيء (أعني بذلك أنه حل لي مشاكلي) وليس معنى ذلك أن التفسير الذي قدمه عن تسليم العصابة، كان صحيحا، لكنه كان كذلك بالنسبة لي– كما لو أنه يبرر استسلامي في مثل هذه الظروف. كان فضله يكمن، أيضاً، في تحوله إلى صاخب معربد، ساخر فريد، وفي تخليه المهين عن الواجب. كان اهتمامه يكمن في رد الاعتبار، ليس لنفسه أو للآخرين بل للبؤس الأخلاقي الذي يمنحه ميزة هي التعبير عن ملذات العالم الرسمي.

ليس لي بنيته، ولا عضلاته لكن يبدو لي، أحيانا، حين أنظر في المرآة، أني أرى على وجهي بعضا من طبيعة عطفه القاسي، آنذاك، أشعر بالفخر بنفسي وبوجهي الثقيل المنهك. لا أدري في أي قبر بائس يرقد ميتا، أو إنه مازال حيا يتجول بجسده اللين القوي. إنه الشخص الوحيد الذي أرغب أن أدون اسمه الحقيقي: لكن أن أخونه حتى ولو قليلا، فسيكون ذلك كثيرا. حين ينهض عن كرسيه، فإنه يسيطر على العالم. لوصفع أو أهين جسديا لما جفل، يظل راسخا يمتلئ بالعظمة. كان يملأ السرير بساقيه المنفرجتين، بحيث لا أجد إلا مكانا صغيرا أتكوم فيه. أنام في ظل لحمه الذي يسقط على عيني أحيانا، وعند الاستيقاظ قد أجد جبيني مزينا بقرن بني ضخم وغريب. حين يستيقظ، يدفعني بقدمه خارج الفراش، بطريقة آمرة دون قسوة. لا يتكلم. كان يدخن وأنا أعد القهوة والتوست في بيت الجسد هذا حيث تستريح المعرفة، وتستقطر.

ذات مساء، وأثناء ثرثرة تافهة، علمنا أنه قد اعتاد في الماضي أن يذهب من «مرسيليا» إلى «بروكسل»، متجولا من مدينة إلى أخرى، ومن مقهى إلى آخر، يكسب رزقه بقص دانتلا ورقية جميلة أمام الزبائن. كان البحار الذي أخبرنا بذلك جادا في حديثه. تحدث، ببساطة وصراحة، عن أغطية المائدة والمناديل الجميلة والمفارش الرقيقة، التي كان يصنعها بمقص وورق مثني، وقال: رأيت أرماند يفعل ذلك. رأيته بنفسي.

وأثارتني فكرة أن يقوم سيدي الهادئ الضخم، بعمل هو من شأن النساء. لكن ذلك لم

يقلل من قيمته. لا أعرف السجن الذي كان فيه، وما إذا كان قد أطلق سراحه أو هرب، لكن ما علمته عنه، يشير إلى مدرسة الرقة والكياسه: شواطئ نهر «ماروني» في «غيانا» أو سجون فرنسا.

كان «ستيلتانو» يبتسم بخبث وهو يستمع إلى البحار، خفت أن يحاول جرح «أرماند»، وكنت محقا. فالدانتلا المصنوعة آليا، التي كان يبيعها للسيدات المحسنات، كانت علامة نبل تشير إلى تفوقه على «أرماند». وجبنت أن أطلب منه ألا يذكر المسألة، تظاهرت باللامبالاة، فإظهار مثل هذه الرقة تجاه صديق فتح في قلبي مساحات مضيئة غريبة، قد تكدرها ضربة إبهام عشواء.

قال «ستيلتانو»: المرء يتعلم كل يوم..

– ليس في ذلك عيب.

– ذلك ما أقوله.. فالمرء يواصل البقاء على الرغم من الصعوبات. كان عليّ أن أفترض أن عشاقي قد نحتوا من مادة صلبة، حتى أطمئن نفسي، وأدعم خوفي. وهأنذا أعرف أن من كان له أكبر التأثير على ذاتي كانت حياته مجموعة من محن إنسانية. واليوم، فإن معظم ما تسترجعه الذاكرة. يتناول علاقتنا، لكني لم أتخيله قط، يقوم بذلك العمل، يدور على المقاعد في المطاعم ويقص دانتلا من الورق. ربما اكتشفت، آنذاك، دون مساعدة من أحد، ليس ما يسميّ برقة وأناقة التعامل، بل قدرة التصرف اللبق في المواقف المتعددة.

كان يطلب مني أن أشعل سيجارته، ثم أضعها في فمه، ربما بسبب الكسل، أو إنه يريد أن يخضعني، أو لشعوره بحاجة إلى احتفالية تعزز شخصيته، لم يكن ينتظر أن تعلن رغبته عن نفسها، بل يفترض أن أسبقه إلى تنفيذها. فعلت ذلك في البداية، لكن لكوني مدخنا، وكي أنجز العمل بسرعة دون إضاعة للوقت، وضعت في فمي سيجارتين وأشعلتهما، ثم أعطيته واحدة. رفض بشدة هذه الحركة واعتبرها مهينة، فأخرجت سيجارة من العلبة، أشعلتها ووضعتها في فمه، ثم أشعلت واحدة لي.

❖ ❖ ❖

الحداد يعني بالدرجة الأولى الاستسلام لحزن كان لابد من الهرب منه، وتحويله إلى قوة ضرورية مفارقة للأخلاق التقليدية، لذا فأنا لا أستطيع سرقة الزهور لأضعها على قبر شخص عزيز لديّ. السرقة تفرض موقفا أخلاقيا لايمكن أن يتحقق دون جهد، إنها عمل بطولي. الحزن على فقد شخص محبوب، يكشف لنا عن رو ابطنا مع الجنس البشري، ويتطلب من الحي أن يتقيد بكرامة تامة، وجلال معين. جلال المناسبة يجعلنا نسرق الزهور مادمنا لانستطيع شراءها. هذا

العمل كان نتيجة يأس، لعجزنا أن نقوم بالطقوس العادية لوداع الميت.

جاءني «چاي» ليخبرني إن «موريس» قد ضرب بالرصاص لتوه قال: نحتاج بعض الأكاليل من الزهور..

– لماذا؟

– للجنازة.

كان حديثه مختصرا. كان خائفا إذا أطال أن تتخاذل روحه. أو ربما ظن أن لاوقت للدموع والنواح. ما الأكاليل التي يتحدث عنها؟ وأية جنازة أو طقوس؟

قال: الدفن. نحتاج زهورا.

– هل معك نقود؟

– لاشيء. سنجمع تبرعات.

– أين؟

– ليس في الكنيسة طبعا. من أصدقائنا في البارات.

– كلهم مفلسون.

لم يكن ما يطلبه «چاي» هو دفن رجل ميت، ولكن أن يقيم احتفالية لصديقه المجرم الذي أطلق عليه شرطي الرصاص. رغب في أن يحيك للأكثر مذلة، أجمل العباءات النباتية. وتكريم الأكثر حقارة وبؤسا، باستخدام وسائل من يرونهم كذلك، على الرغم من أنهم هم السبب فيما وصلوا إليه من حقارة وبؤس.

– ألا يؤلمك أن تعرف أن من يُقتل من رجال الشرطة يحظى بجنازة من الدرجة الأولى؟

– هل يضايقك ذلك؟

– ألا يضايقك أنت؟ حين يدُفن أحد القضاة فإن كل أعضاء المحكمة يسيرون خلفه.

كان «چاي» منفعلا، ومشتعلا بالغيظ، وكريما بلا حدود.

– لا أحد لديه النقود الكافية.

– سأتدبر الأمر.

– اذهب مع أصدقائه واسرقوا بعض الزهور.

– أنت مجنون.

كان يتكلم بصوت أجوف، خجلا، وربما آسفا. المجنون هو من يكرم ميته بجنازات مدهشة. فليبتدع الطقوس إذن. كان في موقف محزن، ككلب يقضي حاجته، يحزق بنظرة ثابتة، ومخالب أقدامه الأربعة، متقاربة تحت جسده المقوس، ويرتجف من رأسه إلى مبعره.

وتذكرت خزيي ودهشتي أيضا، لأني شاهدت مثل هذه الحركات، فذات يوم أحد، رأيت أمي التي ربتني تنتزع كتلة من الأقحوان عن قبر جديد مجهول، وتعيد غرسها على قبر ابنتها. سرقة الزهور من أي مكان لوضعها على قبر حبيب، أمر لايسر اللص، وكان «چاي» واعيا بذلك.. فلا مزاح ولا تسامح في موقف كهذا.

– ماذا ستفعل إذن؟

– سأسرق لكن بسرعة. اقتحام أو هجوم.

– هل لديك فكرة معينة

لا.

وفي الليل، مع صديقين، سرقوا بعض الزهور من مقبرة مونتبارنس، تسلقوا الحائط من شارع «فريدفو» قرب المباول. كان الأمر كأنه مزحة، هكذا أخبرني «چاي» بعد ذلك. كان من عادته أن يتغوط قبل أن يقوم بسرقة ما، ينزل بنطاله ويضعها خلف المدخل الرئيس، أو أسفل السلم أو في الفناء.

هذا العمل العادي يجعله يستعيد ثقته بنفسه. هو يعلم أنه في العامية الفرنسية يرمز «الغائط» إلى الحارس. فيقول: سأضع حارسا يرعانا. فنصبح أكثر هدوءا، والمكان أقل غربة.

ومضوا للبحث عن الزهور على ضوء بطارية. وصعب عليهم تمييز الزهور من الأوراق. نشوة الخمر جعلتهم يجرون، ويهرجون، بين الآثار، ثم يسرقون.

قال لي: لا تتخيل كيف كان الحال.

وتولت النساء عمل الأكاليل وباقات الورد، وفي الصباح كان كل شيء ذابلا. واضطروا إلى إلقائها في القمامة. ولابد أن البواب قد دهش تلك الليلة من طقوس حفلة بلا زهور. معظم القوادين جبنوا عن الذهاب إلى جنازة كتلك، فكرامتهم وصفاقتهم تستدعى احتفالا مهيبا. فأرسلوا نساءهم. وبالطبع ذهب «چاي»، وحين عاد أخبرني كم كان الأمر محزنا.

– بدونا كالجرذان. من المحزن أنك لم تأت. كان هناك عاهرتان وبعض المتشردين.

– أنت تعلم.. انني أراهم كل يوم.

– ليس ذلك هو الأمر ياچان.. لابد أن يرد أحد حين يسأل الحفّار عن العائلة... لقد شعرت بالخزي.

(حين كنت في اصلاحية «ميتري»، أُمرت بأن أحضر دفن صغير مات في الملجأ. اصطحبناه إلى المقبرة الصغيرة في الإصلاحية. كان حفارو القبور أطفالا، بعد أن أدلوا الكفن، أقسمت لو سأل أحد– كما يفعلون في المدينة– عن العائلة– لتقدمت بملابس الحداد دون تردد.)

تمطى چاي، ثم ابتسم، سألته: لماذا كنت خجلا؟

– كان الأمر مزريا. جنازة محتاج شديد الفقر. شربنا طوال الليل. أنا سعيد بعودتي. على الأقل أستطيع خلع حذائي.

حين كنت صغيرا، أردت أن أسرق الكنائس. بعد ذلك، استمتعت بسرقة السجاد والفازات وأحيانا اللوحات. في إحدى الكنائس، لم يلاحظ «جيه» جمال الدانتلا. حين أخبرته أن للأردية الكهنوتية وأغطية المذبح قيمة، تجعدت جبهته العريضة، وأراد رقما. تمتمت: لا أعرف. قال: كم؟ خمسون مثلاً.. لم أجب، كنت على عجلة لمغادرة تلك الغرفة حيث يبدّل القساوسة ملابسهم.

– كم.. خمسون..

قلة صبره، جعلتني أقول: أكثر.. مئة ألف..

ارتعشت أصابعه، وأصبحت ثقيلة، كادت تفسد القماش والدانتلا التي تزينه. كان وجهه في الضوء الضعيف مشحونا بالجشع، لا أدري كيف أصفه.. بالبشاعة أو بالعظمة. هدأت نفسانا حين جلسنا على ضفة «اللوار». ننتظر أول قطار شحن.

– أنت محظوظ بمعرفتك هذه الأشياء. كنت سأترك هذه الدانتلا.. وعرض عليّ، آنذاك، أن نعمل معا بتعاون أكبر.

– كل ما عليك أن تفعله هو أن تشير إلى العمل وأنا أقوم بالتنفيذ. رفضت. في السرقة، لا تستطيع أن تنفذ ما خططه شخص آخر. فالشخص الذي يقوم بعمل ما، لابد أن يكون لديه من الذكاء مايسمح له أن يقدّر غير المتوقع في مثل هذه الأحوال. وكان كل مايراه «چاي» في حياة اللصوصية، الفخامة والبريق الذهبي، بينما أرى فيها القتامة والسرية. أراها حياة خطرة، كما يراها. ولكنها مجازفة تختلف عن كسر العظم بالسقوط من أحد الاسقف، أو الانسحاق على حائط من عربة مطاردة، أو القتل برصاصة ٣٥/٦، لست مغرما بالمشاهد الفخمة، التي تتنكر فيها بزي كاردنيال لتسرق آثارا من كنيسة، أو تستقل طائرة لتتفوق على عصابة منافسة، فلا تهمني مثل هذه الالاعيب المترفة.

حين يسرق عربة مثلا، كان يتدبر الأمر بحيث يقودها، بالضبط، حين يظهر مالكها، يستعذب رؤية وجه الضحية تراقب سيارتها وهي تسلس قيادتها للص. كان ذلك متعته، وقد ينفجر بضحكة هائلة رنانة مصطنعة يفتعلها، ويقود بسرعة كالريح. لورأيت وجه الضحية، فانني أعاني من ذهولها وغضبها وخزيها.

عندما خرجت من السجن، تقابلنا في «لاڤيللا»، بار القوادين. كانت الجدران مغطاة بصور فوتوغرافية لساقيات في بارات، لكن معظمها لملاكمين وراقصات. لم يكن معه نقود، فقد كان هاربالتوه:

– اليس لديك ماتفعله؟

– لديّ.

أخبرته بصوت منخفض، أنني اعتزم سرقة صديق يمتلك بعض الروائع الفنية التي يمكن بيعها في الخارج. (كنت قد انتهيت، لتوى، من كتابة رواية عنوانها «سيدة الزهور»، أتاح لي نشرها اكتساب علاقات مع بعض الآثرياء.)

– هل سنضرب الرجل؟

– لاحاجة بنا لذلك.. اسمع..

أخذت نفسا عميقا، ورنوت إليه. غيّرت موضع يديّ على البار، ورفعت ساقيّ، باختصار، كنت مستعدا للجري.

– اسمع.. قد نرسل الرجل إلى السجن لمدة أسبوع.

لا أستطيع القول إن ملامحه قد تحركت، لكنها تغيرت، وتصلب وجهه وجمد. أصابني الخوف فجأة من قسوة نظرته الزرقاء. أحنى رأسه قليلا دون أن يتوقف عن النظر إلى وجهي، أو

بالدقة الحملقة فيّ ليسمرني في مكاني. وأدركت، فجأة، معنى التعبير الذي يقول «سأمسمرك». كان صوته، حين تكلم، منخفضا متوازنا، ومصوبا إلى معدتي، ينطلق بصلابة وقوة خبطة ضارية، وكانت لهجته مضغوطة موجزة:

– ماذا؟ أنت تقول ذلك يا چان؟ هل تريدني أن أرسل رجلا إلى السجن؟ وظل وجهي بلا حركة، مثل وجهه، وبالصلابة ذاتها،مع توتر مقصود. جعلت وجهي صلدا أمام السحب المتجمعة في وجهه العاصف، وأطرافي مستعدة لبرقه ورعده. أدركت أن غضبه قد ينفجر، وينطلق كثيفا، وفكرت بسرعة، كيف يمكن أن أنقذ نفسي دون أن يشك أني خططت لعمل شائن. لم أقل شيئاً، وتركت دهشته وغضبه ينصبان فوقي:

– يمكنني ضرب الرجل.. تكسيره وسرقته إذا أردت ذلك.. قل لي ياچان.. هل تريدني أن أشبعه ضربا..؟

كنت أحدق فيه صامتا. افترضت أن وجهي لا يُخترق. ولابد أنه رأى كم كنت متوترا. وأنني على حافة لحظة درامية حادة، بل في الواقع كنت ارادة مشلولة أمام قرار أدهشه وأثاره. خفت قسوته التي لم أر مثلها من قبل. كان يجلس على كرسيه العالي، ويده السميكة الخشنة تستريح على فخذه التي تنضغط عضلاتها تحت قماش بنطلونه الناعم، و بخسة وغباء وحيوية وأناقة ولزوجة، يشترك فيها مع كل القوادين أمثاله، من أصدقائه المحيطين بنا. كان يشعرني بأنني قزم، كلهم كانوا يشعرونني بذلك.

قال: أتدرك ماذا يعني أن نرسل رجال إلى هناك؟ كلانا عرف السجن لا نستطيع أن نفعل ذلك.

تُرى، هل وشي أو خان أصدقاءه، علاقته الحميمة بمفتش البوليس جعلتني أخاف – أو آمل – أن يكون مخبرا. وإزداد خوفي من أن يشي بي، لأنه، آنذاك، سيسبقني في الخيانة. كنت آمل أن يكون رفيقي ومساعدي في الحقارة. أفهم وحدة ويأس المسافر الذي فقد ظله. بقيت صامتا وحدقت فيه. كان وجهي ساكنا. لم يكن الوقت ناضجا لتغيير التكتيك. دعه يتخبط في الدهشه حتى يفقد طريقه. ولم يكن من بد من سماع توبيخه، إذ قال:

– لكن ياچينيه.. أنا أعتبرك كأخي.. أتدرك ذلك؟ إذا أراد أي أحد هنا أن يلقيك في السجن.. فستأولى أمره..

خفض من صوته، لاقتراب بعض القوادين (ربما سمعت بعض العاهرات ماقلناه، فالمكان كان مكتظا).

حدقت به بصلابة أكثر قدر ما استطعت. وعقدت حاجبي، وكنت أعض داخل شفتي،

ولم أنطق بشيء.

قال: أتعرف.. لو أن أحدا غيرك هو الذي أقترح ذلك..

وعلى الرغم من قوقعة الإرادة التي كنت أحمي بها نفسي، فقد أذلّني احتقاره الأخوي اللطيف. كلماته ولهجة صوته وجديته لم تعطني القدرة على تقرير ما إذا كان جاسوسا للشرطة أم لا. لن أتأكد ابدا. إذا كان جاسوسا فهو يحتقرني على عمل هو على استعداد لارتكابه. ومن الممكن أيضاً أن يمنعه ذلك من اتخاذي رفيقا في الوضاعة لأني أقل بريقا وإشعاعا من بعض اللصوص الآخرين الذين يمكن أن يقبلهم، كنت واعيا باحتقاره لي، من السهل عليه أن يذيبني كغزل البنات. ومع ذلك، كان عليّ أن أحافظ على صلابتي، وأكون هجوميا.

أضاف: لو أن شخصا آخر لأريته نجوم الظهر.. لا أدري لماذا تركتك تقولها.. لا أدري لماذا؟.

قلت بلهجة وقحة: وهو كذلك ذلك يكفي.

أدار رأسه، وسقط فكه، لهجتي أدهشته.

– هه..

– قلت ذلك يكفي.

انحنيت فوقه، ووضعت يدي على كتفه:

– أنت على حق. فقط قلقت حين رأيتك ودودا مع رجل المباحث. اضطربت ظننت أنك أصبحت مخبرا.. وهأنذا أقولها لك.

– أنت مجنون.. كنت أتملقه.. أولا لأنه محتال كبقية المحتالين.. ثم لكي يأتيني ببعض الأوراق.. إنك تستطيع أن ترشوه.

– وهو كذلك.. الآن تأكدت.. بالأمس حين رأيتكما تتناولان الشراب معا كان منظركما لايسر. فأنا لا أقبّل الواشين.. شكّي فيك كان كضربة تلقيتها على رأسي.. ظننت أنك قد أصبحت مخبرا..

لم أكن حريصا، ورفعت صوتي قليلا. التقطت أنفاسي بعدما لم أعد محتقرا، والراحة التي حطت عليّ جعلتني «ألعلع»، وجرفتني الفرحة للخروج من الاحتقار، وانقاذي، أيضا، من شجار كان سيقف فيه كل القوادين ضدى، ثم لسيطرتي بدوري على «چاي» بسلطة منحتها لي طلاقتي اللغوية، نوع من الشفقة على النفس مكنّني من الحديث بلا جهد، وتغيير في النبرة

أهاجنى، فقد كنت ضائعا حتى وضعت قدمي على الأرض. وانتابت صوتي بحة لخشونتي وتصلبي، وأصبح موضوع السرقة خارج السياق (لم يجرؤ أحد منا أن يشير اليها ثانية). أحاط بنا بعض القوادين المرموقين، وتكلموا بصوت مرتفع ولكن بأدب شديد. وتحدث لي «چاى» عن عشيقته، ورددت عليه بأفضل ما أستطيع. كنت مغلفا بحزن كبير يخترقه، أحيانا، برق غضبي، تمزقت وحدتي للحظة بفعل الأمل (صورتها لديّ كنوع من الضباب أو البخار ينبعث مني)، ثم أطبقت عليّ ثانية، فلابد أن يكون لي رفيق في الحرية (وقد تأكدت أن «چاي» واش ومخبر)، لقد أنكرني، مع أنني كنت أحب أن أخون معه، وأريد أن أحب شركائي في الجرم. هذا الموقف الوحيد الغريب (أن أكون لصا) لايجب أن يدعني أعتمد على ولد جاحد. خلال عملية السرقة، فالخوف الذي هو المادة (أو الضوء) الذي أتكون منه، قد يجعلني أرتمي بين ذراعي رفيقي. لا أعتقد أنني أختاره كبيرا وقويا حتى يحميني في حالة الفشل، ولكن من أجل لحظة الخوف الطاغي الذي يمكن أن يلقيني في فراغ ذراعيه أو فخذيه، حيث مرافئ البهجة، هذا الاختيار، الذي يجعل الخوف يتلاشي تماما، ويتحول إلى رقة، أمر خطير، فأنا أسلّم نفسي برغبتي إلى هاتين الكتفين الجميلتين، ولذلك الظهر، وتلك الأرداف. كان «چاي» مغريا أثناء العمل.

جاء ليراني وهو في حالة من الرعب، وكان من المستحيل أن أعرف إذا كان ذعره حقيقيا، فقد كان وجهه يبعث على الرثاء ذلك الصباح. في سجن «سانتيه»، في الممرات وعلى درجات السلم، كان يبدو أكثر راحة وهو يسير مع القوادين بمظهرهم الجميل، يرتدون ملابسهم التي يقابلون بها زوارهم من المحامين. هل أمان السجن يضفي عليه بهاءً أكثر؟

– أنا في ورطة لابد أن أخرج منها. دلني على عمل أقوم به لأتخلص منها. هو يثابر على الحياة وسط القوادين. وأدركت من عصبيته، وحركة رأسه الحاسمة، النغمة المأساوية للممثلات والشواذ، وتساءلت هل خدع به الرجال في «مونتمارتر»:

قلت: دخلت كالعاصفة دون إنذار.. لا أحصل على العمل من الصنبور..

– أي شيء يا چان.. أنا على استعداد لضرب أي شخص إذا لزم الأمر.. أو لحرق أي انسان من أجل قليل من النقود.. بالامس كدت ألقى نفسي في السجن.

قلت مبتسما: ذلك لايقودنا إلى شيء.

– أنت لاتعرف شيئا.. أنت تسكن فندقا فخما..

أقلقني. ما الذي أملكه حتى أخشى الفنادق الفخمة والثريات وغرف الاستقبال وصداقة الرجال؟ الراحة قد تعطيني جرأة الروح، وإذا كانت روحي بعيدة فإن جسدي سيتبعها بالتأكيد.

فجأة، نظر نحوى وابتسم: الشاب اللطيف الذي استقبلني في الصالة.. أيمكن أن نذهب

إلى غرفتك؟ هل غلامك هناك؟

– إنه هناك.

– هل هو جميل؟ من هو؟

– ستراه.

حين تركنا. سألت «لوسين» عن رأيه في «چاي»، كنت أتمنى في سري أن يحب كل منها الآخر.

قال: إن مظهره غريب بطاقيته تلك.. يبدو «كخيال المآتة»

ثم انتقل على الفور للحديث عن شيء آخر. لم تؤثر فيه مغامرات «چاي» ولا جسارته ولا الوشم على جسده، وكل ما رآه ملابسه الباعثة على السخرية. أناقة البلطجية يسأل عنها رجل ذواقة. إنهم يتزينون خاصة في الليل، كالعاهرات، جادّون في ذلك إلى درجة مثيرة. يريدون أن يشع جمال زينتهم. فأنانيتهم تختصر شخصياتهم على أجسادهم فقط– فقر بيت القواد الذي يلبس أحسن من أمير – ولكن ما علاقة كل ذلك «بجاي»؟ وماذا تعني تلك الملابس التي يرتديها، قبعة صغيرة تبعث على السخرية، سترة ضيقة، ومنديل جيب؟ مع أنه لايمتلك المظهر الطفولي الجميل الذي يتمتع به «لوسين» ولا سلوكه الحذر، إلا أن مزاجه العاطفي، وقلبه الأدفأ والأكثر توهجا، وحياته الملتهبة، تجعله عزيزا لديّ. كان على استعداد لارتكاب جريمة. والتضحية بنفسه، – كما قال– من أجل صديق، ولديه الشجاعة لفعل ذلك. كل صفات «لوسين». لاتملك – في عيني– قيمة فضيلة واحدة عند هذا البلطجي الباعث على السخرية.

حبي «للوسين» وسعادتي في هذا الحب، جعلاني أقتنع بأخلاق أكثر توافقاً مع عالمكم. ليس لأني أصبحت أكثر كرما (فقد كنت دائما كذلك)، ولكن الهدف الثابت الذي أسعى إليه، القاسي كقطعة المعدن في أعلى الدوسيه، المرغوب والمحبوب، والمطلوب لفخري ويأسي، يبدو لي تهديدا كبيرا لحبي. لوسين لايعي أنني أنقاد إلى مناطق جهنمية، أحب أن توردني المورد الذي تشاء. كم يكون حبي له فاتنا وباعثا على الدوار، والقيء والسقوط، لو كان «لوسين» لصا أو خائنا. لكن هل كان يحبني آنذاك؟ ألا أدين لرقته ولطفه الممتزجين داخلي إلى استسلامه للنظام الأخلاقي؟ إنني أحب أن أربط نفسي إلى وحش حديدي، يبتسم ببرود، يسرق ويقتل ويسلم أباه وأمه إلى العدالة. وأرغبه لأكون ذلك الذي يستثنيه الوحش، ممثل الله، بأن يكون، ويشبع كبريائي وذوقي للعزلة الأخلاقية. حبي «للوسين» يملؤني بالفرح، لكن إذا ذهبت إلى «مونمارتر» حيث عشت هناك طويلا، فإن ما أراه هناك، والبؤس الذي أحسه، يجعل دقات قلبي تسرع، ويوتّر جسدي وروحي. وأعرف أفضل من أي شخص آخر إنه لايوجد شيء في ذلك

الحي سيء السمعة، غامض أو سرى، ومع ذلك يبقي خفيا بالنسبة لي. ولكي تعيش ثانية في هذه الاماكن، وتنسجم مع العالم التحتي، تلزمك عودة مستحيلة إلى الماضي، لأن بلطجية المكان، شاحبى الوجوه، لهم أرواح شاحبة، وأكثر قواديه رعبا، أغبياء لدرجة تبعث على الضيق. وفي الليل، عندما يعود «لوسين» إلى غرفته، أتكور خائفا تحت الملاءات، اود لو كان بجانبي لص قاس أكثر رقة وخطورة. أخطط للمستقبل القريب لحياة خارجة عن القانون، خطرة، في أكثر الأحياء فسقا، وأشد الموانئ انغماسا في الفجور. سأهجر «لوسين»، وليصبح ما يمكن أن يصبحه، سأرحل، إلى برشلونة أوريو أو أي مكان آخر، ولكن أولا إلى السجن. سأجد «سك جورجوي» هناك. سيتمدد ذلك الزنجي الضخم على ظهرى بلطف، وبدقة وثقة سيدخلني، لن يرتعش، لن يأتي بسرعة كما أفعل، وسيملؤني حضوره بداخلي، حتى أنسى نفسي، وسيغمرني ذلك الزنجي الأكبر من الليل، كل عضلاته ستكون واعية، ومهما كانت روافد الحيوية المتجمعة في تلك النقطة الصلبة العنيفة، فإن جسده كله يرتعش باللذة والاهتمام بالذات، وكل ذلك مسخر لسعادتي. سنكون بلا حراك. ويغوص أعمق، حتى يلقيه نوع من النوم على كتفي، سيسحقني سواده ويذيبني بالتدريج. وأعرف، بفم مفتوح، أنه في سبات، ممسوك بمحور ارتكاز حديدي أسود. سأدوخ، ولن يكون لدي أي مسؤوليات أخرى. سأحدق في العالم بنظرة صافية كتلك التي منحها الملاك إلى «جانيميد».

كلما أحببت «لوسين» أكثر، فقدت رغبتي بالسرقة واللصوص. أنا سعيد بحبه، لكن حزني كبير، هش كالظل، ثقيل كزنجي، يغلف حياتي كلها، يستريح عليها، يمسها برفق، يسحقها، ويدفعها في فمي المفتوح: إنه الندم على اسطورتي. حبي «للوسين» عرّفنى بحلاوة الحنين المقززة. أستطيع هجره بمغادرة فرنسا.آنذاك أضمه إلى الكراهية التي أحملها لبلدي. لكن الولد الساحر، له عينا وشعر وصدر وساقا البلطجي الذي أقدسه، وبهجرانه أشعر بأني أنا الذي هُجرت، لقد أنقذه سحره.

هذا المساء، وأنا أتخلل خصلات شعره بأصابعي، قال لي حالما:

– أرغب في أن أرى ولدي بالفعل.

(ذات يوم، حين رست سفينته، حبَّل فتاته).

رمقته عيناى بحزن أكبر، ورقة أكثر. وحدقت في هذا الصغير ذي الوجه الكبريائي المبتسم، والعينين الحادتين، اللطيفتين الخبيثتين، كما لو أنه زوجة صغيرة. الجرح الذي ابتليت به هذا الصبي، يجبرني على احترام مفاجئ، ومعاملة لطيفة جديدة، بينما يجعله فاتر الهمة لايتذكره إلا كآلام ميلاد طفل. يبتسم لي، فتغمرني سعادة أكبر، وأشعر أن مسؤوليتي قد كبرت، كما لو أن السماء باركت اتحادنا بالمعنى الحرفي للمباركة. ترى، هل يستطيع أن ينسى، بعد ذلك، وهو مع

صديقاته، ما كانه بالنسبة لي؟ ماذا سيكون تأثير ذلك على روحه؟ ماالآلام التي لايمكن أن تعالج أبدا؟ أيكون لديه تجاه ذلك، لامبالاة «جاي» ؟ ابتسامة مع هزة من الكتفين، فيضيع ذلك الألم الثقيل الكابي للذكر الجريح، كما تنمحي الابتسامة في سيره السريع؟ أو هل يولد شيء طارئ معين من كل هذه الاشياء؟

نصحني روجر ألا أترك فرصة للشواذ الذين يصحبهم لكي يتمكنوا منه، واتبعنا الاحتياطات التالية: بمجرد أن يترك دورة المياه، أو أجمة الأشجار مصطحبا الرجل الذي اصطاده، نتبعه أنا و«ستيلتانو» عن بعد، إلى غرفته التي تقع في فندق صغير تديره عاهرة سابقة في شارع قذر رائحته مقززة. ننتظر عدة دقائق ثم نصعد.

كان يقول: لا تتأخر كثيرا.. أتفهم ياجينيه..

وأقول: على الأقل نتيح للرجل فرصة أن يخلع ملابسه.

– بالطبع.. لكن أسرع قليلاً.. سألقي بكرة من الورق أمام الباب.. كان يردد ذلك، غالبا، وبإلحاح، حتى أني سألته أخيراً:

– لماذا تريدني أن أسرع.. كل ما عليك أن تنتظرني.

– أنت مجنون.. أنا خائف.

– مم تخاف؟

– ألا تفهم؟ سأقول لك.. أنا أُثار بسرعة وإذا ملك الرجل الوقت فسيدخلني.. وأضيع.. لست متأكدا أني لن أدعه يفعل.

– دعه يفعل.

– لا تكن غبيا. إذا هجت فسأدعه يفعل.. ولايجب أن يحدث ذلك.. لاتخبر «ستيلتانو» عن الأمر.

تائه في غابة، يقوده الغول، ممسوك بسجان شرير، يلقي بحصوات بيضاء، تشير إلى حضوره برسالة متروكة عند الباب.

ذات مساء، تسليت بخوفه، بغباء. انتظرنا أنا و«ستيلتانو» وقتا طويلا قبل أن نصعد. حين وصلنا الباب، فتحناه بحذر شديد. كان يفصلنا عن الغرفة، مدخل صغير كفجوة في جدار. كان «روجر» عاريا على السرير وزهرة قرنفل بين إصبعي قدمه، ورجل عجوز كان يخلع ملابسه ببطء أمام مرآة. وفي المرآة رأينا المشهد التالي:

رفع «روجر» قدمه إلى فمه، بمهارة، والتقط الزهرة. شمها عدة مرات ثم مررها تحت إبطه. كان الرجل العجوز مثارا، ومرتبكا بأزراره وحمالته، ينظر إلى الجسد الرائع تناثرت عليه الزهور بذكاء و«روجر» يبتسم.

قال العجوز: أنت فرع الورود الهائم الخاص بي..

في تلك اللحظة، كان روجر يتلوى تحت الملاءة المجعدة، ثم استدار ونام على بطنه، ووضع الزهرة في مؤخرته، وضغط خديه على المخدة، وقال ضاحكا: وأنت ستهيم فوق هذه..

قال «ستيلتانو» الذي بدأ يتحرك: هأنا قد جئت.

كان هادئا. خجله، وقد تحدثت كيف يزين عنقه الوحشي فجأة، أدركت الآن إنه ليس شيئا ملموسا، كاحمرار جبينه ويديه- اللون لايظهر على بشرة ستيلتانو - كان خجله نوعا من كبح العواطف، لم يمنع أو يعق، في هذا الوقت، صوته أو مشيته. خطا إلى الفراش مهددا، أسرع من السرعة، قفز «روجر» واندفع نحو ملابسه.

- أنت ياعاهر..

- بأي حق..

كان الچنتلمان العجوز يرتعش. كشخص في رسم كرتوني يُظهر مراهقا متلبسا. كان ظهره أمام المرآة التي عكست كتفيه الضيقتين، وصفرة رأسه الصلعاء. وكان المشهد مضاءً بنور وردي.

قال له ستيلتانو: اخرس أنت.

وقال إلى روجر: أسرع وارتد ملابسك.

كان واقفا قرب كومة ثيابه، ومازال حاملا الزهرة ببراءة، وبالبراءة ذاتها كان قضيبه مازال منتصبا، وظل طوال الوقت مبتسما، بينما كان يرتدي ملابسه،. أمر سستيلتانو» الرجل أن يناوله أشياءه الثمينة.

- أكنت تظن يا ابن العاهرة أنك ستلولب أخي..

- لكني لم..

- اخرس.. أعطني نقودك؟

- كم تريد؟

– كلها.

كان ستيلتانو يتكلم ببرود، حتى أن الرجل توقف عن المعارضة.

– ساعتك..

– لكن..

– سأعد إلى عشرة..

هذه الجملة، أعادت ذكرى ألعاب الطفولة، وجعلت «ستيلتانو» يبدو أكثر قسوة. شعرت كأني ألعب. وأن «ستيلتانو» يتمادي في لعبه. فك العجوز السلسلة التي كات تتدلى منها الساعة، وتقدم ليسلّمها إلى «ستيلتانو».

– خواتمك..

تمتم العجوز: خواتمي..

أشار «ستيلتانو» المتسمر في وسط الغرفة بحدة إلى مايريده. كنت أقف خلفه، إلى اليسار قليلا، ويداي في جيبي، كنت أراقبه في المرآة، وأنا على ثقة بأنه سيكون قاسيا على غير طبيعته، في مواجهة الشاذ المرتعش. وحين أخبره الرجل إن المفاصل تعوق نزع الخواتم، أمره أن يفتح صنبور المياه، ويصبّن أصابعه. وصبنّ الرجل يديه بحذر شديد.

وحاول أن ينتزع خاتميه الذهبيين، لكن بلا نتيجة، وليأسه وخوفه من أن نقطع أصابعه، مد يده «لستيلتانو» بقلق ممزوج بخوف، كعروس أمام مذبح في كنيسة. هل أشهد زواج «ستيلتانو» الضخم من رجل عجوز مرتعش بيدين مبتلتين! (في وقت لاحق، بدت عاطفتي واضحة، حين اصطحبني «بيه» عبر حديقته، وتوقف أمام سرير من القرنفل قائلا: إنه أحد أجمل أسرّتي المصنوعة من الزهور).

حاول «ستيلتانو» بدقة ولطف، مع سخرية خفيفة غريبه كما اعتقدت، أن ينتزع الخاتمين بيد واحدة، والرجل يساعده بيده الأخرى، ربما شعر بفرح خفي أن يسرقه ذكر جميل. (أشير إلى هتاف أحدب فقير نتش منه «رينيه» ورقة الالف فرنك الوحيدة التي معه، دون أن يدعه يتمتع بها لحظة، من سوء الحظ إنني لم أتسلم أجرتي كاملة– وإلا لأعطيتها لك كلها، وأجابه «رينيه»: لا تخجل من إرسالها بالبريد) وكما يفعل المرء مع الأطفال، أو كما أصبّن له يده الوحيدة، بدأ «ستيلتانو» يصبّن يد الرجل. كلاهما كان هادئا يتعاونان في عملية بسيطة. كان «ستيلتانو» صبورا ويأخذ الأمر ببساطة. كنت واثقا أن دعكه للأصابع سيجعلها ترق حتى يخرج الخاتمين. وأخيرا، تراجع إلى الخلف، ودون أن يفقد أعصابه، صفع الرجل مرتين، وتخلى عن المحاولة.

أكتب هذا لسببين: مساعدتي في إحياء مشهد ذي سحر لاينتهي. عدم حياء «روجر» في تقديم نفسه للعجائز مما أضاف عنصرا للمشهد هو من صميم شاعريتي. أولا، الزهور التي تصاحب حيوية ولد في الحادية والعشرين لايتوقف عن الابتسام، وعرضه لقوة رجولته، وإخضاعها لرغبة مرتعشه لرجل عجوز، ثم وحشية «ستيلتانو» وقسوته في تنفيذ تعليماته حتى النهاية. وثانيا، إنه في تلك الغرفة أمام المرآة، حيث تجمع كل ذلك الشباب، بغض النظر عن المظاهر، ليكوّن فريقا في حب مع نفسه- كما بدا لي- ثم حضور رجل عجوز في نصف ملابسه. مثيرا للشفقة والسخرية، ذليل كأنه يرمز لي.

والسبب الثاني: أعتقد أن ذلك كله لم يضع بالنسبة لي، فقد اعترف «ستيلتانو» إنه أحب «روجر»، واعترف روجر أنه أحبه. لقد تعرفا على نفسيهما في العار ذاته.

سواء دخل «لوسين» غرفتي على أطراف أصابعه، أو دخل مندفعا، ينتابني الإحساس ذاته. العذابات المتخيلة التي اخترعتها له، تسبب لي ألما حادا، أكثر مما لو عاني منها فعلا. هل عليّ أن أصدق أن الفكرة التي أحملها عنه، أعز عليّ من الطفل الذي هو علتها وسببها؟ لا أستطيع أن أرى بدنه يعاني أي ألم أيضا. في لحظات معينة من الرقة، تبدو نظرته وكأن عليها حجاباً، تنطبق رموشه، ويظلل عينيه نوع من الضباب، وترتسم على وجهه ابتسامة مثيرة للمشاعر. رعب هذا الوجه ؛ لأنه يملؤني بالرعب، يعني اندفاعا أكثر في حبي لهذا الطفل. أغرق فيه كما يغرق المرء في الماء. الموت يلقيني إليه، وأرى نفسي أغرق. حين يكون نائما، لايجب أن أطيل التحديق فيه، فسأفقد قوتي. القوة التي استمدها منه، تدمرني وتحييني. الحب الذي أحمله له مكوّن من آلاف من إشارات المحبة التي انبعثت منه، إشارات تبدو وكأنها انبعثت بالمصادفة، وأنا وحدى الذي أمسكتها.

أقول لنفسي أحيانا: لو سرقنا معا فقد يحبني أكثر. ويقبل نزوات عشيقه، فاللوعة ستحطم خزيه.. أو طلاء الخزي الذي يغلفه.

وأجيب على نفسي: إن حبه آنذاك سيكون موجها إلى ند له، فيصبح أكثر عنفا، وحياتنا أكثر صخبا، لكن حبه لن يكون أقوى ابدا.

وحتى أجنبه أى ألم قد أسببه له، فمن الأفضل أن أقتله. إن «لوسين» الذي اسميته في مكان آخر «سفيرى على الأرض»، يقيّدني إلى الأشياء الفانية. وينصب جهدي- المبذول له وبه- على خدمة النظام الذي ينكر من أكرس له كل عنايتي. سأجوع، حتى أحوّله إلى قطعة

رائعة، مرئية ومتحركة والخطر يكمن فيما يقدمه لي من عناصر: السذاجة، اللامبالاة، الكسل، ميوله غير الفنية، احترامه الانساني، وهكذا سأتعامل مع مالم أعتد عليه، وعليّ أن أصل به إلى حل سعيد.

لو قدّم لي صفات مختلفة مناقضة، لعملت عليها بالحماسة ذاتها، لشخصية مناقضة، ولخرجت بحل غير عادي.

قلت، في وقت سابق، إن المعيار الوحيد لأي عمل، هو أناقته. وأنا لا أناقض نفسي حين أعلن اختياري للخيانة. فهي قد تكون عملا أنيقا، جميلا، يعتمد على القوة العصبية والكياسة. وأرفض فكرة النبالة التي تحبذ، بالتحديد،نوعا من التوافق الشكلي، وتتجاهل جمالا غير مرئي تقريبا، جمالا لابد من الكشف عنه في مكان غير التصرفات والأشياء المشينة. لا أحد سيسيء فهمي لو كتبت «إن الخيانة جميلة»، أو يكون جبانا ليعتقد – أو يتظاهر إنه يعتقد – إنني اتحدث عن حالات، تكون فيها الخيانة ضرورية ونبيلة، حين تسعى لتحقيق الخير. أتحدث عن الخيانة المنحطة. النوع الذي لايمكن تبريره بأي عذر بطولي. النوع الحقير الذليل من الخيانة، التي تنبع من أحط المشاعر نبالة: الطمع، الحسد والكراهية (مع أن بعض الاخلاقيات تصنف الكراهية ضمن المشاعر النبيلة.)

يكفي الخائن أن يكون واعيا بخيانته، وإنه يريدها، وأن يكون قادرا على تحطيم روابط الحب التي تربطه بالجنس البشري. فلا يمكن الاستغناء عنه في تحقيق الجمال: الحب، ثم قسوة تحطيم ذلك الحب.

وإذا كان يملك الشجاعة– أرجوكم أن تفهموا – فإن الرجل المجرم يقرر أن يكون ما صنعت منه الجريمة، وتبرير ذلك سهل، وإلا كيف يمكنه أن يعيش؟ إنه يستمد التبرير من كبريائه (لاحظ القوة غير العادية للإبداع الشفوي النابعة من الكبرياء، كما تنبع من الغضب). إنه يلف نفسه بعاره النابع من كبريائه، كلمة تحدد أجرأ أنواع الحرية. يغلف نفسه بعاره، وبلعابه ينسج خيوطه الحريرية التي هي فخره. والثوب ليس طبيعيا، لكنه نسجه ليحمي نفسه، وينسجه قرمزيا ليزّين ذاته. فلا خيلاء بلا ذنب. إذا كان الزهو هو الحرية الأكثر جرأة، وهو العباءة المدهشة المنسوج منها ذنبي، الذي يقف داخلها منتصبا، فإني أريد أن أكون مذنبا. فالذنب يؤدي إلى التفرد ويحطم التشوش، وإذا كان للمذنب قلبا قاسيا (فليس كافياأن ترتكب جريمة، على المرء أن يستحقها، ويستحق أن يرتكبها) فعليه أن يرفعها على قاعدة من العزلة. لقد اكتسبت العزلة ولم تعط لي. انقدت إليها بسبب الجمال. أردت أن أعرّف نفسي بها، أعين الحدود الفاصلة، أخرج من التشوش، وأضع نفسي في نظام.

ولأنني لقيط، فقد اجتزت طفولتي وصباي وحيدا. ولأنني لص فقد اعتقدت في تفرد وفردية اللصوصية. واعتبرت نفسي استثناءً وحشيا. فمزاجي الخاص ولصوصيتي ارتبطتا بلواطيتى

مما جعلني في عزلة استثنائية. واندهشت حين رأيت كم كانت اللصوصية شائعة. وغصت في أعماق الابتذال. ولكي أنتشل نفسي، كان عليّ أن أبجل مصيري في اللصوصية، وأن أريده. وأثار هذا مرة، ومضة من ذكاء، أدهشت بعض البلهاء. هل كنت لصا سيئا؟ إذا كان لذلك أهمية! كلمة لص تعني الرجل الذي يكون نشاطه الأساسي يعتمد على السرقة، مع حذف أي شيء آخر لايمت إلى اللص بصلة. وتكون الشاعرية هنا، في وعيه الكامل بأنه لص. وقد يكون الوعي بأية صفة أخرى أساسية، عاملا لتواجد هذه الشاعرية أيضاً. وهكذا، فإن وعيي بتفردي، يتصف بنشاطي الاجتماعي، الذي هو: اللصوصية.

بلاشك، فالمجرم الفخور بما هو عليه، يدين بفرديته إلى المجتمع، لكن لابد أن يكون قد امتلك تلك الصفات ليعرفه المجتمع بها، ويدينه بسببها. أردت أن أعارض المجتمع، لكنه قد أدانني مسبقا، معاقبا عدوا يخاف روحه الوحيدة وليس اللص الفعلي. لكنه احتوى تفردي، وعليه أن يحاربه، فهو ندمه وسبب قلقه، وشوكة في لحمه، وجرح يفيض بدمه، لايجرؤ أن يسفحه بنفسه. وإذا لم أحز على أشد المصائر عظمة، فإنني أريد أكثرها تعاسة، ليس سعيا وراء عزلة كاملة، ولكن كي أحقق شيئاً جديداً بهذه الصفة النادرة.

❖ ❖ ❖

قابلت «چاي» مصادفة ذات يوم، لا في «مونمارتر» ولا في «الشانزليزيه»، ولكن في سوق «سانت كوين». كان وسخ الوجه، مهلهل الثياب، مغطى بالقذارة. كان وحده وسط مجموعة من المشترين، أفقر وأوسخ منه. كان يحاول بيع ملاءتين، ربما سرقهما من غرفة في فندق. (كنت، غالبا، أرهق نفسي بحمل أشياء، تجعل شكلي ومشيتي تبدوان عبثيتين. كنت أحمل كتبا تحت إبطي تمنع ذراعيّ من الحركة، ملاءات أو بطانيات ملفوفة حول وسطي تجعلني أبدو بدينا، مظلة ممتدة بطول ساقي، وانواط على أكمامي.) كان منظره مؤسفا. عرفنا بعضا على الفور:

قلت: أهذا أنت يا «چاي»؟

لا أعرف ماذا قرأ على وجهي، فقد بدا وجهه مرعبا

قال: ابعد عني.

قلت: اسمع..

كانت الملاءتان تغطيان ساعديه بطريقة نبيلة كتلك التي تُعرض فيها الملابس على الدمى

في واجهات المحلات.

قال، وهو يميل برأسه جانبا كما لو أنه يؤكد كلماته:

– انسني..

– لكن..

– ياصديقي.. انسني.

الخجل والبؤس جعلا لعابه لايساعده على نطق جملة أطول. وواصلت سيري أنا و«چافا» الذي كان في صحبتي.

❖ ❖ ❖

اللصوص الفاتنون، التي تبهجني صنعتهم ومشاغلهم، كي يكتشفوا ما بأنفسهم، يستخدمون حركات أو أفعال مناقضة لها، ترفضها أو تسعى لتدميرها، فقد اخترع «موريس ب»، واستخدم آلات مبتكرة كي تظهر ما بنفسه، بالمغايرة. أصالته تثبت خصوصيته وحساسيته. كان يتتبع بسرية (بلا وعي طبعا) الشر داخل نفسه. بيته الآن، محصن بوسائل ماكرة: تيار ذو ضغط عال يسري في لوح معدني على قضبان نوافذه، وهناك نظام للإنذار، وأقفال متعددة على الأبواب، وهكذا. ليس لديه الكثير ليحميه، لكنه بهذه الطريقة يبقى على اتصال مع روح، وسرعة خاطر صانعي الشر.

الله: محكمتي الداخلية الخاصة.

القداسة: الاتحاد مع الله.

وتكون القداسة،. حين تتوقف المحكمة الخاصة،و بمعنى حين يندمج القاضي والمتهم. المحكمة تفصل بين الخير والشر، تصدر الحكم وتحدد العقوبة.

سأتوقف عن أن أكون القاضي والمتهم.

❖ ❖ ❖

الشباب الواقع في الحب يستنزف نفسه بحثا عن المواقف الشهوانية. وإذا كان خيالهم فقيرا وحبهم عميقا، صاروا أكثر حبا للاستطلاع. اعتاد «روجر» أن يفعص العنب على فخذي فتاته،

ثم يقتسمانه ويأكلانه. وكان، أحيانا، يقدم بعضه لأصدقائه، فيدهشهم. كما كان يلطخ نفسه بكريمة الشيكولاته مثلا. أحد عشاقي كان يزّين عِضوه بالشرائط، وآخر نسج، ذات مرة، إكليلا رفيعا من الزهور لعضو صديقه. عبادة القضيب يحتفل بها بحماسة وخصوصية وراء فتحات البناطيل المغلقة. كنت أنسق على عري «چافا»، الريش الذي يتناثر في الليل من المخدة المكبوسة. كلمة «خصيتان» تملأ فمي، وحين أتخيل هذا الجزء من الجسد تكون جاذبيتي هي أعظم فضائلي، فأصبح كالساحر الذي يخرج العجائب من قبعته.

سألني «رينيه» إذا كنت أعرف أي شواذ يمكن أن يسرقهم. قال:

– أصدقاؤك خارج الموضوع بالطبع.

فكرت لعدة دقائق، ووقعت، أخيرا، على «بيير دابليو» الذي قضى «چافا» في بيته أياما قليلة. كان «بيير» شاذا في الخمسين من عمره، أصلع ومدعيا، يلبس نظارات بإطار معدني. قال لي «چافا» الذي قابله في «الريڤيرا» «إنه يضع نظارته في الكوميدونو حين يمارس الجنس»، وذات يوم سألته من باب المداعبة إذا كان يحب «بيير».

قال: أنت مجنون.. أنا لا أحبه لكنه صديق جيد.

– هل تُعجب به؟

– نعم. فهو يطعمني وأحيانا يرسل لي بعض النقود. كان ذلك منذ ستة أشهر، سألته الآن:

– هل هناك أي شيء يمكن سرقته من «بير»؟

– ليس كثيرا.. أنت تعرف لديه ساعة ذهبية..

– هل ذلك كل شيء؟

– قد يكون معه بعض النقود.. ولكن عليك أن تبحث عنها.

كان «رينيه» يريد تفاصيل دقيقة وقد حصل عليها من «چافا» الذي وافق أن يأخذ موعدا مع عشيقه السابق ويقوده إلى مصيدة، بينما «رينيه» يقوم بسرقة شقته. حين غادرنا «چافا» قال لي «رينيه».

– «چافا» هذا حقير تماما. عليك أن تكون مجرما بحق حتى تفعل فعلته.. أتعرف أنا لا

أجرؤ أن أفعل مثله.

جو غريب، محزن وعاصف، أظلم العالم: أنا أحب «چافا» وهو يحبني، لكن الحقد جعلنا خصمين لم نعد نتحمل الأمر. أصبحنا نكره بعضنا. حين ظهر هذا الحقد الغاضب، شعرت بنفسي أتلاشى، ورأيته يختفي.

– أنت ابن عاهرة.

– وأنت سافل صغير.

لأول مرة، كان حازما، غاضبا، قاسيا، وأراد قتلي. وتوقف أن يكون شخصا، وغدا طيفا. وانتهى ما كنته له، بينما بقيت في داخلنا، الثقة في أننا سنتصالح، تنتظر ونراقب هذياننا، ثقة عميقة، وحين حدث ذلك، بكينا.

لم يمنعني جبن «چافا» ولا كسله أو سوقيته في سلوكه ومشاعره، أو حتى غباؤه، من حبه. وأضيف إلى ذلك سجاياه الجميلة أيضاً. إن تواجه هذه العناصر أو اختلاطها أو تداخلها، يخلق خليطا جديدا ليس له اسم، وأضيف إلى ذلك مميزاته الجسدية، جسمه الضخم القمحي. ولأعبر عن هذه النوعية الجديدة، أشبهها بقطعة البللور التي يمثل كل وجه صغير فيها، عنصر من العناصر التي سبق ذكرها. «چافا» يشع. ماؤه وناره هما بدقة الفضيلة المميزة التي أحبها وأسميها «چافا» وباختصار أنا لا أحب الغباء أو الجبن، لا أحب «چافا» من أجل هذه أوتلك من الصفات، لكن لقاءها داخله يفتنني.

قد يدهش القارئ أن اتحاد مثل هذه الصفات المتراخية، ينتج الأطراف الحادة لبللورة صخرية، وقد يدهشه، أنني أقارن التعبير الأخلاقي للأفعال، وليس الافعال نفسها، بصفات تعزى إلى عالم يحدد ويقيس مثل هذه الصفات. قلت إنني كنت مفتونا، هذه الكلمة تحتوى على حزمة مضيئة من الشعاع، مثل إشعاع الكريستال، وقد نتج هذا الشعاع من ترتيب معين للأسطح، ولهذه الإشعاعات، أقوم بمقارنة هذه الفضيله التي تحققت من الجبن والكسل وغيرها من الصفات.

هذه الفضيلة ليس لها اسم، إلا أن تكون تعبيرا عن الشيء الذي أشعها، وقد وجدت مادة سريعة الالتهاب، فإن النيران التي تدفقت منه، جعلتني متوهجا. وهذا هو معنى الحب. ولأنني ألزمت نفسي بالبحث في داخلي بما أقارنه بهذه المادة، فقد تحققت، بعد تفكير، بغياب مثل هذه الصفات. وحين اواجه بما داخل «چافا» يصيبني الدوار. هو يشع، وأنا أحترق، إنه يحرقني. أمسك بالقلم من أجل التعبير عن تأمل قصير، فتزدحم في ذهني كلمات توحي بالنور والحرارة، بواسطتها، عادة، نتكلم عن الحب: الدوار، الأشعة، النار، الاحتراق، الاشعاع، الافتتان. ومع

ذلك، كانت صفات «چافا» – تلك التي تصنع نيرانه – ثلجية باردة. كل واحدة، على انفصال، توحي بغياب السجية، بغياب الحرارة.

ماكتبته لتوي، لايصوّر «چافا»، بل يعطي فكرة عنه، في لحظة، كان فيها معي. والآن، حين هجرني، أوضح بواسطة الصورة، لماذا أعاني. لقد انفصلنا بطريقة موجعة، كانت مؤلمة جدا لي. تجنبني «چافا». كان صمته، وقبلاته السريعة، وزياراته العابرة – كان يأتي على دراجة- هروبا. تحت أشجار الكستناء في «الشانزليزية» أخبرته بحبي الشديد له. كانت لديّ فرصة طيبة. عاطفته وانفعاله هما ما يشدني إليه وأنا على وشك الانفصال عنه، ثم حيرته في مواجهة قراري، والالم الذي يسببه هذا الانفصال المفاجئ. كان حائرا. ما قلته له عنا – وخاصة عنه- أصابنا بالتوتر، حتى إن عينيه أظلمتا. كان حزينا. وقد أحاطه هذا الحزن بهالة شاعرية جعلته أكثر جاذبية، يبرق في الضباب، وأصبحت أكثر انجذابا له في اللحظة التي يجب أن أتركه فيها.

كانت يده التي التقطت السيجارة التي قدمتها له، ضعيفة ورقيقة جدا، بالنسبة لجسده الثقيل ذي العضلات. نهضت وقبلته، وأخبرته أن هذه هي القبلة الأخيرة.

قال: لا يا «چان» ستكون هناك قبل أخرى.

بعد عدة دقائق، وأنا استعيد هذا المشهد، تأكدت – دون أن أكون واعيا بذلك في البداية – إن هشاشة يده، جعلت من قراري نهائيا ولا رجعة فيه.

كانت غرفتنا مظلمة بسبب الملابس المبتلة المنشورة على الحبال الممتدة، بتعرج، من حائط إلى حائط. هذا الغسيل- قمصان، كلاسين، مناديل، جوارب، بشاكير- يطرّي جسدي وروحي الزميلان المشاركان في الغرفة. نذهب إلى النوم كأخوين. ومع إن راحتي يديه كانتا أكثر نعومة بسبب نقعهما في الصابون فترة طويلة، إلا إنه يعوض ذلك بعنف ممارسته للجنس.

بعد شجارنا، الذي أهنته فيه بقسوة نابعة من حبي له، اتهمته بالجبن، وإنه بسبب ضعفه، يسلم نفسه من أجل نقود قليلة (أكد لي مرة، إنه حمى مؤخرته بأصابعه المفرودة، كان العجوز يظن إنه يلولبني، ولم تكن سوى يدى، جعلته يعتقد إني نائم، وقذف على أصابعي.) كنا في الغرفة نفسها نصطدم بالغسيل المعلق الذي مازال مبتلا. فجأة، أمسكت رأسه بين يدىّ وابتسمت له. عاد الأمل إليه، صعد من قلبه إلى فمه الذي ابتسم. امتلأت عيناه بالدموع. وكان قضيبي وراء أزرار البنطلون جاهزا، منتفخا بالدم الفرح، متصدرا هذه المصالحة العاطفية، عازما على المشاركة في هذه الاحتفالية. وبرقة، وضعت يد «چافا» الرشيقة عليه، فأحنى رأسه برفق.

في كل مدينة مهمة في فرنسا، عرفت لصا واحدا على الأقل، عملت معه، أو التقيته في السجن وخططنا لعمليات مختلفة. أستطيع أن أعتمد عليهم، لو حدث وكنت وحيدا في

مدنهم. هؤلاء الزملاء، المبعثرون في جميع أنحاء فرنسا، وبعض البلدان الأخرى، يشكلون عنصر راحة لي. حتى لو لم أرهم مرات عديدة. يجعلونني هادئا وسعيدا حين أعرف أنهم أحياء، نشطاء، أنقاء، يكمنون في الظل. مفكرتي الصغيرة التي تضم أسماءهم وعناوينهم مخربشة هناك، محلاة بقوة تبعث على الراحة. لها السلطة ذاتها التي للقضيب. إنها كنزي.

بعض ماهو مسجل فيها: جين ب في «نيس» قابلته ذات ليلة في حديقة «البرت» لم يواته قلبه على ضربي وسرقة نقودي، ولكنه أخبرني بقضية «مونت بورون». رينيه د. في أورليانز، چاك ل. ومارتينو بحاران يقيمان في بريست. قابلتهما في سجن «بوجين» وقمنا ببعض الأعمال معا في تجارة المخدرات. ديديه في «كان»، كان قوادا، في «ليون» بعض المحتالين، زنجي وزميل آخر يديران بيت دعارة. في مارسيليا عرفت عشرين زميلا طيبا، في «بو» عرفت جابرييل.. وهكذا. قلت إنهم أنقاء (جمع أنيق)، ليس بمعنى جمال الشكل، ولكن بشيء آخر، خليط من قوة ويأس وصفات أخرى عديدة مثل الخجل والدهاء والكسل والانصياع، والملل والاحتقار، والشجاعة والجبن والخوف وقائمة أخرى طويلة. هذه الصفات محفورة على أوجه وأجساد اصدقائي، حيث تتداخل وتتصادم وتتعارض. ولذا أقول إن هؤلاء الرجال لديهم حيوية ونشاط، بالاضافة إلى المشاركة أو التواطؤ الذي يوحدنا في تآلف سري، ضرب من الحلف الرقيق يبدو هشا، لكنني أعرف كيف أحميه، وأعالجه بأصابع رقيقه، رشيقة، إنه ذكرى ليالي حبنا، أو ذكرى محادثة شهوانية قصيرة، أو ممارسة للجنس مع ابتسامة مجهدة وتنهيدة لذة المشاركة. وجميعهم، قد سمحوا لي، بصدر رحب، أن أشحن نفسي بخشونتهم، كأن هناك قطبين يمر التيار بينهما. وأعتقد، أنهم جميعا، وبوعي غامض، أدركوا أنهم بذلك يزيدون شجاعتي، ويضرمون النار في جسدي، ويزودونني بإرادة للعمل، ذات قوة كافية- منبعثة منهم- كي أحميهم. ومع ذلك، فأنا وحيد. مفكرة العناوين في جيبي دليل مكتوب أن لديّ مثل هؤلاء الأصدقاء، ولكن حياتهم، كما هو واضح، متنافرة غير مترابطة كحياتي، وأنا في الحقيقة لا أعرف شيئا عنهم. ربما معظمهم الآن في السجون. ولكن أين الآخرين؟ إذا كانوا يسيحون في الأرض، فأي مصادفة تجمعني بهم، وماذا ستكون حالنا؟ ومع ذلك، فما دام تعارض الشرير والنبيل قائما، فإنني أستطيع أن أميز بينهم لحظات من الزهو والقوة، وأتعرف من خلالهم على عناصر قوة مبعثرة، أرغب في جمعها داخلي، كي أصنع منها امتيازا متعمدا ومدروسا.

مظهر «أرماند» الجسماني - بنية بحار ضخم ومرهق، عينان كليلتان، ورأس حليق تماما تقريبا، وأنف مكسور، ليس من قبضة رجل، بل لأنه اصطدم بالحوائط الزجاجية التي تفصلنا عن

عالمكم- يجعلني أستدعي الآن- ولم يكن يفعل ذلك في الماضي - السجن كأعظم وأشهر نموذج عرفته. يستدعيني، فأسرع نحوه، ويشكل لي في يأسي المكان الذي يجب أن يحيطني. العنصر الأمومي الذي أدركته فيه، لم يكن أنثويا، أحيانا يتبادل الرجال التحية على النحو التالي: هلا أيها الصديق القديم.

- هاي.. ياجبان.

- أهو أنت يا..

هذا الاستخدام يخص عالم الفقر والجريمة. الجريمة التي يعاقب عليها المجتمع، وتحمل في ذاتها علامة وصمة خابية- أتحدث عنها كأني أتحدث عن زهرة مفضلة كالليلك، حين تكون الوصمة ماركة مسجلة كفصيلة الزنابق- هذه التحايا تشير إلى سقوط رجال كانوا يوما أقوياء. ولأنهم جرحوا فإنهم يتحملون المغالطة والمواربة بل ويرغبونها. وهم مستعدون لتلقيح أنفسهم، وفقس بيضهم، دون خوف من خشونة لدغتهم الذكورية القاسية.

يقول أوضع الشحاذين فيما بينهم «كيف حال المخلاة؟ أو الروبابيكيا؟، غيانا اسم أنثوي. تضم كل اولئك الذكور الذين يطلقون عليهم قساة. وهي بالإضافة إلى ذلك، منطقة استوائية، في خصر العالم، وأكثر البقاع التي تنتشر فيها الحمى- الحمى الذهبية - حيث ماتزال القبائل المتوحشة مختبئة في مستنقعات الغابات. هناك أذهب - لقد اختفت، مع أنها المنطقة النموذجية لسوء الحظ والتوبة، التي يتجه إليها الشخص الذي يحرسني وليس جسدي- بخوف يختلط بالبهجة. كل الأشقياء الذين سكنوها ظلوا مكتملي الرجولة، لكن سقوطهم يعلّمهم عبث إثبات أنهم يملكونها. أرماند كان رجلا، وبسأم كان ينام على عضلاته، كالأبطال على أكاليل الغار. يستريح على قوته وفيها. إذا استقرت قبضته على مؤخرة عنق رقيق لغلام، فإنه يدفع الرأس بقسوة نحو قضيبه. يفعل ذلك بلامبالاة، فهو لم ينس الحركات الطائشة لعالم عاش فيه فترة طويلة، حيث أعتقد إنه كان هناك. وإذا كان عطوفا، كما سبق أن قلت، فلأنه يقدم لي بكرم، ما يحقق تماما رغباتي السرية- تلك الرغبات التي اكتشفتها بألم شديد بالمعنى الحرفي للكلمة- وهي الرغبات الوحيدة التي تجعل مني الشخصية الأفضل، بمعنى الشخصية المتطابقة أكثر التطابق مع ذاتي. أحن إلى غيانا، ليس إلى المكان الجغرافي الذي أصبح الآن أقل حيوية وسكانا، بل إلى الجوار والقرب، ليس في المكان ولكن في الوعي، للنماذج الأولية السامية للتعاسة، غيانا منطقة عطوفة. حركة التنفس التي تجعلها تصعد وتهبط بإيقاع بطيء، ثقيل ومنتظم، محكومة بجو من الحنان. يبدو المكان قاسيا بجفافه وجدبه، ومع ذلك أعبر عنه بطريقة عاطفية، فهو يوحي ويقدم ثديا أموميا، محملا بقوة تبعث على الثقة، تتصاعد منها رائحة مثيرة للغثيان قليلا، تمنحني سلاما مخزيا. إنني أرى في الأم العذراء وفي غيانا.. الشيئين اللذين يبعثان العزاء في قلب المبتلي.

بدا «أرماند» وكأنه يمتلك الصفات الشريرة ذاتها، ومع ذلك حين أفكر فيه لاترد إلى ذهني صور قاسية، بل صور رقيقة جدا، كأنها تعبر بدقة عن حبي لكم وليس له. حين غادرت بلچيكا، كما ذكرت، مأسورا بنوع من الخزى والندم، ظللت أفكر فيه في القطار، وفاقدا الأمل في رؤيته ثانية بدأت في تتبع غريب لشبحه: كلما أبعد القطار المسافة بيننا، أجبر نفسي على تقليل المسافة والزمن اللذين يفصلان بيننا، وأن أندفع بأفكاري إلى الماضي بسرعة أكبر، بينما فكرة حنانه– وهي الشيء الوحيد الذي يعزّيني بفقده – تفرض نفسها عليّ، وتكبر بدقة أكثر، إلى درجة أن القطار حين عبر جسر «موبوج»، شعرت بأن الجسر سيتهاوى، وإن القطار ينقسم إلى قسمين، ويقع في الهاوية التي فغرت فاها فجأة، (سار القطار أولا عبر غابة من شجر التنوب، وربما الاكتشاف المفاجئ لمنظر صاف وتناقضه المباشر مع ظل أشجار التنوب العطوفة، بعث في ذهني فكرة الكارثة.)

هذا الحنان وحده، الذي ملأني بالفعل. إلى درجة التحكم بأفعالى، كان كافيا لوصل الاجزاء المكسورة،. واستعادة الجسر، وإنقاذ القطار من الكارثة. وحين عبرنا جسرا آخر فوق واد، تساءلت عما إذا كان كل ما ذكرته لم يحدث بالفعل. وواصل القطار سيره، وتراجعت بلچيكا ورائي، أمام الريف الفرنسي.

لا يتمثل حنان «إرماند» في فعل الخير: إن فكرتي عنه، كما يظهرها على عجل، هيكله العظمي والعضلي، عبارة عن شيء ضبابي لجأت إليه، وأتخذته مأوى لي، وكان عذبا حتى أنني أرسلت منه رسائل عرفان بالجميل إلى جميع العالم. كنت أجد هناك مبررا لحبي «للوسين»، الذي كان إرماند سيباركه. وعلى خلاف «ستيلتانو»، كان سيحتويني بحمولتي من الحب وكل توابعه. لقد تشربني إرماند. لم يكن حنانه إحدى الصفات المعترف بها ضمن الاخلاقيات العادية، بل إنه، كما أراه، مازال يثير داخلي عواطف تشع منها صورا للسلام. إنه، بتعبير لغوى، أمر جربته ولم أحسه فقط.

❖❖❖

إن «ستيلتانو» و«بيلورچ» و«مايكل» وكل القوادين والبلطجية الذين قابلتهم، يقفون منتصبين، حتى وهم مسترخون تماما، ليس بشدة، بل بهدوء دون رقة، وحتى وهم في أوضاع شهوانية، أوهم يرقصون، فإنهم يظلون وحيدين، يفكرون في أنفسهم، ينعكسون برقة على مراياهم، بحيويتهم وقوتهم، فتظهرهم لامعين وتحدد ملامحهم بدقة شديدة، كأنهم أخذوا حماما من الزيت، بينما فتياتهم اللواتي يفضن بالصحة، غير مباليات بحضورهم المتوهج، يفكرن

بأنفسهن، ويقين معزولات بجمالهن وحده. أود لو صنعت باقة من هؤلاء الفتيان الجملاء، ووضعتها في فازة زجاجية مختومة. ربما تذيب الإثارة المادة الخفية التي تعزلهم، وقد يزهرون ويتوردون في ظل «أرماند»، ويقدمون لي الملذات التي كانت فخري في غيانا النموذجية.

لقد أدهشني أن كل قرابين الكنيسة (أسرار التناول)، عدا واحدة، توحي بالجلال، سأعطي سر التوبة مكانه الصحيح في احتفال طقوسي. أثناء طفولتي، اقتصر الأمر على وجه خجول، وغمغمة متفاوتة، تتلى أمام ظل قابع وراء مصراع كرسي الاعتراف، صلوات قليلة وأنا راكع على كرسي، لكنها – التوبة– اليوم تنتشر في بهجة دنيوية كاملة: حين لا تكون خطوة قصيرة إلى المشنقة، فهي الفيض الذي يسير إلى البحر، ويستمر في الحياة في منطقة خيالية. أنا لا أتحدث عن الصفات الخاصة «لغيانا» التي تجعلها تبدو كئيبة ورائعة، فلياليها ونخيلها، شموسها وذهبها، توجد، بغزارة، على الهياكل والمذابح الكنسية. وإذا كان عليّ أن أعيش في عالمكم – سافعل، ففكرة البعد متعذرة – وهو، على كل حال يرحب بي، وذلك هو الموت بالنسبة لي. وحين أكسب الآن بالقوة المجردة وحدها، ولقد وقعت هدنة واضحة معكم، فإنني أجد نفسي في منفى. ولا يهمني أن أعرف إذا كنت أرغب السجن لأكفر عن جريمة لا أعيها، لكن حنيني إليه كبير جدا، إلى درجة إرغامي على الذهاب إليه. فهناك فقط يمكنني مواصلة حياة قطعتها حين بعدت عنه. سأتخلص من مشاغل المجد والثروة، وسأواصل بصبر بطيء ومدقق تصرفات المحكوم عليه المؤلمة. وكل يوم سأقوم بعمل لايحكمه سوى نظام لاتحدده سلطة إلا تلك التي تنبعث من قانون السجن في الإصلاح والتهذيب. سوف أرهق نفسي. وسيساعدني الرجال الذين أجدهم هناك. وسأصبح لامعا مثلهم، مصقولا بحجر الخفاف.

لكني أتكلم عن مستعمرة عقاب أُلغيت. لذا دعني أستعيدها سرا، وأعيش فيها بروحي، والطريق الوحيد إليها يمر عبر «أرماند» بالضرورة، ويستمر خائضا في الفقر المخزي والمهين عبر إسبانيا الشحاذين.

أكتب هذه المذكرات، وأنا في الخامسة والثلاثين، وأرغب أن أعيش سنواتي الباقية في أمجاد معاكسة لتلك التي سبق أن عشتها.

كان لدّى «ستيلتانو» كمال أكثر من «أرماند». وإذا قارنت بينهما فإن «أرماند» هو الكون المتمدد– كما أفهمه– ليس محددا ومتقلصا في أبعاد يمكن ملاحظتها، فقد كان يغيّر شكله دوما وأنا أتتبعه. كان ستيلتانو بالفعل محددا كالدائرة. كما أن الاختلاف بينهما يتميز بطبيعة الدانتلا التي كانا يتعاملان بها. فحين جرؤ ستيلتانو على السخرية من موهبة «أرماند»، فإن الأخير لم يفقد أعصابه. أعتقد أنه كظم غيظه، ولا أظن أن ملاحظة ستيلتانو قد جرحته. استمر في تدخين سيجارته بهدوء، ثم قال: ربما تعتقد أنني مسطول..

– لم أقل ذلك..

– أعرف.

وظل يدخن بنظرة عقل شارد. وأدركت لتوي أحد الإهانات التي عانى منها أرماند – وهناك الكثير منها– هذه الكتلة من الكبرياء لاتتكوّن فقط من عناصر جسورة أو حتى محترمة، فجماله، ونشاطه، وقوته، وشجاعته، لم تكن دائما عوامل لفوز مؤكد، فقد كان عليه أن يخضع، كبائس فقير، للتدريب على عمل الدانتلا، كما هو متوقع لأطفال لايجدون سوى الورق للتدرب عليه.

قال «روبرت» الذي كان كوعاه على الطاولة، ورأسه بين كفيه:

– ألم يخطر ذلك ببالك؟

– يخطر.. ماذا؟

– أن تعرف كيف يصنع ذلك.

وقاحته لم تجرؤ أن تواجه الرجل مباشرة بفقره. تكلم «روبرت» بتردد ، وكان «ستيلتانو» يبتسم، هو، أكثر من أي شخص آخر، كان يجب عليه أن يعي ألم «أرماند». وكان مثلي يخاف ويأمل في إلقاء السؤال الذي جبن «روبرت» عن صياغته: أين تعلمت أن تفعل ذلك؟

اقتراب أحد عمال الميناء ترك السؤال معلقا. كان مروره لتذكير «أرماند» بموعد في الساعة الحادية عشرة. نغمات عازف البيانو أشاعت جوا من البهجة في الجو الملبد بالدخان داخل البار. أجاب أرماند بقوله: وهو كذلك.

ظل وجهه حزينا. وحيث إن العاهرات كن قليلات، فقد كانت لهجة الحديث حارة وبسيطة.

حين فكرت بعد ذلك في راحتيه وأصابعه الغليظة، ضمنت أن دانتلا الورق التي كان يصنعها، لابد أن تكون قبيحة. كان غير رشيق لمثل هذا العمل، إلا إذا كان قد تعلمه في السجن. فالمساجين ماهرون بشكل مدهش، فأصابعهم الإجرامية تبدع، أحيانا، روائع جميلة ورهيفة، من أي شيء يقع في متناول اليد: عيدان كبريت، قطعة كرتون، نتف من خيط، والزهو الذي يشعرون به له صفة المادة والتحفة التي يصنعونها: هشة ومتواضعة. وعادة يهنئ الزوّار السجناء على محبرة منحوتة من قشرة زوجة الهند مثلا، بالطريقة التي يطري فيها المرء قردا أو كلبا على ذكائه المدهش.

بعد ما ذهب عامل الميناء، ظل وجه «أرماند» دون تغيير. قال:

– إذا اعتقدت أن المرء يمكنه أن يتعلم كل شيء فذلك لأنك غبي صغير. أعيد هنا صياغة الكلمات التي استخدمها، لكني لم أنس نغمة الصوت التي نطقها بها. فذلك الصوت المبجل كان يزمجر من بين أسنانه. وزأر الرعد، وهو يصطدم بإصبع رشيق، بأعظم أوتار صوتية ثمينة في العالم.

وقف «أرماند» وهو مازال يدخن: ياللا بينا.

– ماشي.. هيابنا.

بهذه الكلمات، قرر إننا جميعا يجب أن نذهب للبيت لننام. دفع «ستيلتانو» الحساب. وسار «أرماند» إلى الخارج، بمشيته السريعة، وطريقته الاستعراضية الأنيقة المحببة، ومشى في الشارع بطمأنينته المعتادة. لم يتلفظ، في ذلك المساء، بأي من الكلمات أو التعبيرات الشائعة عنده، التي تجعل الناس يظنونه ماجنا. اعتقدت أنه كان يبتلع غيظه. كان يمشي بخفة رافعا رأسه، وبجانبه «ستيلتانو» بسخريته المعسولة، «وروبرت» بصفاقته الغرَّة، وكنت بقربهم، ضميرهم المتأمل، أحتويهم هم وأفكارهم. كان الجو باردا، وشعر أصدقائي الأقوياء بالبرد كانت أيديهم مندسّة في جيوبهم حتى أسفل نقطة تصل إليها، تضغط على سراويلهم التي تبرز أفخاذهم،و الصمت يغلفهم.

حين وصلنا إلى شارع «دوساك»، سلّم «ستيلتانو» على «روبرت» و«أرماند» قائلاً: سأمر على «سيلڤيا» قبل العودة إلى البيت.. هل تأتي معي ياچان؟

ذهبت معه، تجولنا على الأرصفة المغطاة بالحصى دون كلام.

كان يبتسم. ودون أن ينظر نحوي، قال:

– أصبحت علاقتك حميمة جدا «بأرماند».

– صحيح.. لماذا؟

– لاشيء.

– لماذا تشير إلى ذلك؟

– هكذا.

واصلنا المشي، لكن بعيدا عن المكان الذي تعمل فيه سيلڤيا.

– قل لي..

– ماذا؟

– لو كان معي نقود.. أتكون لديك الشجاعة لتسرقني؟ وبعيدا عن التبجح، مدركا أن جسارتي كانت مجرد موقف نفسي، فأجبته بنعم،

– سأسرقك..، ولم لا.. إذا كان معك كمية كبيرة.

ضحك، قال: وماذا عن «أرماند» ؟ هل تجرؤ؟

– لماذا تسألني ؟

– أجبني.

– أنت.. هل تسرقه ؟

– أنا؟ ولم لا؟ إذا كانت معه كمية كبيرة. لقد سرقت الكثير من الناس، ولايوجد سبب يمنعني من سرقته.. ماذا عنك ؟

أجبني.

بتغيير الفعل من الشرط المشكوك فيه، إلى صيغة المضارع، أدركت أننا وافقنا على سرقة «أرماند». كنت أسخر حين أخبرته أنني سأسرقه، مثل هذه القسوة في علاقتنا، كانت مرتبطة بإخفاء فعل قاس يستهدف أحد أصدقائنا. وأدركنا أن هناك مايربطنا معا، تواطؤنا لم يكن سببه الاهتمام بذواتنا، إنه وليد الصداقة.

أجبته: الأمر خطير..

– ليس جدا.

وانتشيت بفكرة أن «ستيلتانو» نحّى صداقته «لروبرت» جانبا، وعرض عليّ الأمر. كنت أود أن أقبله عرفانا، لو لم يكن فاشخا فمه بابتسامة. ثم تساءلت عما إذا كان قد طلب من «روبرت» الطلب ذاته، وهل رفض «روبرت» ؟ قد يكون، في هذه اللحظة، يقوم بمحاولة انشاء علاقة مع «أرماند» مثل العلاقة الحميمة التي تربطني بـ «ستيلتانو» لكني شعرت بثقة أنني قد أخترت شريكي في هذه الرقصة.

وشرح لي «ستيلتانو» مايتوقعه مني. يجب أن أسرق «أرماند» قبل أن تكون لديه الفرصة لتهريب كمية الأفيون، إلى هولندا أو فرنسا، التي سيتسلمها من بحارة وميكانيكي سفينة شحن

ترفع العلم البرازيلي، اسمها «ارونتاي».

وقال: لماذا تقلق عليه؟ لقد كنا، أنا وأنت معا في إسبانيا.. يتحدث عن إسبانيا، كأنه يتحدث عن مسرح بطولي. وسرنا في الظلمة المثلجة.

– لاتخدع نفسك «بأرماند».. حين يستطيع سرقة شخص ما.. فإنه.. أدركت أن ليس عليّ أن أحتج، حيث إنني لا أملك قوة كافية لأصدر قوانيه أخلاقية (من صنعي) أستطيع فرضها، لذا عليّ أن أستخدم الذرائع العادية، وأتظاهر بأنني عاشق للعدالة كي أبرر جرائمي.

– هو لايخجل من عمل أي شيء .. عليك بالاستماع للقصص التي تروى عنه.. فقط اسأل واحدا ممن يعرفونه.

– لو عرف أنني الذي.

– لن يعرف.. عليك أن تخبرني أين يخفيها.. وسأذهب إلى غرفته حين يكون في الخارج..

حاولت أن أنقذ «أرماند»، فقلت:

– لا أتخيل أنه يتركها في غرفته.. لابد أن له مخبأ في مكان ما.

– عليك أن تعرفه.. فأنت ذكي لتتدبر ذلك.

قبل أن يمنحني «أرماند» الاعتبار الذي تحدثت عنه، فمن المحتمل أنني لم أكن لأخونه. فمجرد التفكير بذلك، كان سيرعبني. ولو لم يعطني ثقته، فإن خيانته لامعنى لها: فذلك يعني، ببساطة، إطاعة القاعدة الأساسية التي حكمت حياتي. لكنني الآن أحبه، وأعرف قوته، ومع أنه لايحبني إلا أنه احتواني. كانت سلطته الأخلاقية مطلقة وكريمة بحيث إن أي تمرد ثقافي خلاله، يبدو مستحيلا. والطريقة الوحيدة التي أستطيع أن أثبت من خلالها استقلاليتي هي، بالعمل على المستوى العاطفي. فكرة خيانته جعلتني متوهجا. خفته وأحببته كثيرا جدا لدرجة أنني لا أريد أن أخدعه أو أخونه أو أسرقه. عرفت اللذة المقلقة التي تصاحب تدنيس المقدسات.، لو كان إلها (لقد عرف الشفقة)، وكان سعيدا بي، فمن الممتع أن أنكره. وتظل الحقيقة الأفضل، أن «ستيلتانو» الذي لم يحبني، والذي لم أخنه قط، سيساعدني. إن شخصيته القاسية توحي، تماما، بصورة خنجر يخترق القلب. قوة الشيطان وسلطته علينا تكمن في سخريته. إغواؤه قد يكون هو استقلاله التام. القوة التي ينكر بها «أرماند» التقاليد، تثبت قوته الخاصة، وقوة التقاليد عليه. بينما «ستيلتانو» يبتسم منها. ابتسامته تذيبني. كانت جسورة لدرجة أنها تعبر عن نفسها على وجه ذي جمال عظيم.

دخلنا أحد البارات، وبدأ «ستيلتانو» الشرح.

سألته: هل أخبرت «روبرت» بالعملية؟

– هل أنت مجنون! إنها بيننا فقط.

– وهل تعتقد أننا سنخرج منها بمبلغ كبير..؟

– إنه بخيل.. وقد جمع مبلغا كبيرا في فرنسا.

بدا أن «ستيلتانو» كان يفكر بالعملية منذ وقت طويل. وكأني أراه ينهض من حياة ليلية عاشها أمام عيني، لكنها ظلت خفية. ووراء ابتسامته كان يراقب ويتجسس. ونحن نغادر البار، اقترب منا شحاذ يطلب حسنة، تطلع إليه «ستيلتانو» بإزدراء، وقال:

– افعل ما نفعله يارفيق.. إذا أردت نقودا خذها. قال الشحاذ: قل لي أين أجدها؟

– هناك بعض منها في جيبي.. إذا أردتها – ابحث عنها..

– ذلك ما تقوله.. لكنك لو كنت...

رفض «ستيلتانو» أن يدخل في حوار معه، فلو استمر فسيضعف هو نفسه. عرف كيف يبتسر الحوار بمهارة شديدة، كي يشحذ نشاطه، ويعطي انطباعا بأن الأمور غير مختلطة عنده.

قال لي: حين نريد المال نأخذه أينما يكون. ولن نقع في المتاعب من أجل أن يستفيد الصعاليك.

هل كان واعيا. إنها اللحظة المناسبة لإعطائي درسا في القسوة؟ أو إنه شعر بحاجته لمد جذور الأنانية إلى مسافة أعمق في نفسه؟ تحدث بطريقة عابرة، بحيث اتخذت النصيحة، في الليل والضباب، أبعادا فلسفية حقيقية بسيطة، تتناسب مع نزعتي الطبيعية التي تميل إلى الشفقة. وأدركت في هذه الحقيقة غير الطبيعية، قيمة موقف قادر على أن يحميني من نفسي.

قلت: أنت على حق. إذا قُبض علينا فلن يكون هو السجين. دعه يسعى لنفسه إذا كانت لديه الشجاعة.

بهذه الملاحظة، لم أكن أجرح فقط أعظم فترة قيّمة في حياتي، وأكثرها خفاءً، بل أثبت نفسي في موقع كالجوهرة في مدينة قاطعي الماس، بحيث تلألأت أسطحها في تلك الليلة من العزلة المركزة على الذات. اقتربنا من المكان الذي تعمل فيه «سيلڤيا»، لكن الوقت كان متأخرا، وكانت قد عادت إلى البيت. (غادرنا بسرعة، فمن المعروف حين لاتكون العاهرات في

اماكنهن، فالبوليس قريب، وهناك مثل في العالم التحتي يقول: حيث لا توجد العاهرات توجد الشرطة.)

لاحظت أنه حين نتحدث عن فتاته، فإن سخريته تختفي، يتكلم عنها بلا حنو ولكن بلا ابتسام. وحيث إن الدعارة غير منظمة في بلچيكا كما في فرنسا، فإن القواد يمكن أن يعيش مع فتاته بلا خطر. وقصدنا فندقه، توقف عن الحديث عن خططنا، واستدعى، بذكاء، ذكريات حياتنا في إسبانيا.

قال: كنت معجباً بي كثيراً آنذاك؟

قلت: والآن؟

قال: أتساءل.. هل مازال هذا الإعجاب؟

أعتقد أنه أراد أن يتأكد من حبي، وأنني قد أهجر «أرماند» من أجله. كانت الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا، وقد خرجنا من منطقة حيث الضوء والصوت صاخبان.

قلت: ليس مثلما كان الأمر في الماضي.

– لا تمزح.

مازلنا نسير، ابتسم، ورمقني بنظرة جانبية.

قلت – ما الحكاية؟

كانت ابتسامته مخيفة. جهدي – كما يحدث غالبا، خاصة منذ ذلك الوقت– كان أكبر من قوتي الحقيقية، ولكي أتغلب على وضعي، وأكذب عليه، تلفظت بملاحظة مستفزة، مع أنني نطقتها بهدوء. وهو موقف يتطلب الشرح بالتفصيل، فهو مثل مقدمة النظرية، يبدأ من الشرح وليس العكس.

– لاشيء..

– أنت لاتحبني كثيرا..

– أنا لا أحبك.

كنا، في تلك اللحظة، نعبر تحت قنطرة فوقها قضبان سكة حديدية، والمكان أظلم من أية بقعة أخرى. توقف «ستيلتانو» واستدار لينظر نحوي. خطا خطوة للأمام، وظللت في مكاني. قال وفمه تقريبا على فمي:

– چان.. أنا سعيد أنك ملكت الجرأة.

تبع ذلك ثوان من الصمت. خفت أن يستل سكينه ليقتلني. ولم أفكر بالدفاع عن نفسي. لكنه ابتسم، وقال: أشعل لي سيجارة.

تناولت واحدة من جيبه، أشعلتها، وأخذت نفسا عميقا، ثم وضعتها بين شفتيه، في المنتصف تماما، وبحركة سريعة رشيقة من لسانه، أزاحها إلى الركن الأيمن من فمه،. وخطا خطوة إلى الأمام وهو يبتسم، مهددا بحرق وجهي إذا لم أتراجع. واتجهت يدي إلى عريه، كان صلبا، ابتسم، ونظر في عيني. كان من السهل عليه أن يخزن الدخان في صدره، فتح فمه دون أن تخرج منه زفرة واحدة، كل مابدا منه قسوة على نفسه وفي ملامحه. وزال التردد والليونة، مع أنني رأيته، قبل وقت ليس بالطويل، في موقف مزر.

في أرض المعارض، هناك ما يعرف بقصر المرايا، وهو مقسم بألواح من زجاج بعضها مفضض والآخر نصف شفاف. تدفع وتدخل، والمشكلة كيف تخرج. تتجول بيأس، تصطدم بصورك في المرايا، أو بزائر يفصلك عنه الزجاج، والمتفرجون في الشارع يراقبونك وأنت تبحث عن الممر الخفي. (المشهد الذي سأصفه، أوحى لي بفكرة بالية أسميته «مرآة آدم».

حين وصلت إلى الكشك الوحيد على أرض المعرض، كان هناك جمهور كبير يتفرج، فأدركت أن هناك شيئاً غير عادي يجري. كان الناس يضحكون، عرفت «روجر» وسط الجمهور، كان يحملق في المرايا المتداخلة، ووجهه متوتر بشكل مأساوي. قبل أن أراه، عرفت أن «ستيلتانو» وحده هو الذي وقع في فخ الممرات الزجاجية. وكان توهانه على مرأى من الجمهور، لا أحد يستطيع سماعه، لكن من حركاته، ومن فمه يمكن للمرء أن يدرك أنه يصرخ بالغضب، كان ينظر إلى الجمهور بحنق، وكانوا ينظرون إليه ويضحكون. كان مدير العرض لامباليا. وستيلتانو وحيدا، فكل من دخل وجد طريقه إلى الخارج ماعداه. أصبح الجو غائما بطريقة غريبة، والظل الذي غطى الناس والأشياء فجأة، كان ظل عزلتي في وجه هذا اليأس، لأن «ستيلتانو» الذي كان يصرخ ويصطدم بألواح الزجاج، أسلم نفسه ليكون مضحكا للمشاهدين. وأقعي على الأرض، ببساطة، مشيراً بذلك إلى رفضه أن يستمر. ترددت. هل أتركه، أو أساعده في هدم سجنه البلوري. نظرت إلى «روجر» دون أن يراني، ما زال يحدق في ستيلتانو اقتربت منه، شعره الناعم المنسق، مفروق من المنتصف وينسدل على خديه ليصل فمه. رأسه يشبه بعض أشجار النخيل، وعيناه مبللتان بالدموع.

لو اتهمت بأنني أستخدم مثل هذه الدعامات المسرحية، لأقيم ساحات ملاه، أو سجون، أو زهور، أو أماكن لتدنيس المقدسات، أو للاختلاس، محطات أو حدود أو أفيون أو بحارة أو موانئ ومباول وجنازات، وغرفا في فنادق رخيصة، أو إبداع ميلودرامات متوسطة القيمة، أو شعر مشوش

ومختلط بلون شعبي رخيص.. فبماذا كان يمكنني أن أجيب؟ لقد سبق أن قلت إنني أحب الخارجين على القانون، الذين لايملكون جمالا آخر سوى جمال أجسامهم. الأشياء المذكورة مشبعة بعنف الرجال ووحشيتهم، والمرأة لا تنغمس في ذلك، فهي تحيا بحركات الرجال. المعارض الجوالة في الشمال موجهة إلى الرفاق الشقر ضخام الأجسام. وهم وحدهم الذين يأسرونهم، فتياتهم يتعلقن بصعوبة بأذرعهم، وهن اللواتي كن يضحكن من حظ ستيلتانو العاثر.

فكرّ «روجر» ثم دخل. ظننا أنه سيتوه وسط المرايا. رأينا سيره والتواءاته البطيئة الجادة وخطواته الواثقة. خفض عينيه لينظر إلى الأرض، فهي أقل خداعا من الزجاج. وصل إلى «ستيلتانو» تقوده ثقته. رأيناه يتمتم، وقف «ستيلتانو» واستعاد بالتدريج رباطة جأشه، وانضم إلى روجر بعظمة. لم يرياني. وواصلا تجوالهما في المعرض، بعد تحررهما، ضاحكين. وعدت إلى البيت وحدي. هل كانت صورة «ستيلتانو» الجريح هي التي أثّرت فيَّ لهذه الدرجة؟ أعرف أنه يستطيع أن يحتجز في صدره دخان سيجارة كاملة، انتهاؤها يعلن عن نفسه فقط بطرفها المتوهج، ومع كل نفس يضيء وجهه. شعرت بعريه تحت أصابعي التي تتحسسه برفق.

سألني: هل تحبه؟

لم أجب، فما الفائدة؟ هو يعلم أن تبجحي قد انتهى. أخرج يده اليسرى من جيبه، ووضع ذراعه حول كتفيّ، ضمني إليه، بينما السيجارة تحرس فمه، وتحميه من القبل. كان هناك شخص قادم، تمتمت بسرعة: أحبك. ابتعدنا. وحين تركته أمام مدخل الفندق كان على ثقة بأنني سأقدم له معلومات كاملة عن «أرماند».

عدت إلى غرفتي، وذهبت للنوم. حتى حين يخدعني أو يكرهني عشاقي، فلا أقدر على مبادلتهم الكراهية. يفصلني عن أرماند حائط رقيق، كان يعتصر «روبرت»، عانيت لأني لست مكان أحدهما، أو أنني لم أكن معهما.، حسدتهما لكن دون كراهية. صعدت السلم الخشبي بحذر شديد، فقد كان مقلقلا ويصدر أصواتا، فكل فواصله خشبية تقريبا. أتخيل «أرماند» وقد خلع حزامه ذلك المساء، دون أن يلوّح به كالسوط، واعيا بقوته وحزنه الرجولي، وربما يتقرب إلى «روبرت» بحركات صامتة، مطيعا لذته. أراه يبرر قوته، التي انبثقت من السعادة والبؤس، ويسوغ كل تصرفاتها. دانتلا الورق التي عمل بها، لها القوام الهش ذاته، الذي لحيل الشحاذين. إنها تنتمي إلى مملكة الدهاء، زائفة مثل جروحهم وجدعاتهم وعماهم.

لم يكن هدف هذا الكتاب، أن يكون عملا فنيا منزوعا عن كاتبه وعن العالم، محلقا في سمائه الخاصة. كان بإمكاني الحديث عن حياتي الماضية بأسلوب آخر، وبكلمات مختلفة. لقد جعلته يبدو بطوليا، لأن بداخلي حاجة ليكون كذلك، ألا وهي الغنائية. اهتمامي بالترابط، جعل من واجبي أن أواصل مغامراتي بأسلوب كتابي، فذلك يساعد في تحديد الدلالات التي

يقدمها الماضي. لقد وضعت إصبعي – بثقل وعدة مرات– على الفقر والجريمة التي يعاقب عليها القانون، وباتجاه ذلك سأمضي، ليس بنية أن أعثر عليها بطريقة القديسين الكاثوليك، بل ببطء، ودون محاولة تجنب متاعب ورعب المغامرة.

لكن هل أنا واضح؟ ليس الأمر مسألة تطبيق لفلسفة التعاسة، بل على العكس تماما، فالسجن– في كل من العالم والعقل– الذي أتوجه إليه، يقدم لي أفراحاً أكثر من كل أعيادكم وتكريمكم، ومع ذلك، فإن ما أبحث عنه، وأتوق إليه، هو احترامكم واعترافكم بي.

كتابي البطولي هذا، الذي أصبح سفر تكويني، يحتوي – أو ينبغي أن يحتوي– على وصايا لا أستطيع انتهاكها. وإذا كنت أستحقها فستحفظ لي المجد الشائن الذي هي سيدته، فأي مرجع لي سواها؟ من وجهة نظر أخلاقية عادية صرفة، أليس من المنطقي أن يجرني هذا الكتاب إلى السجن؟ ليس من خلال بعض الخطوات السريعة المحكومة بمبادئكم، ولكن بالفواجع التي يحتويها، ووضعتها هناك عمدا، لتبقيني شاهدا على ميدان تجربة وحياة، ودليلا على فضيلتها ومسؤوليتي.

أرغب في الحديث عن أعياد السجن هذه، فوجود ذكور مجروحين يحيطونني، هي بالفعل نعمة منحها الله لي، ومع ذلك، فأنا أذكرها بشكل عابر، فمواقف أخرى (الجيش والرياضة) يمكن أن تقدم لي أشياء مشابهة.

في الجزء الثاني من هذه اليوميات، الذي سأسميه «مسألة أخلاق» أعتزم أن أسجل، وأصف، وأعلق على أعياد سجن داخلي، اكتشفته في أعماقي، بعد غوص في منطقة من نفسي اسمها أسبانيا.

لم يكتب هذا الجزء قط (هـ. م.)

صدر حديثاً في هذه السلسلة

البحث عن الزمن المفقود / مارسيل بروست

ت: إلياس بديوي

الجزء الأول: جانب منازل سوان

الجزء الثاني: في ظلال ربيع الفتيات

الجزء الثالث: جانب منازل غرمانت

الجزء الرابع: صادوم وعامورة

البحر والسم / شاساكو إندو

ت: كامل يوسف حسين

البطء / ميلان كونديرا

ت: طلعت الشايب

اغتيالات للذكرى / ديديه دينانكس

ت: راوية صادق

الربيع وفصول أخرى / لوكليزيو

ت: أ. د. محمد [illegible]

أسير عاشق / چان چينيه

ت: كاظم جهاد

مختارات من الشعر الأمريكي المعاصر (٤٥-١٩٩٥)

ت: د. حسن حلمي

الشمس المهيمنة / إيليتس

ت: محمد عفيفي مطر

دير پرم / استندال

ت: عبد الحميد الدواخلي